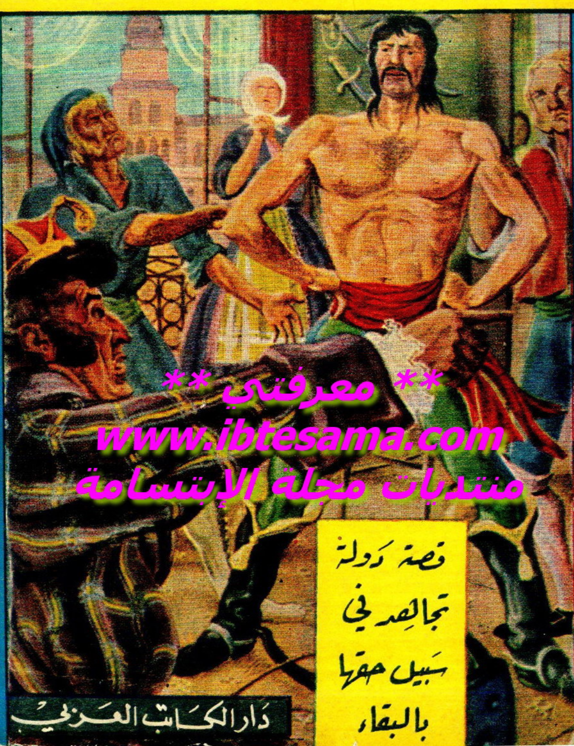
توماس مان

شهداء الوطنية



قصة دولة تجالد في سبيل حقها بالبقاء

دار الكاتب العربي

توماس مان

شهداء الوطنية

دار الكاتب العربي

الشيطانة الصغيرة

في أصيل يوم من ايام ايلول عام ١٨٩٤ كنت وجدّتي في بهو المصطاف في حمامات اكس ، جالسين نرقب شهود رواية تمثيلية كانت ستمثل في ذلك الأصيل لتفكهة المصطافين .

وكان الأصيل جميلًا رائق النسيم ، صحواً ساكن الأنفاس . فبينما نحن نستمع إلى احدى الفتيات وهي تغني بضعة أبيات ، إذ دخلت البهو صبية صغيرة .

وكنت قد وضعت بجانبي على المقعد القريب مني قبعتي الصغيرة ، فتقدمت الصبية الى هذا المقعد رأساً على حين كان في البهو عدة مقاعد خالية .

دنت الصبية مني وراحت تسألني :

— أهذه قبعتك ؟

قلت : نعم يا آنسة .

وعلا وجهي الخجل ، ورفعت القبعة عن المقعد . وكانت جدتي قد دارت بعينها تتفحص تلك القادمة الجديدة في دهشة شديدة ، فلم تعرها الصبية اهتماماً .

وبدأ التمثيل ، وكانت الرواية هزلية فرحة ، فضج الاطفال الصغار الذين كانوا يشهدون التمثيل مع أقاربهم ضاحكين هاتفين لظهور الممثل الغربي .

ولكن تلك الصبية الصغيرة ، جليستي ، كانت ترسل ضحكات صخابة متعالية ، فوارة ثائرة ، حتى لفتت جميع انظار الكبار اليها .

وأخجلني ان يكون مجلسي بجانب هذه الصغيرة التي تطلعت اليها الأبصار . على انها لم تلبث بعد بضع دقائق ان انقطعت عن الضحك ، فخالستها نظرة صامتة خفية لأرى ماذا أوقف تلك الضحكات القاصفة الراعدة ، فوجدتها فاتحة فمها الصغير متثائبة ، فعدت أنظر صوب المسرح .

ولكني لم ألبث ان أحسست بيد تجذبني من كم ثوبي ، فالتفت فاذا تلك الصبية تقول :

– ما أثقل الجلوس هنا ، تعال العب معي في الحديقة .

فتمتمت اقول : ولكني مع جدتي !

ولكنها قالت : اذن استأذنها وهيا ننطلق .

فلم أحر جواباً ، وأمسكت عن الكلام ، ولكنها انحنت نحو جدتي وراحت تقول :

– سيدتي اتأذنين لهفي الذهاب معي الى الحديقة لنلعب سوياً ؟

وكنت اعتقد بأن جدتي لا يرضيها من صبية هذه الجرأة ، وظننت انها سترفض السماح لي بالذهاب ، ولكن لشدما كانت دهشتي إذ أذنت .

وأردفت جدتي الاذن بقولها : ولكن على شرط ان لا تدنوا ناحية الماء ..

فقالت تلك الشيطانة الصغيرة : بلا ريب وان كان الماء في الحديقة غوراً لا خوف منه . ولكني اعدك يا سيدتي ما طلبت، ثم رنت اليّ وقالت : والآن هلم بنا .

فمشيت في أثرها . فلما بلغنا المكان خلعت صاحبتي عنها معطفها وقالت : انني متعبة فتعال اجلس فوق هذا المتكأ وانظر اليّ في وجهي .

فأطعت وقد عراني الخجل .

قالت : كيف تراني ؟

قلت متلعثما مطرق الرأس : جميلة ! .

قالت : أحقاً ؟

قلت : جدّ الحق .

قالت : اذا كان ذلك فلم لا تنظر إليّ هكذا ..

ومدت يدها الناعمة فرفعت ذقني قليلًا لكي اجيل النظر في وجهها .

وكانت صبية تناهز الحول الرابع عشر ، متثنية العطف ، متمايلة الغصن ، سمراء الملامح ، ذات عينين سوداوين .

وظلت ترفع ذقني بيدها حتى التقت عيناي بعينيها ، واذ ذاك تركت رأسي يطرق حياء .

قالت : ما اسمك ؟

قلت : يدعونني فرانسوا جيرار .

قالت : ثم ماذا ..

قلت : هذا اسمي كله .

قالت : بل ذلك لقبك فما اسمك إذن ؟

فأجبت : جيرار أما فرنسوا فلقبي .

قالت وهي تفكر ملياً : آه ..

قلت خائفاً مستحيياً : وانت أيّ اسم ينادونك به ؟

فأخرجت من أحد جيوب ثوبها عدة اشياء .. كيس نقود وصفارة ثم محفظة اوراق كان منظرها غريباً بل آية الغرابة في تلك اليد الصغيرة ، يد تلك الصبية اللعوب ، ثم فتحتها ونزعت منها بطاقة وقدمتها إلي بجد وسكون وقالت :

– هاك ! .

فقرأت البطاقة فاذا هي تحتوي تاجاً صغيراً كتبت تحته هاتان الكلمتان :

انتيوب دانتريم

قالت : أيروقك اسمي ؟

كنت في دهشة فحاولت اخفاء دهشتي بهذا السؤال .

– لست إذن فرنسية ؟

فأجابت بصوت جاف : بلى !

وساد سكون .. ثم أعدت اليها البطاقة .

قالت : بل احفظها لديك . انها انما طبعت لتحفظ ، ضعها في محفظتك .

قلت متلعثماً : لكن ..

فقالت دهشة : أليست لديك محفظة أوراق ، يجب على كل رجل أن يكون لديه محفظة أوراق .. انه ليسرني أن أعطيك محفظتي ، ولكن الاحرف الأولى من أسمي منقوشة عليها . إذن ضع بطاقتي في جيبك الصغير . هنا . نعم خلف هذا المنديل .

وعادت تسألني : كم عمرك ؟

قلت : في الثالثة عشرة .

قالت : يا للعجب ، تلك سني أيضاً ، إذن أنت ولدت عام ١٨٨١ ؟

قلت : في السادس عشر من شهر تموز .

قالت : إذن فأنا أكبر منك سناً فمولدي في الرابع والعشرين من شهر نيسان .

واستولى علينا الصمت لحظة ، ثم نهضت فجأة وهي تصرخ فرحة : ها هو بابا قادم نحونا !

فنظرت صوب الجهة التي أشارت اليها ، فرأيت محفة صغيرة تدنو نحونا يدفعها وصيف ، وشهدت رجلاً جالساً فيها ملتفاً بأغطية من الصوف ، وكان وجهه وحده ينم عن الحياة ، أما بدنه فقد أضنته علة النقرس فأضحى لا حراك به .

وتقدمت الصبية فأدنت جبينها من شفتيْ أبيها فطبع عليه قبلة حارة وهو يبتسم ، وجعلت تكلمه وهي مشيرة نحوي ولكني كنت عن كثب فلم ألتقط حديثهما .

وتابعت المحفة المسير فلما دنت مني أرسل الشيخ المريض ابتسامة إليّ .

وصاحت الفتاة بي : إلى الغد يا فرنسوا . لقد أسعدني لقاءك. لقد أذن لي بابا بأن أناديك باسمك بلا تكليف ! ..

وانطلقت المحفة .

*

قالت جدتي وقد جاءت تبحث عني : والآن ماذا رأيت من صديقتك الصغيرة ، ومن يكون أبوها ؟

قلت : إن أباها عليل اضناه النقرس .

فسألتني جدتي : وهل رأيته ؟

قلت : نعم وقد حياني .

قالت : وأمها ؟

قلت : لم أرها .

قالت جدتي : بلا ريب ، واهاً للصبية المسكينة ، فهي لا بد أن تكون ابنة امرأة مطلقة ، كما هي الحال هنا في هذا المصطاف.

قلت : لعل والدتها ماتت .

قالت : ربما . والآن هلم بنا ننصرف فانني أخشى عليك البرد هنا ..

وغادرنا الحديقة . وكانت الحوانيت في شارع الكازينو قد اضاءت انوارها ومصابيحها، فلم نكد نمشي قليلًا حتى وقفتُ أمام أحد الحوانيت .

قلت : جدتي !

قالت : ماذا بك ؟

قلت : أريد محفظة جيب .

فما كان أشد دهشة جدتي لهذا الطلب ، وراحت تقول مستغربة : محفظة جيب !

قلت : نعم ، يجب أن يكون لكل رجل محفظة .

فعادت جدتي تكرر دهشتها : محفظة جيب وأنت في هذه السن ؟ . .

وألقت نظرة سريعة على الاسعار المكتوبة على المحافظ المعلقة خلف الزجاج ثم قالت : على أية حال لا يليق بك أن تحمل محفظة من تلك التي تتراءى لك وراء هذا الزجاج . ألا استمع اليّ ، ان لديّ في البيت دفتراً ذا غلاف من الجلد يمكن نزعه وانني واهبتك اياه ، ولحسن الحظ ستجد في هذا الغلاف عينا للنقود ايضاً .

وفي اليوم التالي كنت في الموعد المضروب ولم انتظر طويلاً حتى جاءت انتيوب ، فما كادت تحييني حتى عاجلتني بهذا السؤال : أين محفظتك . هل جئت بها ؟

قلت بلهجة المنتصر الفرح وأنا أخرجها من جيبي بسرعة : نعم ، وها هي !

وشعرت بأن صديقتي الصغيرة قد سرها مني مبادرتي بالنزول على أمرها والخفة الى ارضائها ، ولكنها لم تشأ أن تظهر ذلك السرور .

قالت وهي تتفحص المحفظة عابسة : ليست جميلة جداً .

ورأت استيائي في صفحة وجهي ، فارادت أن تصلح خطأها فقالت : نعم ولكنها تحوي كيساً للنقود وليست محفظتي كذلك . انه لكيس متقن الصنع أيضاً . .

ثم اردفت ذلك بقولها : اتسمح لي بأن أنظر ما فيها .

وكان في المحفظة قطعتان من الفرنكات فقالت الفتاة بلهجة غريبة : أتحب أن تعطيني قطعة منهما ؟ .

قلت : بل القطعتين معاً . اذا شئت .

وكنت حقاً في دهشة من سؤالها .

فوثبت الى عنقي والقت ذراعيها حول نحري وهي تقول : يا لك من رقيق الشعور !

ثم لم تلبث أن عادت إلى رزانتها الأولى فقالت : ينبغي أن أشرح لك الأمر . أنت تعلم انه ليس ما أردت لأجلي .

ونزعت من جيبها محفظتها وأخرجت منها صفحة طويلة عريضة نشرتها أمام عينيّ فاذا هي تحوي اعمدة وأسماء وأرقاما ..

قالت : إن هذه النقود أجمعها لعمل أنا به في شغل .

وتناولت من المحفظة قلماً وقالت : هاك أنظر في العمود الأخير سأكتب « فرانسوا جيرار – فرنك واحد » سأكتب ذلك بالقلم الرصاص ولكني في المساء إذ تحتويني حجرتي سأثبت بالمداد ما كتبت .

مضت عشرة أيام أخرى فازمعت أسرتي الرحيل عن اكس ، فذهبت أودع انتيوب، ولئن كنا قد تواعدنا أن نتراسل ويكتب كل منا رسائل إلى صاحبه ، فقد وقفنا حيث وقف بنا الوداع ، صامتين محزونين وفي الفؤاد من الأسى لوعة .

قلت بصوت خافت : أريد منك تذكاراً .

فتحسست جيبها وكانت محفظتها الكبيرة لا تفارق ذلك

الجيب ، وأخرجت منها صورة قديمة وقدمتها إليّ وهي تقول : هذه صورة لي يوم عمادي ..

وعانقتني ثم افترقنا ..

وفي المساء إذ أقلّنا القطار ينهب الأرض ، أردت أن ألقي نظرة على تلك الصورة التي اهدتنيها تلك الصبية الغريرة .

لقد كانت صورة بارزة ، ولكنها عادية التصوير وانما كتبت في ظاهرها جملة طويلة بالانكليزية .

ولم يكن من أهلي أحد يعرف شيئاً من هذه اللغة ، فرأيت أن أنتظر حتى اعود إلى المدرسة ، وكان موعد رجوعي اليها ليس مني بعيداً .

وفي اليوم الأول من رجوعي رحت أبحث عن غلام نبئت أنه أول غلمان المدرسة علما بالانكليزية ، فلما تناول مني الصورة نظر اليها نظر العالم الخطير ثم لم يلبث أن قطب حاجبيه وقال : دع هذه الصورة لي وسأردها اليك بعد قليل .

وبر الفتى بوعده فلم تكد تمضي ساعة حتى عاد يحمل تلك الصورة العزيزة لديّ وقد شبك بها ورقة اثبت فيها ترجمة تلك الكلمات التي وضعت في ظاهر الصورة .

قال وهو يمد يده بالصورة إليّ : خذ صورتك وترجمة الفاظها واعلم أن تلك الكلمات ألفاظ غامضة لا تستطيع لها فهما .

*

احتفظت بتلك الصورة والترجمة زمناً طويلًا ، وفي ذات يوم ، بعد عشرة اعوام من ذلك العهد ، وكنت مشغولاً بترتيب أوراقي

أبقي ما صلح منها ، وأمزق ما لا جدوى من حفظه . مزقت الصورة والترجمة معاً اذ لم تعد انتيوب ، تلك الصبية العجيبة ، الا ذكرى وشبحاً في المخيلة بعيداً .

كتبت اليها كتابين بعد طول فراق فلم أتلق على الكتابين جواباً ، ورأيت أن لا اكتب شيئاً بعد ذلك ،ولكن كم من مرة اتفق لي أن فكرت فيها وأنا أحس تلك الحسرة الحادة التي يشعر الانسان بها لأولئك الذين يتوق اليهم ولا يراهم .. لتلك المخلوقات الحبيبة اليه التي لا يستطيع أن يتخيل أنه مفارقها الدهر كله .

كم من مرة جعلت أتلو من الذاكرة تلك الكلمات الغريبة التي كتبت في ظاهر صورة تلك الفتاة ، وأنا أحس عاطفة شديدة غامضة لا تزال تفيض الليلة في نفسي حيث أنا اليوم .

لقد كانت تلك الكلمات :

« في يوم الاثنين عيد الفصح عام ١١٥٢ ارتكبت الجريمة دفورجيلا ابنة دانتريم وزوجة ترنان أوروارك . وكانت قد بلغت الحول الخامس والثلاثين من العمر . فاذا قدر لفتاة من آل دانتريم أن تبلغ هي أيضاً الحول الخامس والثلاثين يوم عيد الفصح ، فان ذلك اليوم سيكون تكفيراً لذكرى تلك الجريمة التي اقترفتها ديفورجيلا ، وستدوي السموات بطبول الخلاص ، وسيشهد طريق الجبابرة بانتصار فين ماك كول فرار الفاتح الغاصب » ..

معركة جيز

في اليوم الثامن والعشرين من شهر آب سنة ١٩١٤ ، بسبب تلك الاحداث الكبرى التي لا تزال الى اليوم في ذاكرة الجميع ، وجدتني أطوف مع من يطوف سحابة اليوم في قرية صغيرة في مقاطعة « الأسن » .

وتقريباً لتلك الذكرى لا أزال أذكر الى الآن ان المعارك التي نشبت في ذلك اليوم واليوم التالي له قد أطلق عليها منذ ذلك الحين هذا الاسم « معركة جيز » .

واليك ما وقع لي أنا ورفقائي الجنود في تلك الموقعة .

في صبيحة ذلك اليوم كانت الفرقة كامنة وراء جدار طويل ، وكنت اذ ذاك مشتغلاً في الخنادق ، أقطع بفأسي الصغير جذوراً لجواد مريض جرحت عنقه طعنة رمح .

وانا لكذلك كامنون اذ ارتفع فجأة صوت القائدبهذا النداء: الى النيران !

ولم يكن في هذه الحرب شيء أغرب من أن تسمع كلمات النداء .

نعم يجب أن نعلن ذلك على رؤوس الملأ . اذ لم يكن يتوهم أحد منا في فرنسا كلها أنه سيدعى الى الحرب يوماً .

لقد كانت الحرب بغتة مباغت .

كان ذلك الحقل الذي انتشرنا فيه ، قد طالت في أرضه سنابل الحنطة ونبـــات الخشخاش وأعشاب أخرى مختلفة الالوان ، قد تهشمت واضطجعت فوق أديم الارض تحت مواقع الاقـــدام وسنابك الخيل .

ولم نلبث أن سمعنا دوي القذائف تهوي صوبنا .

ان الحرب بلا ريب هي بعد الدير والمعبد ، أكبر مـدرسة لتعليم النفس الخشوع والذلة ، وأرحب معهد تضؤل فيه النفوس .

على أنني لم أعرف ذلك إلا بعد تلك المعركة . على سرير من سرر المستشفى .

أما في تلك اللحظة فقد رقدت على بطني مجرداً من احساسي لاصقاً أنفي بتلك الارض الندية الرطبة السوداء .

فلما ثبت إلى رشدي رفعت رأسي عن الارض قليـــلاً لكي أتسلل على بطني .

سمعت الكون حولي يدوي بأصوات نداء مخيفة .. لقد كان الالمان يتقدمون .

لقد خيّل إليّ عدة مرات أنني قد حصدت حصداً كعود من النبات .

وضجت بجـــانب أذنيّ رصاصات تخترق الفضاء ، فجازفت وألقيت نظرة ، فوجدت على مقربة مني ضابطين المانيين أحدهما

طـُوال مشذب والآخر قزم ، والعرق يتصبب من جبينهما، وقد علا منكبيهما الغبار وهما يلهثان تعباً ولا يستطيعان امساك أنفاسهما الصاعدة ، فنزع كل منهما بندقيته وكأنما دعاهمـــا عمل آخر في مكان بعيد فانصرفا ولم أرهما بعد ذلك .

وفي الحال شعرت بصدمة شديدة في نحري وأغمي عليّ .

ولم أعد إلى نفسي إلا في موهن من الليل ، فإذا بي مضطجع في مركبة من مركبات الاسعاف الفرنسي ، وعلمت إذ ذاك ان الفرقة التي كنت منها عادت فكرّت على مهاجمة الالمان وتمكن القوم من إنقاذي من أيدي العدو جريحاً ، يحتمل أن تكون قنبلة من القنابل قد استقرت في عنقي وانهم يحملونني إلى أقرب محطة للجرحى ..

وكذلك كان ...

*

لم يكن جرحي بذي ألم ، ولشد ما كانت دهشتي إذ علمت في مستشفى ليون حيث حملت من المعركة أن الجرح غير خطير ، وان القنبلة قد استقرت في الفقـار المخي ولم يستطع الجراحون نزعها من مكانها الذي ثبتت فيه، ونشأ عن ذلك فالج موضعي في العنق حتى لقد أضحيت حتى هذه الساعة مضطراً أن أدير جسدي كله إذا أردت أن ألتفت ورائي .

في شهر كانون الثاني عام ١٩١٥ عينت في الخدمات المساعدة ودُفعت إليّ أعمال صغيرة ليست بذي خطر في مكتب أركان حرب المنطقة الرابعة عشرة .

وليون هذه مدينة لا تكفل للجندي الملحق بالخدمة المساعدة شيئاً من اللهو غير ما يراه في الثكنة ، فبعد محاولات ليست مجدية اجمعت النية على أن أفرد للعمل ساعات الفراغ العديدة التي اخلو فيها من واجبي العسكري .

العمل ! .. تلك كلمة جميلة سهلة القول . ولكن في أي شيء اعمل ؟ ..

على انه لحسن حظي كنت أرى خواطر كثيرة تتدفق في ذهني موحية إليّ وجوهاً عديدة للعمل .

لقد تذكرت أن أحد كتابنا المعاصرين كبير السلطان على نفوس اهل هذا الجيل قال يوماً في أحد مؤلفاته : ايها الشباب . لن تحدثوا في العالم حدثا حتى يتخصص كل منكم في عمل معين !

لذلك اردت ان اطرد عني السآمة واتخلص من الألم لضعفي الجسماني ، واروّح عني ما عراني من كراهية هذه المدينة التي لا اعرف فيها احداً من مخلوقات الله ، وان احيل هذه الساعات المظلمة الخالية كنزاً ثميناً يُرد عليّ في مقتبل أيامي إذ تخفت عاصفة هذه الحرب ، فعولت على ان اتخصص في عمل ما .

ولكن فيم التخصص ؟

خطرت لي في لحظة أعمال متعددة ولكني لم البث أن طرحتها جانباً إذ لم ترق لعيني .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر اذار كنت مشرق الطلعة فرح الفؤاد . لقد كان يوماً لديّ جميل المطلع .

لقد وجدت ضالتي التي كنت انشدها ..

في اصيل ذلك اليوم عجت على دار الكتب في كلية الآداب ومضيت أتصفح قائمة الكتب على غير هدى .

وكانت الساعة الرابعة من المساء .

وبدأت السماء ترسل صيباً من مائها وتكف بوابل راعد .

في تلك اللحظة ذاتها قرّ قراري ونوت نيتي .

خرجت من تلك الدار في الخامسة من المساء احمل تحت قبعتي مجلدات ثلاثة واليك عناوينها « التوطئة في علم اللغة بقلم بوزي » و « علم اللغات بقلم هوفيلاك » و « فقه اللغة في الألسن الستة القوقازية » .

وهذا المؤلف الأخير وضعه رجل يحمل أسمي أو شبيهه . وأعني به العلامة فردينان جيرار الاستاذ في جامعة فرنسا .

لقد صحت إذن نيتي . نعم . في دراسة اللغة القوقازية سأتوفر على التخصص والبحث .

واقبل الليل ..

وهبت ريح قارة فوق صفحة نهر الرون، فأرسلت من أمواهه انفاساً معتمة ، ودخاناً من اثر شمس اليوم .

بلغت شارع الجمهورية من ساحة الكورديليه وقد أردت أن اتريض قليلاً قبل العودة الى حجرتي الضئيلة الساكنة في شارع سالا .

فجلست في شرفة مقهى عام ولم يكن في المكان أحد غيري ، وجاء غلام المقهى لي بشراب .

وكانت مصابيح الشارع تضيء الافريز المزدحم بالسابلة ،

وكانت جموع المارة كثيرة تسير تحت غابة من المظلات .

وآهاً لي . ايتها الليلة النكراء المخيفة . ايتها الوحدة القفر الموحشة . والله لكثيرون انتحروا لوحشة اقل من تلك .

أما انا فحمداً لتلك الكتب الثلاثة التي اخفيتها تحت قبعتي المبللة الظاهر وقاء لها من ماء السماء . كنت سعيداً مثلج الصدر قرير العين ..

*

في يوم من ايام شهر شباط عام ١٩١٦ ، وانا دائب على دراسة اللغات القوقازية ، مكب على قراءة ما لديّ من الكتب ، وانا جالس في دار الكتب في كلية الآداب بليون كعادتي ، دخل الغرفة صديقي امين المكتبة ، وكان مشغولاً بالحديث مع رجل ذي شاربين اسودين .

فتقدم صديقي يعرّفني بالرجل .

قال : اقدم اليك مسيو جرمان مارتان الاستاذ بجامعة الحقوق بمونبيليه !

ولم يلبث الاستاذ اذ علم بتوفري على دراسة اللغة القوقازية ان صاح دهشاً :

— آه اللغة القوقازية ! الك الله يا صديقي . أتظن انك مستفيد يوماً من دراسة تلك اللغة .

قلت مجيباً على دهشته : عند ما بدأت دراستها وذلك منذ عام ، لم اكن افكر في الاستفادة بها مطلقاً ، ولكن الآن وقد دارت دورة الحوادث واضحى الروس على ابواب ارضروم ، وستقع

طرابزون غداً في ايديهم ، بـــدأت أفكر في لغتي التي ادرسها ، وما اظن دراستي إياها ستذهب بلا جدوى.

فقال مسيو جرمان : بلا ريب . بلا ريب .

ولم يلبث ان راح يفكر مليا وقد أمسك لحيته بيده .

قال : أنت مقيم في ليون مرتبط بأشغالك العسكرية ؟

قلت : في المنطقة الرابعة عشرة من هيئة أركان الحرب .

فسألني الاستاذ : أتود أن تبقى في لـيون . ألك في هذه المدينة من الروابط ما يمسكك فيها ؟

قلت وقد بدت مني فرحة مستطيرة اخجلتني : كلا !

وزادني خجلاً أن رأيت نظرة عتب بدت من عينيْ صديقي امين المكتبة .

فاستطرد الاستاذ جرمان في الحديث وعـــاد يسألني : وهل يبهجك أن تنقل من عملك هذا إلى باريس ؟

قلت : إلى باريس ؟ !

وهنا تكلم أمين المكتبة فقال : لقد قدم مسيو جيرارعرائض ثلاثاً . نعم ثلاث عرائض . يطلب فيها النقـلة إلى باريس . فلم يسمع من ناحيتها خبراً . فلو أنك يا سيدي الاستاذ تستطيـع ..!

فعاجله الاستاذ قائلًا : نعم أستطيـع . وأظنكما سمعتما بنبأ دار الصحافة ؟

فقال أمين الكتب : نعم .

فتابـع الاستاذ شرحه : إن دار الصحافة تلك معهد أسس منذ أيام بارشاد وزيرالشؤون الخارجية لـكي يكون في باريس مركزاً

للمعلومات والانباء حتى تنشر منه على الامم التي لم تسهم في هذه الحرب لاقناعها بأننا لم ندخل ساحة القتال ولم نحارب إلا دفاعاً عن حقوق الشعب وحريته .

قلت : ولما تقنع الامم بعد بتلك الدعوى ؟

قال : نعم ، لم تتحقق الغاية بعد .

قلت : وهذا أصلح لأمري إذا كان هذا الافتقار الى اقناعها سيكفل لي الذهاب إلى باريس ، فهل أنت معتقد حقاً يا سيدي الاستاذ أن هناك أملاً لي في الذهاب ؟

فأجاب الاستاذ : لا تكُ في ريب من ذلك . فـــإنني مسهم كذلك في ذلك القسم من تلك الدار الخاص بالمعلومات السياسية ، على أنه لم تمض ِ عليّ تلك الدار غير خمسة عشر يوماً ونحن لا بد لنا من مترجمين ينقلون ما نكتب إلى اللغات الاخرى، ولدينا للغة الروسية مسيو ليجرا الاستاذ بجامعة الأدب بديجون أما للغات القوقاز وألسنها المختلفة فنحن بحاجة إلى عليم بها .

فأردف صديقي أمين المكتبة يقـــول : انني أوصي بمسيو جيرار فانه يريد النقلة الى باريس .

فأجاب مسيو مارتان : إنني ذاهب اليها الغداة ، وسألقى بعد غد أهل الشأن في الوزارة، وسيتخابرون في أمرك ورجال الجيش ، ففي أيام ثمانية إن خدمني التوفيق في موضوعك ، سيكون كل شيء على ما تحب ، وستنقل من مكانك هذا حيث أراك زميلي في دار الصحافة يا مسيو جيرار .

واستأذن هـــذا الرجل الكريم بالانصراف ومضى وبقي

صديقي .

فلما أغلق الباب على الذاهب ، التفت أمين الكتب إليّ ، وقال :

– هاك سانحة طيبة ! وهـا أنت ترى أن العمل والدأب لا يزال أبد الدهر مثمراً .

قلت : نعم ، ولكن الفضل كل الفضل في أن تعرف كيف تستخدمه !

*

ووجدت في دار الصحافة الفتى فينسان لابولين وهـو الابن المدلل لرجل يملك في باريس أكبر مصنع للسيارات ، وكان الفتى فينسان يؤدي في دار الصحافة عمل السائق ، فيما وقع له من أنصبة الحرب ، يحمل أعضاء الدار في السيارات .

كنت أعرف فينسان هذا منذ عام ١٩١١ وجرى بيني وبينه ود ، وكم من مرة حملني في السيارة يطوف بي في أنحـــاء باريس للنزهة . فلما بلغت دار الصحافة ووقع نظره عليّ لم يلبث أن صاح صيحة الفرح إذ تبين وجهي : مسيو فرانسوا جيرار !

فعلمت إذ ذاك ان الود لم يُذهب به الفراق ..

وأبيح لي الحق ، وأنا في دار الصحافة جنديّ يشتغل بعمل أشبه شيء بالعمل السياسي ، ألا أنام مـع الجنود في الثكنة ، بل ان أسكن في منزل خاص وان اشتمل في أثواب الحياة المدنية .

ولم يكن لفينسان هذا الحق ، فهو جندي يشتغل سائق سيارات لا أكثر ولا أقل .. ولذلك ظل في الثوب العسكري جنديـــاً

ضئيلًا بلا مجد . وكان الفتى صبيح الوجه ، فتان الروح وان كان عاطلًا من زينة العلم .

وكانت دار الصحافة في بناء فخم شاهق في شارع فرانسوا الأول ، ذي طباق ستة . وكان المكتب الذي ألحقت به ، وهو المكتب السياسي ، منه في الطابق الثالث . ولم تكن لي بأهل الدار علاقة أو رابطة ، فكنت أذهب إلى الدار مبكراً قبل زملائي ، وهم جميعاً من رجال الأدب الذين اشتهر ذكرهم في العالم ، وطالت أساميهم ، ومن أساتذة الجامعات . أو من الصحفيين الكبار قادة الرأي وجبابرة الاذهان .

كان الفتى لابولبين يأتي للجلوس إليّ والتحدث معي ، وقد قال لي ذات يوم ونحن في حديث طويل نتذاكر العهود الماضية: لك الله يا فرانسوا لقد كبرت وكهلت منذ يوم تعارفنا .

وتلك كانت في الحقيقة حالي ..

نعم في ذلك العهد، من طول ملال وأثر شجى وحزن، وبقية علة من جراح ، كنت أتبدّى أكبر سناً من حقيقتي .

لقد علا رأسي شيب ،وبدت بوادر البياض في تفاريق شعري .

كنت ألوح للناس رجلًا في الخامسة والأربعين ولقد ترك ذلك أثراً في نفسي .

قلت بشيء من لهجة جفاء : نعم ، كنت جرحت ..!

فنظر إليّ لابولبين نظرة رثاء .

إذ ذاك أردت ان أهرب به من حديث كهذا فرحت أحدثه عن الفتيات الحسان اللاتي يشتغلن في الدار على الأداة الكاتبة ،

وكان حديثاً يلذه ويستهوي فؤاده ، فاذا انبرى يتكلم فيه . استطال وتمادى به المدى . ولكن لشد ما راعني إذ ذاك منه أن قال :

– هذا أمر لا يسرني قدر ما اغتبط إذ أراك في هذه السن الوحيد من أهل دار الصحافة في معرفة لغة القوقاز وان تكون قد كتبت كل تلك الطرائف التي أنشأت .

يا لها من مباغتة : لقد دهشت اعظم الدهشة . عجبت كيف انتهت الى علم رجل أميّ كالفتى فنسان لابولين شؤوني الأدبية .

لقد كانت ابحاثي تنشر في مجلة فنية لا يتيسر لفتى مثله أن يعلم بأمرها .

لاح لي أن في الأمر سراً .

ولكن دخل في تلك اللحظة زميل لي في دار الصحافة فلما رآه الفتى انسل خارجاً من الحجرة .

ومضت أيام فلم نتكلم .

على انني كنت اراه مضطرب الحركات كأنما في نفسه شيء يريد أن يفضي به إليّ ولا يجد لديه الجرأة على البوح به .

وفي ذات يوم لم يستطع كتماناً ، فبينما أنا اهم بالدخول إلى المصعد أريد الوصل إلى الطابق الثالث ، إذ دنا فينسان مني ومس بيده في خشية وحياء ذراعي .

قال : يا مسيو جيرار لديّ كلمة أريد أن اقولها لك .

قلت : إذن هلم اصعد معي نتحدث فليس في الدار أحد .

فقال متلعثما : ولكن .. الجنود ليس لهم أن يستخدموا

المصعد للوصول إلى طباق الدار .

قلت : إذن تعال نرقى السلم ..

وصعدنا . دخلت حجرتي وهو في أثري . وجعلت ارتب أوراق مكتبي وهو واقف قبالتي .

قلت في نفسي وقد شعرت بالقلق لمعرفة سره : أترى هذا الحيوان سيجرأ اليوم أم يرتد خائفاً ؟

وأخيراً بدأ الحديث فقال :

– لديّ يا مسيو جيرار دعوة احملها اليك .

قلت مستغرباً : دعوة ؟

فأجاب : نعم ، دعوة إلى الغداء .

قلت : إذا كان الأمر كذلك فعلامَ كل هذا الاضطراب الذي بدوت به من أمر لطيف كهذا لا يخيف ولا يرعب .

وكنت أرى أن دعوة إلى طعام في ذلك العهد الذي كنت فيه ينبغي أن تكون مرحباً بها نعمتْ القادمة. وذلك أنها ستكون اقتصاداً في قليل من مرتب ضئيل !

قلت في نفسي : يظهر أن الدعوة في منزله .

ودعوة إلى الغداء في دار أبيه الغني ليست مما يرفض .

قلت : أتقبل الدعوة عن رضى وطواعية ، فاحمل شكري إلى سيدي الوالد !

قال : ليست الدعوة في بيت أبي ، بل لدى صديق لي أو قل لدى ... زبون !

فتراجعت وقلت : آه هذا شيء آخر !

ولمح الفتى ذلك مني فخشي أن أرفض الدعوة فاستطرد يقول: نعم صديق لي ، فهو منذ عرف أنك هنا في دار الصحافة وعلم مني أنني أعرفك ، مـا فتىء يطلب إليّ أن أحمل الدعوة اليك ، إنه معجب بما تكتب ... !

قلت : عجباً ، أمعجب هو حقاً بما أكتب ؟

إذ ذاك فهمت السر ، وإن لم أزل منه في حيرة .

قلت وأنا في الحقيقة أريد أن أكتشف هذا اللغز : لا أدري إذا كنت ...

فقاطعني الفتى بقوله : أوه ، يا مسيو جيرار انك ان لم تتقبل دعوتي هذه حملتني على الاعتقاد بأنك تأنف من الجلوس الى الطعام مع سائق سيارات ... !

قلت : أمسك ، أمسك ، يا عزيزي ، ما هذا الرأي ، ومتى موعد هذا الغداء ؟

قال : موعدنا الاربعاء القادم . وسألتمس الاذن من ضابطي بالغياب في أصيل ذلك اليوم .

*

وأقبل الاربعاء ولم أظفر من فينسان بما يكشف لي خبيئة هذه الدعوة ، أو أعرف منه مَن الداعي .

وكل ما علمته منه ان ذلك الرجل الكريم المطعام يذكرني دائماً بالفضل والاعجاب ، وانه ابتاع في الشهر الماضي من مصانع أبيه لابولين الكبير سيارة فخمة ، وانه تعلم طريقة تسييرها في قليل من الزمن على حين أن الرجل كان قد تقدمت به السن وان

علة الفالج مشت في ذراعه اليسرى فمنعتها الحركة . وان فينسان بنفسه هو الذي لقنه الدروس الأولى في سَوْق السيارات ، وانهما تحدثا عني والشاي مبسوط بين يديهما في غابة للنزهة ، وان الشيخ في فرح لا يوصف إذ أتيح له ان يعرف رجلاً مثلي !

قلت إذ سمعت كل تلك القصة الطويلة : أطال الله بقاء هذا الرجل . انه والله طيب الخلق كريم النفس ..!

وكانت السماء تمطر طول الليل ، وكان اليوم من تلك الايام المكفهرة المؤلمة إذ وقف الالمان يحاولون فتح مدينة « فردان » .

ودقت الساعة في كنيسة مونتروغ مؤذنة ظهراً إذ مرت السيارة يسوقها لابولين بتلك الكنيسة .

وكنا قد انطلقنا من شارع فرانسوا الاول عشر دقائق قبل منتصف النهار .

قلت مكرراً إعجابي : حقاً انه لرجل طيب القلب الا ما ذكرت لي اسمه .

وعجيب في الحقيقة انني كلما حاولت مرة طول الاسبوع الماضي ان أعرف اسم الرجل من فينسان، كان يتهرب من الاجابة على سؤالي .

أما الآن ونحن سائران إلى مضيفي فلم يجد الفتى بداً من الجواب ولم يرَ حيلة للتكتم .

قال : مسيو تيرانس . انهم يدعونه مسيو تيرانس ..

قلت في حيرة : مسيو تيرانس ؟

فأردف يقول : نعم . وان أردت إلا الحق فاعلم انه أجنبي

ليس بفرنسي .
ومرت السيارة بشارع غوردان وبلغت حـديقة مونسوري ثم انكفأت تجري في شارع نانسوتي وإذ ذاك وقفت عن السير .
قال لابولبين : لقد وصلنا !
وكانت فتاة صغيرة واقفة بباب منزل هناك تزيح الثلج عن عتبته ، فابتدرها الفتى يسألها :
— هل يسكن هنا مسيو تيرانس ؟
فتبين لي ان صاحبي هذا لم يزر رجله ذاك في منزله ، ولكن لم تكن دهشتي بأقل منها إذ علمت ان رجلاً يبتاع سيارة فخمة من مصانع لابولبين يقطن حياً فقيراً كذلك الذي جئنا اليه !
فلم تجب تلك الفتاة على سؤاله بل أسرعت عائدة إلى المنزل .
ولم تكد تمضي دقيقتان حتى خرجت لنا امرأة عجوز .
قالت العجوز : أأنت الذي تسأل عن مسيو تيرانس ؟
قال : نعم أنا يا سيدتي .
فأجابت المرأة : إذن فاعلم ان مسيو تيرانس قد كلفني ان أعتذر اليكما عن غيابه عن الدار في هذه الساعة وان أقول لكما عند حضوركما ان تذهبا اليه في مطعم الأسد الذهبي رقم ٦٦ شارع فيليبه .
وعادت السيارة أدراجها . وكان فينسان قد سكت عن الكلام خشية ان يسمع مني كلمات تأنيب . ولكن ما كادت السيارة تبلغ بنا شارع لاتور موبورغ حتى تشجع فتكلم .
قال : انه يولم لنا في المطعم ويلوح لي انه أدرك انه يسكن

داراً حقيرة لا يليق أن يستقبلنا فيها.

قلت : أمر لا يهم مطلقاً .

فذهب عن الفتى الروع واطمأن انني غير مؤنبه ..

وتابع حديثه فقال : على أنه ليس يؤسفني غير شيء واحد ، فقد قال لي ان لديه نوعاً بديعاً من خمر بورغونيا وانه سيسقينا منها ما نستطيب . تلك مسرة سنحرمها إذ لا يعقل انه أخذ زجاجات تلك الخمر المعتقة معه إلى المطعم . انني أعرف مطعم « الاسد الذهبي » فذلك محل طيب ولا يليق بالذاهبين اليه ان يحملوا شرابهم معهم إلى موائده ..!

فلما دخلنا المطعم رأيت رفيقي قد تولاه الجزع ، فقلت بابتسامة تهكم : ألم يحضر بعد أيضاً ؟

قال: نعم، انني لا أدري ماذا حدث، يا صاحب هذا المطعم، ألديك مائدة محجوزة باسم مسيو تيرانس ؟

قال الرجل دهشاً : مسيو تيرانس ! كلا يا سيدي. لا أعرف الرجل .

وتقدم نحو الفتاة الجالسة إلى الخزانة وراح يسألها : ألم تحجز مائدة باسم المسيو تيرانس ؟

فأشارت إشارة سلب .

ورأيت فينسان يكاد يبكي من الغيظ والخجل ، فقلت لأزيل خجلته : اذن هلم بنا نجلس وإذا لم يحضر تغدينا وحدنا . لقد بدأت أشعر بقرصة الجوع .

فقال الفتى وهو في أشد الاضطراب يعرك قبعته بين أصابعه :

هذا أمر لا يدرك سره ، هذا أمر مدهش !

وراح يسأل جميع غلمان المطعم ، ويستشهدهم ويراجعهم في أجوبتهم وهو يعيد عليهم هذا السؤال : هل أنتم متحققون انه ليس في المطعم مائدة محجوزة باسم مسيو تيرانس ؟

وللحال سمعنا صوتاً يصيح :

– مسيو تيرانس ؟ من الذي يسأل عن مسيو تيرانس ؟

ولم نلبث ان رأينا باب إدارة المطعم قد فتح وظهر منها غلام خادم وراح يعيد سؤاله : من الذي يسأل عن مسيو تيرانس ؟

فأجاب رفيقي متلهفاً : أنا .. أنا ..

قال الغلام غير مصدق : وما اسمك ؟

فأجاب صاحبي : فينسان لابولبين . مسيو فينسان لابولبين .

قال الغلام وقد اطلع من جيبه كتاباً : إذن هذا الكتاب اليك ..

ودفع به إلى الفتى لابولبين باحترام ، فانبرى صاحب المطعم للغلام يقول : سوأة لك أيها الشقي ، اذهب إلى عملك في المطبخ. ها قد مضت دقائق خمس وهذا السيد ينادي ويصيح على من يدله على صاحبه .

فأجاب لابولبين وكان قد أتم قراءة الرسالة : دعه ، دعه.

والتفت إلى الغلام ثم قال : خذ هذا لك .

ونظر إليّ نظرة خجل وحيرة .

قلت : حسناً . الا يستطيع صاحبك الحضور أم يسأل أن ننتظره ؟

فقال لا بولبين : لا هـذا ولا ذاك ، انه يستميحنا معذرة ويرجو الينا أن نذهب تواً للقائه .

قلت : للقائه ، واين ذاك ؟

فأجاب : رقم ٤١ شارع غمبتا .

ثم اردف في عجلة كأنما يريد أن يتخلص من عبء ثقيل :

شارع غمبتا ، محطة نوازي لي سك .

قلت في دهشة : نوازي لي سك . نوازي لي سك ! والمسافة ساعة من هنا !

فقال الفتى : بل ساعة الا ربعاً فقط .

قلت : انني اتقبل الذهاب معك على شرط . اننا اذا لم نجده هناك فأنني منذرك انني لن ابرح « نوازي لي سك » حتى أعود الى باريس بترام الاوبرا !

*

« نوازي لي سك » !

ما أقل أولئك الذين ينتسبون الى الاجيال المكفهرة ، الى الاجيال التي وثبت الى الحياة بين هذين العامين ١٨٧٠ ١٩٠٠ .

نعم ما اقل أولئك الذين ينتسبون الى تلك الاجيال ولا يشعرون اذ يسمعون هـذه الكلمة بصوت عميق رهيب مخيف يتردد في اعماق قلوبهم . ! نوازي لي سك .. ! ذلك الاسم المقيت .

تلك المحطة التي كان الناس يحملون منها الى مواطن الموت والنجيع الاحمر .

كم من شباب فرنسا حملوا الى قدرهم وساروا الى حيث كان

الموت على مرصد منهم يجتازون هذا الباب الاسود .

لقد كانوا صغاراً ، وكانوا جلوساً الى مقاعدهم في حجرات المدارس . وكان اساتذتهم ومعلموهم يَعدونهم عصراً سعيداً في وجولتهم ، عصر الرفاهية والسكون والسلام .

ثم تكون خاتمتهم تلك ، الى محطة نوازي لي سك ، الطريق الى الموت !

نوازي لي سك ! أنتِ مكان الحج ، ومهطع المنون ، اليك قِيدَ الشباب ، والمفكرون والحالمون بالاخاء .

ايها السادة ألا كلفوا خواطركم وتجشموا هذه المتعبة وتعالوا نسير الى ذلك الممر الذي يشرف على المحطة ونقتعد تلك المتكآت لنستشرف ما يقع هناك .

ان ذلك الممر لا يبلغ في طوله عشرين متراً ولكن وأسفاه، اليه في اعوام اربعة سارت عشرة ملايين من الرجال .. !

ومن أولئك شوهت الحرب مليونين ، من ساق مقطوعة ، وذراع مفصولة ، وعين مغمضة الى الابد .

وطاح الموت منها بنحو ذلك عديداً .. وانتم هؤلاء تصرخون الا فلتسقط الحرب ، فلتسقط الحرب !

نعم بلا ريب ، ولكن إذا انتم اقسمتم لي انكم بهذه الصرخة وحدها « لتسقط الحرب » واثقون من انكم ستحمون عن تلك الملايين العديدة من الاطفال الصغار ، من تلك الاعواد الجميلة التي تكبر الآن وتنمو في بلدكم العزيز ، شناعة هـذا الممر ، وتردون عنها اجتياز هذه المحطة المخيفة ، « نوازي لى سك » .

نعم . لئن أقسمتم انكم واثقون متأكدون لأقسمن أنا لكم انني رافع بهذه الصيحة « لتسقط الحرب » صوتي أشد من صراخكم وأعظم ضجيجاً ورنيناً . ولكن .. يا صحابتي الاعزاء يلوح لي انكم قد سكتم فلا تتحرك شفاهكم بقسم ! ..

*

وانطلقت بنا السيارة تمر قبالة المحطة ويد الفتى فينسان تلوح أشد اضطراباً الآن ورعدة .

وقد لاحت لأعيننا عن كثب مركبات السكة الحديد وأشباح المدافع ، وقد ازدحمت الأرصفة بالجنود. وصمت فينسان لابولبين فلم يفه ببنت شفة . وبدا لي ان روحه ، وهو الجنديّ الذي لم يشهد حرباً ، وان شهد متعبة الحرب ، تضؤل منزوية أمام هذا المشهد.

قلت لكي أبدد هذا السكون الرهيب: وأين شارع غمبتاذاك؟

وانتهى بنا المطاف في السيارة اليه ، وهو شارع من تلك الشوارع التي تحوي دوراً عالية على جوانبها ، وفي نهاية الشارع مقهى عام وكان فيه فونوغراف يصدح بقطعة غناء ..

وفي الحال أوقف فينسان سيارته أمام منزل كتب عليه الرقم ٤١ وقال قد وصلنا .

ثم مسح العرق عن جبينه واستطرد يقول لم نتأخر كثيراً .

قلت : ادخل البيت واسأل اذا كانت هذه دارنا المقصودة وما أنا بمتقدم خطوة واحدة او استوثق منه .

فأطاع الفتى ولم يلبث أن عاد مستهل الطلعة يقول :

هذا هو المنزل . هلم ، فهو في انتظارنا .

وكان المنزل رقم ٤١ في شارع غمبتا بيتا شاهقا وقد أضيئت مصابيح الغاز في السلّم المظلم .

قال لا بولين هامساً في أذني : في الطابق الخامس .

قلت وقد احتوانا الطابق : لقد كان شارع فريدلاند أفضل من هذا .

وساد السكون فلم نتكلم .

وكان باب الحجرة التي دخلناها مفتوحاً ولم يلبث أن دخل رجل مسرعاً وهو يقول : أي معاذير أعتذر بها اليكما !

وجعل يكرر أي معاذير . أي معاذير ، !

فأجاب فينسان : في الحق كنا اعتقدنا اننا لن نتوفق الى الاهتداء اليك .

وكان صوت الفتى قد عاد عالياً ، يتبين فيه السرور والطرب وتولى عنه اليأس والجزع .

وبدأ التعارف : « مسيو جيرار ، مسيو تيرانس » .

وشد مسيو تيرانس يدي مصافحاً مصافحة طويلة .

وكانت الحجرة التي جلسنا فيها في ذلك اليوم المظلم ، من أيام الشتاء القرير المكفهر ، قليلة الضوء .

والتفت مسيو تيرانس صوب النافذة فلم أشهد منه الا رجلا طُوَال العود ، أشيب ذا منظار فوق عينيه .

قال مبتسماً : معذرة يا مسيو جيرار مرة أخرى ، فان الذنب في اختيار هـــذا المكمن الذي جئت اليه يعود الى رغبتي في

التعرف اليك .

وكان يشرح معاذيره بلغة فرنسية صحيحة ولكن في لهجة غريبة لا يستطيع اخفاءها .

وعاد يقول : لا شك في أن الجوع قد بلغ منكما كل مبلغ . ألا تفضلا بالدخول الى الحجرة .

وفتح الباب الذي منه دخل ورأيت الفتى لابولين متهللا مشرق المحيا . ودخلنا حجرة المائدة . ولاحت لنا مائدة مضيفنا خوانا طيب الالوان متعدد الصحاف .

قال فينسان وهو ينزع « القايش » ويفك « الزراير » : انني لا اكتمك الحق انني كنت غير مطمئن . أما الآن . فقد هدأ روعي ! .

فابتسم الشيخ وقال :

– تفضل يا مسيو جيرار بالجلوس . إنني أتوسل اليك . ألا تجلسن .

وراح يصب في قدحينا نبيذا ..

*

في أثناء ذلك القيت نظرة سريعة حولي وكان اثاث الحجرة جديداً وان لم يكن يوحي شيئاً من التأنق ، وكانت الاواني التي فوق المائدة اعتيادية . وكل شيء في الحجرة على نقيض منظر صاحب البيت ، وحاولت أن اجد شيئاً يتناسب فيه الاثاث ومضيفنا فلم اجد .

قال الشيخ : أقليلاً من النبيذ أيضاً ؟

فصاح لابولبين فرحاً : ان هذا النبيذ لا يستحق رفضاً ، ان الانسان ليرعد برداً في طريقه إلى هذا البيت يا مسيو تيرانس ، ونحن جئنا في مركبة مكشوفة كما تعلم ، والشيء بالشيء يذكر كيف وجدت سيارتك الآن ؟

قال الشيخ : آية الابداع ، وأنا بها مسرور .

ولاح لي أن الشيخ لم يكن يعير التفاته الى الفتى .

وكان فوق الجدار صورة لم استطع من مكاني تمييز ما حوت ، وكانت نظرات الشيخ تتبع عيني ، فقال .

– تصوير بديع . تصوير غريب . أليس كذلك يا مسيو جيرار ؟

ونهض فانتزع الصورة من الجدار ووضعها أمامي فوق المائدة، وراح يسألني باسماً : اتعرف هذه الصورة. أظنك لا تجهل تاريخها.

وكانت الصورة قديمة العهد تمثل جنود القائد كروموبل وهم يغيرون على مدينة دروغيدا ، وذلك القائد في درع مسردة، وقد وضع حذاءه فوق بطن امرأة قتيل . وفي اسفل الصورة كلمات قالها ذلك القائد العظيم في خطبة القاها في مجلس النواب الانكليزي يعلن بها انتصاره على اعداء الدين ، وهي هذه الكلمات :

« لقد اجتمعت ارواحنا وقلوبنا على أن نتم عملاً عظيماً ، لا بالقوة ولا بالعنف وانما بروح لله ووحيه » .

واخذ مسيو تيرانس الصورة فأعادها الى مكانها وهو لا يزال يبتسم وقال وقد عاد عنها : والآن . هلما بنا الى الطعام ! » .

*

وكدنا نفرغ من الغداء حوالي الثالثة من المساء ، ودار بيننا الحديث في شؤون عدة . ولكن لشد ما دهشت اذ لم يتكلم مسيو تيرانس ولم يذكر البتة السبب الذي بعثه على دعوته لي الى طعامه . ولم يتحدث عن قصائدي أو كتابتي . وبينا نحن نحسو القهوة نهض فينسان وكان قد أفرط قليلاً في الشراب وقال بلهجة المؤكد : « والآن سترى يا مسيو جيرار ما سترى » .

قال مسيو تيرانس : وما ذاك الذي سيرى ؟

قال فينسان مترنحاً : يرى ؟ كلا . ان هذه الكلمة ليست صحيحة، بل سيرتشف ويتذوق . أريد أن أقول أن مسيو جيرار سيرتشف من خمرتك المشهورة .

فتولى مسيو تيرانس الاضطراب ، وبدا ذلك في وجهه ، وقال في اتم الدهشة : يا إلهي !

قال لا بولين ضاحكاً : ما رأيك ؟

فأجاب الشيخ في صمت : انني نسيت الزجاجات .

فبهت لا بولين وقال وهو في أشد الدهشة : ماذا تقول ... نسيتها . يا لله !

قال : نعم . فأن هذه النقلة المتعجلة هي التي انستنيها . وقد تركت الزجاجات في منزل شارع نانسوتي .

فأجاب لا بولين وهو يقلب كفيه حسرة : في منزل شارع نانسوتي على مقربة من حديقة مونسوري ! ..

ووقف الفتى مشبك الذراعين في يأس ، فقلت أواسيه : هذا أمر لا اهمية له ، الا تمالك جأشك .

وعاد الشيخ يقول : انني متأسف . متأسف الاسف كله .
ونهض لابولين واثباً وهو يقول : عليّ بالقايش !
فناوله مسيو تيرانس المنطقة وراح يسأله :
ـ ماذا تريد أن تفعل يا عزيزي لابولين ؟

فلم يجب ، ولكنه بعد لحظة تفكير قال : اذا انا ذهبت الى شارع نانسوتي وسألت السيدة العجوز التي رأيتها في هذا الصباح بالنيابة عنك أن تسلمني تلك الزجاجات أفتراها نازلة على الامر ، مبيحتي العودة بالخمر المشمولة المعتقة ؟

فأجاب مسيو تيرانس : هـذا لا ريب فيه . ولكن تلك مَتعبة ستحملها .

واردفت أقول في أثره : بل أنها لجنة. فالمكان منا على مسيرة عشرين كيلومتراً والوقت الآن متأخر ثم ..

فلم يتمهل لابولين وقد بدا في نية قاطعة وركبت رأسه الخمر بل قاطعني بقوله : لا تحفل بالمسافة والوقت وهـذه سيارتي قوة عشرين حصاناً إذن انتظرا ثلاثة أرباع الساعة فسأكون هنا والزجاجات معي .

وسمعنا وقع أقدامه على السلم وهو يعدو مسرعـاً ، ومضت لحظة فضجت الحجرة بصدى السيارة وهي تهم بالانطلاق. وإذ ذاك نهض مسيو تيرانس من مكانه وتقدم نحو دولاب الأواني ففتحه وأخرج زجاجة من أحـــد الرفوف وقدحين وصب في القدحين خمراً ، وكانت خمرة من بورغونيا لم أحتس لها في الحياة شبيها .

قلت : يخيل إليّ انه يستحيل أن تكون الخمر التي انطلق

فينسان للعودة بها خيراً مذاقاً وأشهى مطعماً من هذه!

قال مسيو تيرانس : بل هذه هي بعينها !

فنظرت اليه في دهشة ، واستطرد هو يقول : لقد أردت أن أخـــلو الى حديث طويل معك يا سيدي الاستاذ ولم أر وسيلة أتخلص بها من هذا الفتى الاحمق ساعة من الزمن الا هذه الحيلة !..

فلم أزدد الا دهشة وحيرة وعجباً ..

مسيو تيرانس

« يا سيدي الاستاذ ! »

لمن خيل لهذا الشيخ انه يتحدث ، اذ ناداني بهذا اللقب ؟

في تلك اللحظة تذكرت حماقة الفتى لابولين وخطر لي انه هو الذي أوحى إلى هذا الشيخ أن يناديني بندائه هذا ، فلم أشأ أن أسأل محدثي أو أراجعه في ندائه .

وكانت الساعة قد آذنت الآن الثالثة ، وقد بدأ الظلام يعم الارض ، وبدأت المقاعد التي في الحجرة والطنف والرياش تختفي واحدة واحدة عن النظر .

ورأيت مسيو تيرانس قد غادر مجلسه فظننت أنه يريد ان يضيء في الحجرة مصباحاً ، ولكن كنت مخطئا في ظني . لقد كان يريد النافذة ، ورأيته قد فتحها .

ونفذ الهواء الصارد القرير فملأ جو حجرة المائدة ، فقمت من مجلسي وتبعت مسيو تيرانس الى النافذة واتكأت بذراعي عليها بجانبه .

يالله . لقد كان ذلك المساء رهيباً .. وبدأ الصقيع ينزل من

السماء ، وراحت تلك المركبات المخيفة تسير امام اعيننا وكأنها أشباح سوداء ، وجعلت المنازل والدور تتراءى كتلا ثقيلة ناهضة إزاء العين ، وتصاعدت في المحطة ضوضاء صخّابة غامضة لا تتبين منها الاصوات .

ولاحظت ان مسيو تيرانس كان يراقب بنظره تلك الاشباح المتحركة على الافاريز . ورحت أنا أتأمل هذا المنظر غارقـاً في أفكاري ونظراتي ، حتى كدت أنسى رفيقي الواقف بجانبي .

وكان في المحطة قطار أوشك ان يغادر الافريز يحمل جنوداً .

وأضيئت مصابيح تلك المحطة ، ولكنها جعلت ترسل ضوءاً رهيباً معتماً ، اذ كانت رؤوسها مغطاة بقطع من الشاش الرفيع .

وكانت الجنود وقوفاً أمام أبواب المركبات وهم يتقاذفون بينهم هراواتهم ويحملون في أيديهم بندقياتهم ، ثم يختفون بعضهم وراء بعض في اعماق تلك المركبات ثم لم يعد من وقوف فوق تلك الارصفة الا الضباط وهم على مقربة من المركبات التي تحمل جنودهم .

ولم نسمع بعد ذلك الا صفير القاطرة مؤذنة رحيلا، فألقيت نظرة على رفيقي فرأيته جامد النظر ، مقطب الملامح ، وكأنما قـد سبحت مخيلته في ذلك المنظر الذي أمامه ، يتأمل عظمته وسخافته معاً .

وأرسل القائد صفيره الى القاطرة فصفرت نذيرها الأخير وانطلق القطار متمهلاً ، وجعلنا نسمع ضوضاءه ، ولا نراه .

ياضلة الحرب . واهاً للناس من قطارات آب سنة ١٩١٤ لقد

امتلأت أناشيد وأزاهر .. !

ولما تحركت المركبة الأخيرة تحت النافذة نظرت مرة ثانية الى مسيو تيرانس فرأيته يؤدي اشارة الصليب فوق صدره .

ومضى يمد يده نحو الظلام. وصوب ذلك القطار الذي اختفى في فحمة الكون .

وجعل يقول كأنما يخاطب نفسه : انهم ذاهبون للقاء حتوفهم!

واستقرت عيناه على المحطة وقد وصل الى الرصيف قطار آخر .

فقال الشيخ : وهؤلاء أيضاً سيذهبون للقاء الموت . نعم . سيموت الجميع !

ثم عاد يقول بعد لحظة سكون :

الجميع . سيموت الجميع . ولماذا يموتون . ولماذا يموتون ؟

وكأنني كنت أسمع ذلك السؤال الرهيب في حلم عميق . لقد سبحت في عالم من الخواطر المتضاربة المتباينة .

ولم ألبث أن أفقت من غشيتي على صوت مسيو تيرانس وهو يقول : لقد مضى عليّ أيام عدة وأنا لم أفارق هذه النافذة . بل لقد مكثت أمامها الليل بأكمله . لقد رأيت منها اولئك الذين يُدفعون الى الهاوية وهم يمرون أمام نظري سراعا . أجل . يا سيدي الاستاذ . لن يدهشك حقاً أن أقول لك انني لم أشهد من بين تلك الجموع العظيمة من القبعات الزرقاء قبعة واحدة من القماش الاصفر .

ثم عاد يكرر الكلمات الأخيرة : نعم . ولا قبعة واحدة من القماش الأصفر !

لقد بدأ العرق يتصبب من جبيني . لقد علت دهشتي لهـذا النداء : يا سيدي الاستاذ !

قلت في صوت خافت : ماذا تريد بهذا القول ؟

فنظر اليّ نظرة الدهشة وقال : اتسألني ماذا اريد ان اقول ؟ لا شيء يا سيدي الاستاذ مما أنت تجهله . سيدخل عما قليل الليل بظلمته وسيتعذب أولئك المضطجعون الآن في اعماق الخنادق !

وعدنا في صمت عن النافذة واتخذنا مجلسنا الى المائدة . وأدار مسيو تيرانس زراً فأضيئت الحجرة . وازاح الاستار عن النافذة وتركها مفتوحة .

قلت لكي ابدد هذا السكون الرهيب :

لم يعد لابولين الى الآن .

فابتسم مسيو تيرانس ابتسامة متهكمة وقال : سيرى العناء كله قبل الحصول على الزجاجات من تلك المرأة العجوز . نعم لا ريب في ذلك لأننا لا ينبغي ان نحيل هذا الغياب الطويـــل إلى السيارة فتلك من أبدع طراز للسيارات .

وذهب إلى ركن من الحجرة وجعل يفتش في مجموعـــة من الأوراق ، ثم عاد يحمل عدداً من « مجلة العالمين » ، ووضعها على المائدة أمام عينيّ وأشار بيده إلى فهرس الأبحاث .

سمعت صوته ، صوتاً متهدجاً رهيباً أجش عميقاً وهو يقول هذه الكلمة : شكراً .

إذ ذاك أدركت الغرض .

تلوت ذلك الفهرس فإذا بي أقرأ بين سطوره :

« ف. جيرار. الأستاذ بجامعة فرنسا . فعال البطولة التي قامت بها الفرق الايرلندية في فرنسا والدردنيل والصرب » .

وعاد مسيو تيرانس يكرر هذه الكلمة « شكراً » .

وكان الشيخ واقفاً أمامي فأخذ يدي في يده وراح يشدها مصافحاً شاكراً وهو يقول : شكراً يا سيدي الأستاذ .

ولم أرفض تلك اليد مدّت إليّ تصافحني شاكرة .

وانني لأتساءل الآن كيف ولماذا لم أعمد إلى إزالة خطأ ذلك الرجل بكلمة واحدة . لماذا لم أكاشفه بأنه قد اشتبه عليه الاسم وانني لم أكن ذلك الرجل الذي ظنني هو .

حقاً لم أدرك ماذا منعني أن أبوح له بالحقيقة وأنا إلى اليوم في حيرة لا أدري كيف وقع ذلك .

وانني إلى هذه الساعة أحدث نفسي متسائلاً هل كان في وسع رجل آخر غيري أمام هذه السذاجة البريئة المؤثرة التي بدت من ذلك الرجل أن يجترىء على أن يزيل ضلته ويظهر له خطأه .

وساد السكون في تلك الحجرة وكنت أنا أول من بدده .

قلت بصوت مضطرب : أأنت ارلنديّ يا سيدي ؟

فتبسم مسيو تيرانس عن تهكم وقال : كنت أظن أنك قد حذرت ذلك في التو واللحظة .

قال ذلك وأشار إلى الجدار حيث علقت تلك الصورة التي تمثل الغارة على مدينة دروغيدا .

ثم تناول المجلة وجعل يقلب صفحاتها ومضى يقول : تلك هي المرة الأولى يا سيدي الأستاذ التي رأيت فيها مجلة أجنبية قد أنصفت

ارلندة في مجهودها الذي بذلته في هذه الحرب ، وكان خليقاً بهذا أن ينشر وينوه به بعدما حاول غيرك أن يصمنا بالخيانة .
ألا جزاك الله عن ارلندة كل الخير يا سيدي الأستاذ !
قلت : هلا جئت لي بقدح من الماء !
فنهض مسيو تيرانس وصب ماء في قدح وتقدم فناولنيه ، ثم عاد يستطرد في كلمة الشكر :
— ولم أعلم نبأ ما فعله الأستاذ جيرار في فرنسا. بل في المغرب بأسره من أجل ارلندة الحرة الا منذ عهد غير بعيد فبفضل قلمك يا سيدي الاستاذ ، وحمداً لنصفتك وعدلك ، استطاع العالم أن يدرك اليوم أن ارلندة ، هذه الأرض الحرة ، ذات لغة خاصة بها وانها اذا كانت اليوم تطالب بأن يكون لها جيش خاص بها ، وسياسة قائمة بذاتها ، فانما تسأل حقاً لها مقدساً . ولستُ يا سيدي الاستاذ من العلماء ، واكرر ذلك أمامك ، ولكن هناك اناس غيري يستطيعون بما أوتوا من العلم أن يقيموا أمامك شاهداً بيناً على شكر وطننا لك على هذا الصنيع . ولم تقف مجهوداتك ونشاطك في الدفاع عن بلادنا عند هذه الغاية بل افردت هذا المقال أيضاً تخليداً لذكرى أولئك الجنود الارلنديين الذين استشهدوا منذ صاحت الصيحة الأولى ، وانطلقت القذيفة نذيرة الحرب . فلهذا المقال اسمح لضابط ضئيل برتبة الملازم في فرقة « الا بريش فيوزيليرس » أن يتقدم اليك شاكراً لك هذا الصنيع المحمود .
قلت في دهشة تبررها شيخوخة محدثي : اكنت ضابطاً برتبة

الملازم في تلك الفرقة الارلندية ؟

فأجاب بلهجة المستخف : نعم سلكت نفسي في الجيش يوم أن أعلنت الحرب اذ كنت اعتقد يومذاك أن انكلترة ستبر بكلمتها وان كل قذيفة نقذف بها الالمان ستروح في سبيل حرية بلادنا .

قلت دهشاً : ألم تعد تعتقد ذلك الآن ؟

فأجاب متبسماً : أي قوم نحن تظن يا سيدي الاستاذ . أترانا بُلهاً معاتيه؟

وظل يقلب صفحات « بحثي » الذي نشر في المجلة ثم مضى يقول بلهجة خافتة .. نعم لقد أحسنت اذ نشرت على العالم هذه الفعال الجسام التي قام قومي بها .

وسطع نور الذكرى في عينيه ، وبدت غضون جبينه الشاحب ، وانطلق يقول كأنما يحدث نفسه :

— سيد البحر ! « ٢ نيسان سنة ١٩١٥ .. لقد رأيتُ ، منذ رأيت الحرب ، أهوالا طوالا وشنائع . ولكني لم أشهد شيئاً أرهب ولا أفجع ولا أهول من أحداث الدردنيل . لقد كان اليوم يوم النزول الى الشاطيء ، وكان الايرلنديون في الطليعة . نعم في الطليعة ولا ريب » وكانت نيران الترك تصليهم سعيرا فمن بين مائتين . كلهم متطوع الى الحرب . طاحت المنون بمائة وتسعة واربعين ، وحُمل ثلاثون من المعركة جرحى . نعم قضى أولئك نحبهم رافعين أذرعهم الى السماء ، فلمَ استشهدوا . لِمَ استشهدوا ؟

وتقدم الشيخ فاجترع أيضاً قدحاً من الماء ، وعاد الى حديثه الرهيب : أما ما لم تحط به علماً يا سيدي الاستاذ أو لا تجرؤ أن تنشره على الناس لو أنك علمته ، فهو أن تلك البسالة الكبرى التي تجلت في الحرب قد ظلت الى اليوم مجهولة لا يشاد بذكرها اذ لم يسمع يوماً في انكلترة بأن تذكر أسماء ابطال ارلندة الذين كان لهم في الحرب شأن أي شأن .

لقد مضى علينا عام ونصف عام يا سيدي ونحن نقاتل قتالنا الذي تعرفه عنا لأجل ملك انكلترا وباسمه ، والآن قد انتهينا . نعم . انتهينا ، وبقي أولئك الجنود الفتيان في الاثواب الزرقاء . أولئك الذين شهدتهم يحملون في هذا المساء من هذه المحطة الرهيبة نعم . بقي أولئك ليصلوا سعير هذه الجحيم المجنونة . أما نحن فقد انتهى عملنا . ان واجبنا هناك . هناك .. !

قلت : أين ؟

فقال الشيخ : في خنادق ايرلندة يا سيدي الاستاذ لا في خنادق فرنسا !

ولعبت الريح القرة بأستار النافذة فحملت الينا صوت بوق جديد من ابواق الجنود في المحطة . فقال الشيخ : هذه فرقة اخرى ازمعت رحيلاً الى نجعة الموت . يا له من شقاء . وواهاً للمساكين . يا لها من جُنة وويل ، يا لها من جنة وويل !

قلت وقد تولاني الألم : وماذا تريد منا ان نصنع ؟

فهز كتفيه حزناً وغماً ..

*

وبدأت الضوضاء المتصاعدة من المحطة تضعف وتخف رويداً ، وأخذت ثورة عاطفة الشيخ تهبط كذلك وتهن ، ومضى يقول بصوت هادىء أجش :

-ينبغي ان يقال الحق نعم ان حقيقة ايرلندة لا تتفق والخاتمة التي ختمت بها مقالك .. انك تقول في ذيل ذلك البحث « ان هذه البطولة تدل على ان ارلندة قد ادركت ان هناك سبيلاً آخرى غير التمرد والثورة لبلوغ امنيتها وهي الاعتراف بحقوقها. ان تلك الفعال الكبرى التي قام بها جنودها في معارك الدردنيل وفي بلاد الصرب ليست الا انكاراً لتلك الشنائع التي احدثتها القتلة المتمردون عام ١٨٨٢ » هذا ما قلت يا سيدي الاستاذ وهو الضلال بعينه ، وسأسوق اليك البرهان في الحال ، ان الجنود الذين شهدوا الويل في الدردنيل والقتلة الذين قتلوا في منتزه فينكس لم يختلفوا في الغاية ولم يتعارضوا في القصد ، انهم هم انفسهم تشتعل ارواحهم بعاطفة واحدة . انهم هم انفسهم !

واذ ذاك نهض من مجلسه محتدماً وعاد يقول :

— لقد كنت أنا يا سيدي الأستاذ في اليوم السادس من شهر ايار عام ١٨٨٢ في العاشرة صباحاً الذي طعنت بخنجري في حديقة فينكس اللورد فردريك كافنديش وزير ارلندة بينا كان رفقائي قد وقفوا بمرصد للوزير بيرك . وكان ذلك يجري على عين الحاكم لورد سبنسر اذ وقف في نافذة قصره يشهد ذلك الحادث الرهيب ولا يدرك سره . ان تلك الحادثة لم تُنس بعد، وأنت تعلم كيف كانت سَوْرة العالم كله للقضاة الذين جلسوا مجلس الحكم يومذاك،

ثم مضت على ذلك الحادث ثلاثون عاماً فإذا بي أساق إلى الدردنيل لقتال الأتراك . ان ذلك القاتل هو الذي ينكر ما فعله الجندي .

قال ذلك وضرب المائدة بقبضة يده اليسرى فأحدث ضجة كبرى وتذكرت انه ظل طول الغداء يلبس قفازاً في تلك اليد .

قلت : لقد اكتسبت الحق في التكلم بلهجتك هذه .

فضحك الشيخ وأجاب : كلا . كلا . لست أدعي حق التغلب بأنني كنت من جرحى الحرب . لقد أخطأتني القنابل في الخنادق ، وتركت لي فرصة ابتلي فيها ضميري وأخبُر عاطفتي ووجداني . لقد جعلت أفكر في قادة الرأي في مجلس النواب وقد سألونا دماءنا فوهبناهم ما سألوا ، ووعدونا وعوداً فما برّوا بواحدة مما وعدوا ، بل لقد أبوا على جنودنا ان يضعوا فوق قبعاتهم شارتنا الوطنية . أتعرف من هو كرسون يا مسيو جيرار . انه ذلك الرجل الذي طلب إلى عاهل الالمان في ربيع عام ١٩١٤ ان يبعث اليه ببنادق ليذبحنا ذبحاً ، وفي مقابل ذلك أكد له ودّه وصداقته المتينة العرى ... فماذا كنت صانعاً لو انك كنت في مكاني .. عدت إلى ارلندة وعاودت الكفاح ، الكفاح الحق المحتدم الذي لم يكن خليقاً بنا يوماً أن نقعد عنه . ففي قتال مع جنود التاج ، وملحمة وحشية مع السلطة ، انكسرت ذراعي هذه التي ترى ، بل لقد حكموا عليّ بالموت مرة أخرى والشرطة من انكليز وفرنسيين يتعقبون أثري ولا يدعون لي لحظة يستقر فيها قراري وأتنفس فيها الصعداء براحة ، وانني لأترك لك ان تتصور مقدار ألمي وحزني إذ اضطررت في هذا الصباح أن أجرر

في أنحاء باريس كلها وارباضها أستاذا عظيماً مثلك من أساتذة جامعة فرنسا أشعر من ناحيته بأعمق الحب والاكبار، ولا تحسبني يا مسيو جيرار سأنام الليلة في هذه الدار بل سأرتحل عن هذا المكان بعد ان أكون قد أفضيت اليك بذات صدري .

وانطلق في الفضاء صوت بوق آخر وصفر الصفير نذيراً برحيل قطار من تلك القطارات المرعبة .

قلت : ماذا بقي لديك من القول تود أن تحدثني به الا أن تريد خيانتنا !

فلم يجفل مسيو تيرانس من كلمتي هذه ، ولم يبد عليه أي تأثير ، بل مضى يقول في سكون : ألا استمع إلي يا سيدي الاستاذ . لما حاربت فرنسا انكلترا كنا أبداً بجانب فرنسا نظاهرها عليها . وكم من معارك كنا نحن فيها لفرنسا أولياءها وأعوانها . وانتصارهم في معركة فونتنوي لم يكن إلا نتاج ما بذل الفيلق الارلندي الذي سقناه اليكم . وقد انصرمت ستة قرون لم يخلق فيها الله فرنسياً واحداً استطاع أن يقول لايرلندي منا : « هذا رجل خائن ! » ولكني أرى اليوم الحال قد بدأ يستحيل ويتغير، فهل تظن ذلك ذنبنا وقد أصبح عدونا المشترك حليفكم اليوم وظهيركم ، وستقول أنت انكم كنتم على هذه المحالفة مكرهين ، وما كنت لأعيب عليك قولك هذا أو أتنقصك من أجله يا سيدي الأستاذ. اننا من أولئك الذين يعتقدون أن ليس من محالفة ضائرة بين شعب وشعب ما دام يُراد بها تحقيق استقلالها الوطني أو حماية زمارها ولعلنا سنصبح غداً حلفاء

للالمان !

قلت : حلفاء للألمان !!

قال : نعم ، ولن نعاب بذلك الا إذا عيبت فرنسا بمحالفتها للانكليز . ولن يكون للعتب معنى ، ولعلك ترى رأيي يا سيدي الأستاذ فلا تنكر أنه في أمر كالسياسة حيث لا سلطان إلا للحقائق ، لا ينبغي أن تسود العاطفة والمبادىء الخلقية .

ولكني لم أتمالك نفسي من اعادة هذه الكلمة :

– حلفاء للألمان !

فأجاب مسيو تيرانس بهدوء : لم أقل ذلك إلا على سبيل الافتراض ، فنحن لا يغضبنا أن نكون للانكليز حلفاء ، ونعتقد أنكم لم تعرفوا كيف تستخلصون في سبيل ارلندة ما كان ميسوراً لكم أن تستخلصوه .

قلت : ماذا تعني بذلك ؟

قال : هو هذا يا سيدي الاستاذ فاستمع إليّ : ان شعبكم هذا يأبى إلا أن يعد القضية الايرلندية من المسائل السياسية الداخلية التي تختص بانكلترا وحدها وانه لا سبيل إلى الاشتراك في أمرها . وليس هناك رأي أضل من هذا ولا أشد خطأ ، والا فلمَ تداخل ساستكم مع القيصر في شأن استقلال بولونيا . لقد ظللتم تنكرون ايرلندة ، واليوم وقد أصبحت على وشك أن تخرج من جنة هذا القتال الذي لا تربح منه شيئاً ولا يرد عليها أية جدوى ، لا تذكرون عنها إلا كلمة واحدة هي « الخيانة » ولكنكم والأسفاه لم تسمعوا الينا ، وإلا لو أنكم عنيتم بسماع صوتنا

لما رأيت الليلة فرقكم وكواكب جنودكم محمولين وحدهم إلى ساحة الحرب من هذه المحطة الرهيبة، بل لوقف مائتا الف ارلنديّ على أهبة عونكم. لقد مجدتم فرنش، ورفعتم شأو كتشنر وناديتم به المخلص والمنقذ وجهلتم أن ذلك الرجل لم يأل جهداً في تثبيط تطوع الارلنديين وتجنيدهم، الا استمع إليّ: لما قامت قيامة الحرب عرض الارلنديّ العظيم جون ردموند على مجلس نواب انكلترا بلاشرط ولا قيد أرواح مائتي ألف ارلندي متطوع يريدون أن يبذلوا أنفسهم فدى لهذه الحرب، فأبى كتشنر ذاك أن يتقبل خدمة هؤلاء المتطوعين، بينما كانت جيوشكم إذ ذاك ترتقب في الخنادق وصول الجيش الانكليزي، وتظن أن بفضله سيقصر أمد هذه الحرب، فلم يلبثوا أن علموا وهم في حيرة ودهشة أن جموعاً من الضباط البريطان قد وصلوا بولون والهافر وكاليه وأقاموا ثمة مع اسراتهم وزوجاتهم في بيوت ذات حدائق غناء استأجروها لأعوام ثلاثة أو سنين ست. ولعلك تسألني: ولمَ رفض السيد كتشنر ولمَ تأبّى؟ وأنا قائل لك السبب. أن الانكليز خشوا أن يعود الارلنديون في خاتمة الحرب إلى بلادهم وقد تعلموا منها، وأدركوا قوتهم وبأسهم، ثم أرادوا أن يدعوا الفرنسيين والالمان يهلك بعضهم بعضاً ويحصد شبابهم فتيان عدوهم، لكي تبقى انكلترا بعدهم بقوتها وشبابها وشدة أسرها. هذا هو السبب يا سيدي الاستاذ الذي من أجله لا ترى الليلة من بين هذه القبعات الزرقاء المسرعة إلى ساحة القتال ولا قبعة واحدة من القماش الاصفر. أعني قبعة رجل ارلنديّ واحد. ألا فليظل

جنودكم يقاتلون كما يهوى ساستكم وحكامكم وهم يسمون جنود الحضارة وحماة المدنية. أما جنودنا يا سيدي الاستاذ ، فانني يحزنني أن أعيد عليك القول انهم لن يتقدموا إلى الحرب شبراً ولا فتراً. فلم يعد لهم بعد اليوم إلا غاية واحدة ، تلك هي أن يكونوا جنود ارلندة ! ...

*

قلت وقد اردت أن اترك حديثاً لم اكن على استعداد لسماعه: هل لي ان اسألك كيف اتيح لك أن تتعرف بالفتى لابولبين لكي ..

فقاطعني مبتسماً : لكي يسوق بك الى هذا المكان . بأسهل وسيلة. لقد أُمِرْتُ أن اتوصل اليك واتقرب منك، وقد حاولت مرات عدة أن القاك في جامعة فرنسا ، ولكن كانت فرقة الدراسة في الجامعة قد انتهت ، ففضلت ألا اذهب اليك في دارك أو ان اكتب اليك ، ولم يكن لديّ في الحقيقة الا احدى الوسيلتين، ولكن حدث لي ان ابتعت سيارة من مصانع لابولبين فعرفت اذ ذاك الفتى فينسان، فجعل يحدثني عنك كأعز صحابته عليه ، ولا اكذبك انني لم اكن اعتقد انني قد وقعت على وسيلة طيبة تعينني على بغيتي ، ثم علمت انك قد كلفت بعمل لك في دار الصحافة وهو ترجمة اوراق إلى لغة القوقاز .

فأطرقت رأسي خجلاً ولم استطع رده عن حجته ، وانطلقت اسأله : لقد قلت انك أُمِرْتَ بأن ..

فقاطعني قائلاً : بأن اتقرب اليك ، ولكن لا لكي نحسو فقط

من خمرة بورغونيا فوق خواني ..

وأخرج ساعـة من جيبه ونظر اليها ولم يلبث ان قال : يا للشيطان . اخشى ان لا يمضي وقت طويل حتى يعود صاحبنا الفتى السائق . اذن لم يبق عليّ الا ّ أن افضي اليك بالغرض من بعثي !

*

وبدأ القول بصوت هادىء ساكن : نحن اليوم في الثامن من شهر اذار ولي الشرف يا سيدي الاستاذ بأن انهي اليك بأنه لن يمضي شهر واحد ، اي حوالي اليوم العشرين من نيسان القابـل حتى تنهض ايرلندة على بكرة ابيها ثائرة على انكلترة متمردة . أو ان شئت الحق الصراح ، حتى تشهر على الانكليز حرباً عواناً ..

قلت وانا احاول من ناحيتي أن ابدو في منتهى الهدوء : ليس يدهشني منك أن اسمع هذه المكاشفة بعد الذي كان من حديثك.

قال : بلا ريب وانما بقي تحديد التاريخ وهذا مـا اريده الآن .

قلت : ماذا انت قائل اذا انا بعد رحيلي من هذا البيت ذهبت الى وزارة الحرب أو الى وزارة الشؤون الخارجية فشرحت لهـا خلاصة ما جرى بيننا من حديث ؟

فلم يجفل مسيو تيرانس ولم يفارقه سكونه وهدوء نفسه بل قال : انك ان فعلت فلا أؤول ذلك الا ّ بانك رأيت ان ذلك من واجبك . ولكن اتظنني لم افكر في ذلك اذ افضيت اليك بنبأ أمر واقع لا محالة .

قلت : سيقبض عليك في الحال لو انني فعلت .

قال بكل هدوء : لن تكون تلك المرة الأولى ، وازيدك أن هذا لن يكون ذا اهمية لديّ، وانما الأمر الوحيد الذي يهمنا هو نجاح امرنا . ولن يغير فعلك ذاك لو اقدمت عليه نيتنا ولن يحولنا عنه لحظة واحدة .

قلت : كيف ذلك ؟

قال : أمر بسيط للغاية . سيُبْعث بالنبأ إلى حكومة انكلترة فتطلب هذه إلى حاكم ايرلندة لورد ويمبورن معلوماته في هـذا الشأن ، ويتفاوض هذا مع الوزير بيريل ووكيله ناثان ، وسينتهي الأمر بأن ُيعد هؤلاء النبأ حديث خرافة وخبراً مكذوبا ، ولا تحسب قولي هذا عبث العابث وخفة المستخف ،بل تلك هي الالفاظ بعينهـا التي ظل هؤلاء السادة يصفون بها التقارير التي يقدمهـــا الشرطة عن الثورة . انك لا تستطيـع شيئاً يا سيدي الاستاذ وانا أيضاً مثلك وانما استمع نصيحتي اذ لن يجدي عليك أن تشتهر لدى رجال حكومتك بأنك فشّاء انباء ملفقة كاذبة ! ..

قلت : وماذا بعد ذلك ؟

قال : بعد ذلك اعود من حيث بدأت القول . ان ارلندة ستدخل في حرب وانكلترة بعد شهر ، وستكون الحرب ذات سلاحين ، السلاح الأدبيّ والسلاح الماديّ . أما عن الحرب المادية فلست أريد أن احدثك عنها اذ اخشى أن يعود الفتى لا بولبين فيقطع علينا سبيل الحديث، اذن فلأوجز ما استطعت . اننا نريد في هذا الكفاح الذي نحن قادمون عليه أن يكون لدينا شهود .

نعم بضعة رجال من الذين لا يشك في قولهم . ثقات ليسوا موضع ريبة ، أو مظنة كذب . اننا سنجاهد في سبيل حريتنا ، ولذلك ينبغي أن نحارب كجنود لاثوار ، منضوين تحت علم ارين [1] الاخضر ، لا تحت لواء اسود او علـــم احمر ، كما فعل الثوار والمتمردون وأهل الفوضى .

قلت : اذن لقد خطر لك ان ..

فقاطعني قائلاً : نعم لقد خطر لنا في سبيل جمع هؤلاء الشهود ، ان يكون لكل امة من امم الحلفاء ، وكل مملكة من الممالك المحايدة ، ممثل نختاره من بين صفوة مفكريها الذين اصابوا مكانة كبرى في بلادهم . فانتهى بنا مطاف البحث الى الاعتقاد بانه ليس هناك من يمثل فرنسا خيراً من الاستاذ جيرار ..

هنا بهت لهذا الاقتراح ، حتى لقد نسيت انه في الحقيقة ليس يخصني أنا ولا انا المقصود به . ولكني لم البث ان ثبت الى نفسي اذ سمعت مسيو تيرانس يقول : فهل تقبل ذلك يا سيدي الأستاذ؟ .

قلت متلعثما : أنا .. ؟

فعاد يكرر السؤال : هل تقبل ؟

قلت : لا غنى لي عن مهلة ايام ثلاثة لكي ..

فقال مسيو تيرانس مقاطعاً : هذا مطلب عادل .

وقد خطر لي اذ سألته تلك المهلة أن أعالج في أثنائها الفرار من نتائج هذه الملمة المزعجة ، بأن أذهب في هذا المساء بعينه للبحث عن الاستاذ جيرار الذي تشابه اسمي باسمه ، فأقص عليه قصتي ،

---

١ ــ اسم لارلندة

وأتوسل اليه أن يصفح عني وأدع الامر له يتصرف فيه كما يريد .
وعاد مسيو تيرانس يكرر هذه الكلمات : مهلة أيام ثلاثة ، هذا مطلب عادل ..

ثم مضى يقول : وسأرتقب في هذه الايام الثلاثة جوابك ، فتكرم بأن تحمل اليّ جوابك بنفسك . ولن يكون لقاؤنا هنا ولا ريب ، بل في باريس . فذلك أقل مشقة عليك ، واليك هذا العنوان « مسيو لوسيان برتران رقم ٧٨ شارع ماليزيرب » فاذا بلغت المنزل فليس عليك الا أن تسأل عن مسيو بُلوت .

قلت دهشاً : مسيو بلوت ؟

قال : وهناك شيء آخر ! اذا أنت تقبلت يا سيدي الاستاذ ما عرضته عليك فـــان جميع نفقاتك ستكون على الجمهورية الايرلندية ، أما عن المدة التي ستقيمها في ارلندة فانك ستنزل ضيفاً علي ..

ولم يستطع أن يتم كلمته اذ ارتفعت في تلك اللحظة ضوضاء سيارة .

قال الشيخ : آه . أكبر ظني ان صاحبنا الوحش قد وصل .
وكان القادم حقاً فينسان لا بولين اذ تبين لنا ذلك من الخطى الثقيلة التي سمعنا مواقعها فوق السلم .

قال مسيو تيرانس مبتسما : يلوح لي انه شرب تلك الخمرة التي كان يتلهف عليها وهو في الطريق . والآن فان اسم مضيفك في ارلندة يكفي وحده . يا للعنة . ان هذا الفتى الشيطان سيقطع أسلاك الجرس بدقه المتواصل .

ونهض ليفتح الباب لفينسان ، ومضى وهو يقول : ان اسم مضيفك وحده يثبت لك ما ستلقاه هناك من كرم وحسن مثوى.

واشتد إذ ذاك دق الجرس ، فأسرع الشيخ يريد الباب وهو يقول :

– ستنزل في ارلندة ضيفاً على الكونت دانتريم ! ..

في طريقي الى كِرى

أرين ... أرين ، أيتها الأرض المقدسة ، مقام الجبابرة ، ومهبط القديسين . أرين ، أيتها الجزيرة ذات العود الذهبي ، والصخور السوداء فوق الرمل الاصفر ، والسماء الزرقاء الصحو الصافية ، والمروج الشاسعة الخضراء ، وزوابع البحر الثائرة ، الصاخبة ، والمستنقعات السود . من سواحلك يا ارلندة المحبوبة رحل المخاطرون يكتشفون الارض الجديدة ، وإلى شواطئك يا ارين الجميلة .. قدم القساوسة في مراكب من الصخر وسفائن أثقل من تلك التي حملت المسيح على صدر بحيرة طبرية .

*

وكان موعد قيام الباخرة من الهافر شاخصة إلى ثغر سوثمبتون منتصف الليل . وكانت الساعة الثامنة من المساء ولا يزال على الموعد وقت طويل .

وحرت في أمري لا أدري ما اصنع في تلك المدينة القاتمة ، بعد ان تم كل شيء من مستلزمات الرحيل ، بفضل الحيطات التي اتخذها مسيو تيرانس . وكانت اوراقي قانونية والنقود التي معي

بالعملة الانكليزية . فذهبت الى حان هناك في الثغر ، واذ دخلت المكان قتلا للوقت رأيتني وحيداً لا جليس في الحان غير جندي بريطاني برتبة « رقيب »

فلما رآني ولاّني ظهره واشاح عني وجهه ، وكان يشرب نبيذا احمر يشتف القدح اثر القدح. ورأيت عنقه وقد تصاعد الدم نجيعاً اليها ، اشبه شيء بقطعة من « البفتيك » المسوّاة وذراعيه بلون « اللفت » ! ..

في أيّ بلد غريب كان في مقدرة هذا المخلوق ان يقاتل ؟.

وللحال طلب قدحاً آخر من النبيذ ، ثم اطلع من جيبه قبضة من قطع ذهبية لعلها ثمرة مغنم أو مَسْلب وجعل يعدّها وهو ثمل يترنح .

وحانت الساعة ..

وركبت الباخرة، وكانت الريح الندية تقصف في الميناء ولها زفيف شديد .

قلت للرجل الذي تناول مني تذكرتي : هل لي أن أبقى في مؤخرة السفينة ؟

فأجاب : لا تفكر في ذلك فانني سأكلف أحد الخدم أن يقودك إلى حجرتك .

وسألت الغلام الذي اسلمني اليه : وهل سأكون وحدي في الحجرة ؟

فأجاب الغلام : بل سيكون معك في الحجرة راكب آخر .

ومشيت في أثره .

وكانت الحجرة صغيرة تحتوي سريرين أحدهما فوق الآخر ، فطرحت ردائي فوق المضجع الأعلى ولكن الفتى وثب الى الرداء فحمله عن السرير والقى به فوق المضجع الأسفل وقال : هــــذا الفراش محجوز !

قلت ساخراً : بلا ريب . لأنه أحسنهما .

قال الغلام ? ربما . ولكن لك في فراشك هـذا حق هـذه النافذة ، وانما لا تفكر في فتحها بالطبـع خشية أن تلمحها سفائن البحر ، بل تستطيـع أن تنظر من خلال ثغرات خشبها ما تريد أن تشاهده من المناظر .

وتقدم يستوثق من استار النافذة ، ثم قال :

– واعلم أنك لا تزيـح هذه الاستار حتى ينطفىء النور في الحجرة والا جلبت علينا – لو فعلت – المضرة ، اذ قد تجتذب انظار سفن الرقابة .

قلت : اهذا كل شيء ?

فأجاب : نعم . ولكن هناك أيضاً حزام النجاة .

وأشار الى احزمة معلقة في جدار الحجرة وقال : اختر لنفسك واحداً .

قلت : متى نصل ?

فأجاب : غداً في الساعة السادسة صبحاً .

وانصرف وبدأت اضع جعبي تحت الفراش ، وكانت في الحجرة جعب المسافر الآخر ، فانتهزت فرصة وجودها لمعرفة اسم ذلك الشخص ، فجذبت منها جعبة فرأيت ورقة ملصقة بها

كتبت عليها هذه الكلمات :

« الدكتور ستانيسلاس جروتلي – بلوزان »

ولاح لي أن هذا الاسم لم يكن مجهولاً لديّ ولكن أين قرأته أو سمعت به ؟

حاولت أن اتذكر فلم اهتد الى شيء .

وصعدت الى مؤخرة الباخرة، وكانت السماء صافية وقدبدأت الريح تسكن .

قلت احدث نفسي : « لأجتهد هنا في نسيان نفسي » .

وما كاد منتصف الليل يقبل حتى اقلعت الباخرة .

وفي هذه اللحظة سمعت شبحاً أمامي لم اتبينه في الظلام وهو يقول : لا يسمح لأحد بالوقوف على سطح السفينة . هـــذا هو الأمر !

فعدت متذمراً الى حجرتي ، ورأيت الحجرة مضاءة والاستار مزاحة عن الفراش الاعلى، فعلمت أن الدكتور جروتلي قد أوى الى مضجعه . ولم اكد اخلع عني صداري حتى سمعته يغط غطيطاً متواصلاً . قلت لنفسي : « بديع جداً » ! وتمددت في فراشي .

ودخلت الباخرة بلجة البحر .

وسمعت اذ ذاك حركة في الفراش الذي فوقي ، فتبين لي أن الدكتور جروتلي يتململ في فراشه ، وبدا لي من اهتزازات السرير أن رفيقي هذا رجل ضخم البدن . وبدأت الاستار تهتز وتتمايل ولاحت لي فوق رأسي، احدى رجليه وقد ضاق السرير عن أن يتسع لها ، وكان يلبس حذاء كبيرة الحجم من الجلد الأسود.

فاخرجت ساعتي لأعلم الوقت .

لقد بقيعلى موعد الوصول الى الشاطىء الآخر خمس ساعات .

أمسيت مسهداً لا يغمض لي جفن ، وأيأسني من النوم غطيط صاحبي المتواصل المتعالي .

اذ ذاك خطر لي أنه ليس اصلح لي في سكون ذلك الليل من تنظيم حلقة خواطري والتفكير ملياً في هذه السفرة التي ُقدرت لي .

*

كنت قد ركبت القطار إلى الهافر من محطة « سان لازار » في اليوم السابق ، الخامس عشر من شهر اذار ، في الساعة التاسعة صبحاً ، أعني بعد ثمانية أيام من وليمة الغداء التي حضرتها في «نوازي لي سك » وحديثي الطويل مع مسيو تيرانس .

ولعله لم يذهب من الذاكرة بعد أنني بعد أن وقع لي سر لم يكن يختص بي بل ساقني القدر اليه ، كنت قد خطر لي أن أبحث عن الاستاذ جيرار الحقيقي فأكشف له عن خافية هذا السر .

ثم ها أنا لديّ إلى هذه الساعة أوراق باسم ذلك الاستاذ وهو في طريقه إلى ارلندة .

واني لأشعر أن كثيرين من المولعين ببحث أسرار النفوس وتحليل مشاعر الوجدان لن يعز عليهم أن يجدوا مبرراً لفعلتي هذه ، إذ يتذكرون ما دار من الحديث بيني وبين مسيو تيرانس إذ نبأني أن أعضاء هذه البعثة الدولية التي أوحي اليها أن تلتئم في ارلندة سينزلون أضيافاً فيها على الكونت .. دانتريم ! ..

واني لظالم لنفسي إذا أنا لم أذكر ما وقع لي من عذاب الضمير

وحيرة النفس قبل الاقدام على هذا العمل ، بل إنني لأذكر أنني قضيت معظم الأصيل في اليوم التاسع من شهر آذار في ساحة « لاغارد » حيران متردداً أمام دار العلامة جيرار وجعلت احدث النفس قائلاً : « لو خرج قلت له كل شيء أما إذا لم يخرج ... فسأدع المقادير تسير في سبيلها . وسأسافر بدلاً منه .. ! »

ولكنه لم يخرج ..

ولكن هل كنت سأبرّ بوعدي إذا خرج .. ؟

يخيل إليّ أنني كنت مع ذلك سأسافر ، ووجدتني صباح اليوم التالي واقفاً أمام المنزل في ساحة « لاغارد » .

ولكن في تلك المرة كنت قد عقدت النية القاطعة . فلم تكد تمضي بضع دقائق حتى ظهر مسيو جيرار فلم يلتفت مطلقاً ناحيتي . ومشيت في أثره . وانطلق في شارع فوكلان ثم مضى في شارع كلود برنار وقد بلغ شارع « غي لو ساك » وفي ذلك الشارع وقفت عن اقتفاء أثره .

لاح لي إذ ذاك أننا لا نختلف كثيراً في القامة ، وان لم أكن أشبهه في شيء . عدت أدراجي وقد شعرت بشيء من الطمأنينة وهدأ بعد ذلك روعي .

ومضت مهلة الايام الثلاثة فالتقيت بمسيو تيرانس وأخبرته بقبولي .

وطلبت اجازة شهرين من وزارة الشؤون الخارجية وكانت هي المشرفة على دار الصحافة .

وتذللت الصعاب بسرعة لم أكن أتوقعها ، فإنه ما كاد رجال

تلك الوزارة يسمعون بنيـــتي في السفر لدراسة تأثير كتّاب الديموقراطية الفرنسيين في القرن التاسع عشر في اذهان ساسة ارلندة المعاصرين حتى أباحوا لي الرحيل ومنحوني تلك الاجازة .

وتحدد موعد سفري في الخامس عشر من شهر آذار. فقضيت الاسبوع كله أطوف حوانيت الكتب ودورها اقتني عدة كتب وأسفار عن تاريخ ارلندة وجغرافية بلادها، ثم عمدت بعد ذلك إلى دراسة ما كتبه الاستاذ جيرار إذ سيصبح ذلك الكتاب عملي ونتاج قريحتي . وكان ذلك الكتاب قد أصاب شهرة كبرى لدى علماء الغرب جميعاً ، ولعلي سألتقي بكثيرين من المعجبين به بين أعضاء البعثة ، وقد عوّلت على أن أتفادى من مدائح المادحين وتنويه المنوهين ، وان لا أتكلم في أبحاثي ، ولا أدل بمؤلفاتي ، حتى أظهر للناس مبلغ تواضع علماء فرنسا وحياءهم !

وسمعت صائحاً يقول :

ـ أوراقك يا سيدي !

قلت في نفسي متبرماً ساخطاً : ما هذه الآداب ، يدخلون هكذا في جنح الليل في حجرات النـــاس . ولكن تلك آداب الحرب ..!

وأخرجت محفظة أوراقي ، تلك المحفظة التي وقعت لي منذ عشرين سنة بتلك الطريقة التي لا تزال في الذاكرة، وقد أصبحت تلك المحفظة بالية الجلد شوهاء المنظر . ولشد ما كانت لواعجي إذ وجدتها أمس بين آثار الماضي . لقد اكتشفتها أمس فقط . وفي سفري هذا لم أكن أبتغي غيرها .

وكانت أوراقي كما قلت صحيحة طبقاً للقانون، وتبين لي أن أوراق رفيقي أيضاً كذلك ، إذ لم يستغرق المفتش في فحصها ما استغرقه في فحص أوراقي . وانصرف عنا المفتش وهو يكثر من الاعتذار عن ازعاجه لنا ويسأل لنا نوماً هنيئاً بقية الليل . وما كاد المفتش ينصرف حتى عاود الاستاذ جروتلي غطيطه .

كانت الساعة حوالى الثالثة من الصباح فأطفأت النور وحاولت النوم . ولم أنتبه من اغفاءتي إلا على ضوضاء شديـدة ، وأصوات متعالية ، وصناديق تقذف إلى الأرض ، وسلاسل تطرح في الماء.

وصلنا سوثمبتون .

وكانت أول نظرة ألقيتها على فراش الدكتور جروتلي . لقد كان المضجع خالياً .

تبين لي ان صاحبي هذا قد ترك الحجرة أثناء نومي . وفي تلك اللحظة بعينها شعرت برعدة . لقد اهتديت إلى ما كنت أحاول ان أتذكره طول الليل . منذ اللحظة التي قرأت فيها اسم الدكتور فوق جعبته .

نعم لقد تذكرت الآن هذا الاسم ..

لقد وقعت عيني عليه منذ ثمانية ايام فقط في المكتبة الاهلية وأنا ابحث عن مؤلفات الاستاذ جيرار . وتذكرت الآن ذلك اللقب العلمي الذي عثرت به بين الكتب : « الدكتور ستانسلاس جروتلي استاذ اللغة الكلتية وآدابها بجامعة لوزان » .

وقد كنت اعرف انه ليس في العالم كله اكثر من عشرة علماء اساتذة في اللغة الكلتية ومن بينهم الاستاذ جيرار نفسه ، وها انا

التقي في اول مرحلة من سفري باستاذ منهم !

لقد خيل اليّ ان سوء الطالع قد بدأ يظهر علائمه . ويلقاني بشر دلائله . ولم أشك لحظة في أن العلامة جروتلي لا بد من أن يكون مندوباً عن سويسرة في تلك البعثة التي اغتصبت فيها حق تمثيل فرنسا .

وذكرت اذ ذاك انني سأقضي شهرين أو نحوهما بجوار رجل اخصائي كهذا، وانــه اذ يعلم ان من بين زملائه في اللغة استاذاً يعرف اللغة الكلتية لن يتردد في التعرف به والتودد اليه .

وستكون صداقة علمية .. واسوأتاه .. !

*

وكانت خطة السفر التي وضعها لي مسيو تيرانس تامة لا تغيير فيها ولا تبديل . فالفنادق التي ذكرها نزلت بها ، وكذلك السفن والقطارات، على أنني كلما تقدمت في شقة السفر بدأت اعصابي تعود الى هدوئها وخيل اليّ أن قلقي كان في غير محله .

ولم التق في القطار الذي حملني من سوثمبتون الى فيشغارد. ولا في القارب الذي نزلت منه في كورك ، بالأستاذ جروتلي ، على فرط التفاتي يمنة ويسرة لتتبع حركاته .

جعلت أسائل نفسي لماذا ظننت أن العالم كله يحفل بشؤون ارلندة ، ولماذا خلت الاستاذ جروتلي عضواً في بعثتها ؟

لعل ذلك العلامة في هذه الساعة قد بلغ اكسفورد أو نزل في جامعة كمبردج ، أو لعله شَخَص الى غلاسكو في سبيل ابحاث له ومشاغل أدبية .

لقد تغلب عليّ كل تلك العواطف التي ظننتني سأحسها اذ تطأ قدمي ارض ارلندة ، هذا الخوف من أن أجد نفسي وجهاً لوجه أمام هذا الاستاذ المخيف .

ولما بلغنا « مالو » حيث نسافر منها الى « ترالى » كان لا بدلي من تغيير القطار والركوب في قطار آخر . فنزلت ووقفت امام مركبة في القطار الجديد وللحال انزوت نفسي رعباً .

لقد أخذت عيني فوق ذلك الرصيف تلك الجعبة المخيفة التي قرأت ما كتب عليها في الباخرة، ولكني لم أجد الأستاذ بجانبها.

على انني أدركت من وجوده في « مالو » انه لا حيلة في اجتناب مخاوفي : انه ذاهب كذلك لينزل ضيفاً على الكونت دانتريم ! ولا بد لي من أن أستعد لرؤيته أمام عيني من لحظة إلى أخرى .. فتناولت أمتعتي وتوليت الى حجرة أخرى في القطار فدخلتها وأغلقت بابها عليّ ، وجعلت أنظر إلى رصيف المحطة .

كان هناك بضعة أشخاص غادين ورائحين ينتظرون حلول موعد سفر القطار ، وجعلت أبحث بنظري عن صاحبي أستاذ لوزان بين الوقوف على الرصيف ، وإذا بالصيحات قد علت تنذر بقيام القاطرة ، فهرع المسافرون من كل ناحية . وتبيّنت الاستاذ مسرعاً نحو المركبة التي وضع فيها أمتعته .

وكان الدكتور جروتلي رجلًا بديناً قصير القامة يضع منظاراً فوق عينيه . ولاح لي أن الاستاذ كان مقروراً وإلا فلمَ ارتدى بأثواب كثيرة بعضها فوق بعض . وكانت قبعته الزرقاء غريقة هاوية في جمجمة صلعاء !

لم يكن الاستاذ بالرجل الرقيق الحاشية ولم يكن بالمتأنق ، ولكن وجهه المستدير لم يكن خلواً من مادة الحياة .

قلت لنفسي : « علام الجزع وأنا لا أظن أنه سيقطع الوقت كله يستشيرني ويحادثني في شؤون تلك اللغة القديمة . ولئن فعل فانني حر في الا ّ أجيب على أسئلته . ان العِلم الفرنسي لـــن يصبح في شخصي ضحكة هزؤة أمام هذا السويسري ! »

وشعرت بحاجة إلى الهواء ففتحت نافذة المركبة وجعلت أتأمل الحقول . وكان القطار قد راح يشق مقاطعة كبرى يسير في وسط مروج خضراء تطير في فضائها أطيار سوداء غريبة مـن طيور الماء .

إذ ذاك ثارت في فؤادي ذكرى تلك الفتاة الصغيرة التي كنت نحوها مسرعاً ، والتي لا تزال تسكن في مخيلتي ..

أمام جمال هذه المناظر الرائعة التي جعل القطار يشق طريقه في بهرتها ، لم أكن أفكر إلا في انني بعد قليل سأرى انتيوب .

جعلت أكرر هذا الاسم بأعلى صوتي وأنا وحدي لكي أقابل بين صورتها ومنظر هذه البلاد التي هي وطنها .

في هذه اللحظة سمعت قوماً يصيحون باسم محطة صغيرة «محطة كيلارني !.. » فأحسست بفرح عظيم ، لقد طار فؤادي سروراً، إذ لا يلبث القطار ان يغادر هذه المحطة وبعد قليل أكون بجانب انتيوب وسأراها .

أراها .. ؟ هنا شعرت بشك من ذلك ، هل أنا موقن أنني سأراها ؟ لقد كانت سلسلة خواطري في هذه الايام الخمسة عشر

حقاً متضاربة متفككة ..

كنت قد سألت مسيو تيرانس من غير اكتراث قائلاً : ألم تقل انني سأنزل ضيفاً على الكونت دانتريم ؟ ألم يكن هـــذا الكونت هو الذي شهدته حوالي عام ١٨٩٤ في حمامات اكس بين المصطافين .. ؟

فبعد أن عد الشيخ على أصابعه قال : انه هو . لقد كانت له في ذلك العهد فتاة صغيرة تناهز الحول الثالث عشر . وكانت تلهو وترتع صبية لعوبا طائشة في قصر الازهار هناك . ان ذاكرتك لا تخيبك فان الكونتس دي كندال لا بد من أن تكون اليوم في الخامسة والثلاثين ..

قلت : الكونتس دي كندال .. ؟

قال : نعم . لقـد تزوجت الآنسة انتيوب منذ ستة أعوام باللورد باكستر كونت دي كندال .

قلت: وهل يعيش الكونت دانتريم الشيخ مع ابنته وزوجها؟

فأجاب : لقد كان يعيش معهما في قصره « بداغور » في شمال « ألصتر » ولكن منذ وفاة اللورد باكستر ..

قلت دهشاً : اذن فاللادي بكستر أرمل ؟

قال الشيخ : نعم . لقـد أبت الاقدار الا أن يتوفى الله زوجها على أثر حادث اصطدام سيارته . وكانت هي معـــه في السيارة ولكنها نجت من الموت بمعجزة، ومنذ ذلك العهد فارقت قصر داغور لانـه يذكرها بتلك المأساة الأليمة . وجاءت هي وأبوها الشيخ يسكنان على مسافة ثلاثة فراسخ من قرية « ترالي »

في قصر « كندال » بعد أن ورثته من زوجها ، وستنزل أنت في هذا القصر ، ولقد سرني أن تكون فتحت باب هذا الحديث لأني نسيت أن أقول لك انك ستكون ضيفاً على الكونتس دي كندال لا على الكونت دانتريم ، على أن ذلك لا يهمك كثيراً بعد أن عرفت مابين الأب وابنته من الحب العميق وما في فؤاد الكونتس من الاخلاص الذي لا حدّ له في سبيل قضية ارلندة الحرة ! ..

تلك كانت التفاصيل التي تلقيتها من مسيو تيرانس قبل الرحيل .

*

في ترالي ، على مقربة من المحطة ، تناولت الطعام في مطعم صغير . وكان القطار سيواصل السير في الساعة الثانية ، اذ يسير بنا بضعة أميال وتنتهي بنا الرحلة . وعدت الى المحطة قبل قيام القطار بعشر دقائق ، ووقفت أمام مكتبة المحطة لأتزود بشيء من الصحف . فلما أخذت منها ما أردت وهممت بأن أدفع الثمن إلى الرجل رأيت الدكتور جروتلي على مقربة مني .

كدت أهرب من مكاني ولكني تمالكت جأشي . رأيت الاستاذ يقلب كتباً في يده وانتهى به البحث إلى أن اختار رواية « هي » بقلم السير رايدر هاجارد . وعدنا إلى مكاننا في القطار ، كل منا إلى مركبته .

في المحطة التالية التي كنا سننزل فيها نظرت حولي فوجدتنا وحدنا ، أنا وهو ولا ثالث لنا على الرصيف . وسمعت رجلاً بجانب ناظر المحطة يقول :

— هل هذان السيدان هما اللذان سيذهبان إلى قصر الكونت

دي كندال ؟

وكان الرجل حوذياً طويلاً في ثياب زرق ، فأشرنا اليه إشارة إيجاب ،فأسرع إلى الأمتعة يحملها وجعل الدكتور جروتلي يوصيه بأن يعتني بحمل جعبته .

وكانت في باحة المحطة مركبة سفر قد خفض غطاءها واقفة في انتظارنا . وتقدم الحوذيّ ففتح باب المركبة فتراجعت قليلاً أمام الدكتور إذ كان أكبر مني سناً ، فانحنى انحناءة الشكر .

قال يعرّفني بنفسه : الأستاذ ستانسلاس جروتلي بجامعة لوزان .

فانحنيت تأدباً وقلت : الأستاذ جيرار من باريس !

ولم أشأ ان أذكر شيئاً عن مكاني في جامعة فرنسا إذ رأيت ذلك من الحكمة .

وانطلقت بنا المركبة ، وكان البحر غير بعيد منا .

ولم يلبث الدكتور جروتلي أن أخرج منظاره من العلبة وراح يتأمل البحر ، وما عتم ان ابتسم وهو يقول :ان البحر هنا لأرحب وأعظم من بحيرة جنيف .

قلت مضطراً بحكم الأدب والمجاملة : لقد رأيت البحيرة عدة أيام من « افيان » فإذا بها خضم واسع ، لا تكاد العين تأتي على ضفتها الأخرى .

ثم لم نلبث أن سكتنا وأخذ كل منا يسبح في خواطره . ولم نكن نعير التفاتاً إلى ما حولنا،وما لبث أن أقبل الظلام مسرعاً، فأغلق الدكتور الكتاب الذي كان يقرأ فيه ونزع عن عينيه

منظاره فوضعه في غطائه .

ورأيت الساعة قد دنت لمواجهته ، والواقع أنه ما لبث أن قال متلطفاً : لا ريب في أن لي السرور بالسفر مع ممثل فرنسا في البعثة التي ألفها اصدقاؤنا الارلنديون ؟

فانحنيت شكراً ، وقلت : وهل وصل زملاؤنا الآخرون ؟

فأجاب في سكون : هذا ما ليس لي به علم .

قلت : وهل تعرف يا سيدي من تكون الامم التي ستمثل في تلك البعثة .. ؟

فسعل الشيخ ومضى يقول : اذا كان الكونت دانتريم اراد أن يتبع العادة القديمة في هذه البلاد ، وهي تحديد عدد الاضياف الغرباء الذين تسمح له آداب الشرفاء بقبولهم في قصره ، فسنكون ولا ريب ستة . أما عن الامم التي سيكون لها ممثلون في هذه المهمة فلا اعلم عن ذلك شيئاً ، كل ما أعرفه أو عرفته الآن صدفة واتفاقا ، هو ان مملكه السويد سيمثلها زميلنا الطائر الصيت الاستاذ هنريكسون مدرس القانون الروماني بجامعة استكولم . هذا ما وصل اليه علمي ، وأنت هل تعرف شيئاً ؟

قلت : البتة .

ومضت المركبة تمشي الهوينا ، وفي الحال دوى الطريق بصوت سيارة خلفنا ، وجاءت السيارة تنطلق انطلاقاً شديداً وخففت من سرعتها قليلًا اذ مرت بنا ، فاستطعت أن أتبين سائقها .

رأيت فتى في الثلاثين ، له وجه أشبه شيء بوجه امرأة . نعم ، محيا نسائي ، قد غطاه الا قليلًا في كساء من الفرو . ولم تلبث

السيارة أن اختفت وعاد الطريق مظلماً .

قلت وقد لمست ظهر الحوذي : على أية مسافة نحن الآن من القصر ؟ ..

قال : بقيت أمامنا أربعة أميال .

فقال الاستاذ : لو كنا في تلك السيارة التي مرت بنا الآن ، لقطعنا تلك المسافة في عشر دقائق ، ولكن في هـذه المركبة الفخمة لن نصل قبل ثلاثة ارباع الساعة ، ان السيارات ليست مباحة الركوب في القصر .

فقلت دهشاً : أتقول غير مباحة ؟

فأجاب الشيخ : هذا شيء معلوم يا سيدي الزميل . نعم ان هناك ذكرى أليمة لا تزال عالقة بالأذهان عن هذه السيارات .

فأدركت مرمى قوله . انه يشير الى تلك الكارثة التي ذهبت بحياة الكونت دي كندال . وآلمني ان تكون تلك الحادثة قد تركت اثراً سيئاً في فؤاد انتيوب .

قال مسيو جروتلي : ها نحن قد وقفنا .

وكان حقاً ما قال لقد وقفت المركبة بغتة ولاحت حولها أشباح لم أتبينها ، ونظرت فرأيت على قيد عشرين خطوة منا باباً صغيراً عليه مصباح تمشي أمامه أشباح متحركة .

ونزل السائق عن المركبة وفتح بابها ثم قال :

– لم يبق علينا قبل بلوغ القصر إلا مسيرة نصف ساعة والضباب قد بدأ يتكاثف ،وأخشى ان يقع مطر ولذا أريد ان أرفع غطاء المركبة ..

ثم تمهل قليلًا وأردف يقول: وهذه حانٌ على الطريق فإذا ودّ سيداي ان ينتفعا من هذه الوقفة بتناول شيء من الشراب كان خيراً لهما للاستدفاء قبل ان يسقط القر .

قال الدكتور جروتلي : لا سبيل إلى الرفض .

ووثب إلى الأرض وهو يقول : هلم إلى الحان نَخْبر ما قال الرجل .

*

في تلك الحان جلسنا معاً بقرب الموقدة إلى مائدة من الخشب. وجيء الينا بقدح من اللبن المغلي وقليل من الوسكي . وانطلق الحوذيّ يتحدث وصاحب الحان وزوجته والجلوس في الحان يشربون .

ومضى الدكتور جروتلي يصغي إلى أحاديثهم دون أن تفوته كلمة مما كانوا يقولون، أما أنا فجلست أفكر لنفسي، وقد اشتد ندمي إذ لم أكن حقاً الاستاذ فردنان جيرار ، ولكي أروّح عني قليلًا ، نهضت من مجلسي ومشيت اتفقد الصور المعلقة في الحيطان .. صوراً تمثل عظماء ايرلندة .

ولكني لم البث أن اخذتني رعدة ، وسمعت صوتاً يقول « آه . يالله . يالله ! » لقد كان صوت الدكتور جروتلي .

نهض الدكتور دون أن اشعر فتبعني يطوف بتلك الصور ، وقد اثبت منظاره فوق انفه، ثم وقف أمام الصورة التي ارعبتني.

كانت تلك الصورة تحوي تلك الكلمات عينها التي قرأتها منذ عشرين عاماً ، ولكنها كانت بالانكليزية .

وعاد الدكتور يكرر دهشته « يالله . يالله . » بصوت خافت وقد بدت أمارات السرور في وجهه ، ثم مضى يقرأ تلك الكلمات :

« في يوم الاثنين عيد الفصح عام ١١٥٢ ارتكبت الجريمة دفورجيلا ابنة دانتريم وزوجة ترنان أوروارك . وكانت قد بلغت الحول الخامس والثلاثين من العمر . فاذا قدر لفتاة من آل دانتريم أن تبلغ هي أيضاً الحول الخامس والثلاثين يوم عيد الفصح فان ذلك اليوم سيكون تكفيراً لذكرى تلك الجريمة التي اقترفتها ديفورجيلا ، وستدوي السموات بطبول الخلاص وسيشهد طريق الجبابرة بانتصار فين ماك كول فرار الفاتح الغاصب » ..

فلما انتهى من تلاوتها أخذ يكرر الكلمات الأخيرة بابتسامة سرور وهو يهز رأسه :

« .. فرار الفاتح الغاصب ! » .

فنظرت اليه نظرة رعب وذهول ، فتمتم يقول : « هذه نبوءة دونيغال » .

فلم أفه ببنت شفة ، واستطرد هو يقول مستخفاً برعبي : « نعم . انه لأمر غريب أيها الزميل العزيز . ولكنه كما ترى . ان نبوءة دونيغال معلقة في كل بيت من بيوت ارلندة .. هذا هو البعث الذي يعدّون له العدة هنا . لله هذه البلاد . انها لمملكة عجيبة . مملكة عجيبة » ! ..

لم أصغ الى كلماته . لقد ثارت في فؤادي ذكرى عشرين عاماً ،

فذكرت ذلك الجلال والسكون الذي كانت تكلمني به انتيوب في قريـــة (اكس) وتذكر لي تاريخ مولدها .. نعم الرابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٨٨١ !

وخطر لي اذ ذاك ما قاله لي مسيو تيرانس « ستدخل ارلندة بعد شهر في حرب عوان وانكلترة . أي حوالي العشرين من شهر نيسان » ! ..

أواه ، في ذلك اليوم ، الاثنين يوم عيد الفصح « اذا بلغت فتاة من آل دانتريم الحول الخامس والثلاثين » !

اذن هي .. هي ، الفتاة التي شهدتها في حمامات اكس . تلك الصبية النحيلة البدن السمراء الملامح ، التي تبدت يومذاك في الثياب القصيرة .

اذن هي التي قدر لها أن تكون الفتاة التي ستمحو عــــار دفورجيلا !

لشد ما غدوت فخوراً بها ..

يا للفرح اذ استمعت الى وحي الذاكرة !

وكان جروتلي قد عاد في تلك البرهة فجلس امام الموقدة ، ومضى يكرر ثانية قوله : « انه لشيء في الحقيقة غريب » !

فنظرت اليه ، وانطلق يقول : ألست على رأيي ، ان هـذه النبوءة يعرفها جميع اهل ارلندة . انها وحي الحرية لديهم .. انها انجيل استقلالهم .. فالاطفال في المدارس يحفظونها والاساتذة يُلقّنونها ، بل هي على كل لسان ، وفي كل مسمع . وعلى هَدْيها ستفغر الثورة بعد شهر أفواها ، فهل تعلم ماذا يصنعون اليوم في

انكلترة . ينامون ملء عيونهم . ان السامة في انكلترة والشرطة لا يرون في هذه النبوءة الا تفكهة وخرافة معسولة . بل ان حاكم ارلندة ذاتـه ووزير الداخلية في مدينة دبلن وهما متكأن في مقعديهما هادئين يهزآن بالتقارير التي ترتفع اليهما من الشرطة نذيراً بهـذا البعث الذي سيحين اليوم حينه .. ان ذلك لأمر غريب غريب ..

عدت إلى هدوئي وانبريت أقول له : لعله غريب كما تقول ، ولكنه ليس من الغرابة بحيث تتصور . لعلك قرأت مؤلفـات « ادغار بو » فهل تتذكر روايته « الخطاب المسروق » فأين كان ذلك الخطاب . لقد كان في مكان ظاهر جليّ بحيث لا يحفل أي انسان بالبحث عنه .

فقـال مسيو جروتلي : أنك مصيب فـيما تقول ولا ريب ، ولكن لنتكلم عن هذا الموضوع من ناحيته الأخرى ، فهل خطر لك أن فكرت في عظمة هذا القدر الذي جعل ابنة دانتريم هذه قبلة أمـاني شعب بأسره ومطمح آمـال أمة ؟ انني لا أعرف الكونتس انتيوب ، فهل هي خليقة بهذا الحظ العظيم ؟ وهل هي في المساء إذ تأوي الى مخدعهـا الساكن الرهيب ، مخدع المرأة الارمل ، تفكر في ارلندة هذه وترسل المخيلة في سبيلها . اننا نحن الذين لسنا في مكانة كتلك التي أصابتها هـذه السيدة ، احرار نتصرف في حياتنا كما نشاء . ولكن هي .. هي .. هل تشعر بأن حياتها ليست لها ، وان أيامها وقف على غيرهـا .. يا للعجب . يا للعجب . إنه والله لشيء آية في الغرابة ! ..

ولست بحاجة إلى وصف مشاعري أنا وثورة عاطفتي ، إذا كان هذا ما جال في خاطر هذا الاستاذ الجاف . لقد انبعثت إذ ذاك في ذاكرتي أيام طفولتي ، وتبدى لي ذلك المساء الرطب الندي في سافوى ، إذ وقفت وانتيوب يودع أحدنا الآخر ، وقد أخرجت تلك الصورة التي حوت نبوءة دونيغال وناولتني إياها رمزاً لذكرى تلك الأيام التي قضيناها سوياً .

وفي هذه اللحظة سمعت القوم الجلوس في الحان قد انطلقوا في حديثهم بالانكليزية ، إذ دخل عليهم رجل طويل القامة قد غطى رأسه بقبعة صغيرة وعلت الاوحال رداءه ، وكان يلعن ويقسم محرجة الايمان وهو متسخط مغضب .

قال يشرح لصحابه باعث حنقه : هذه السيارة الملعونة التي تحمل اللورد أربيكل . أنه يسوقها كالمجنون المذعور حتى لقد كاد يدهمني ، ولم أنج منها إلا بعجيبة ، وكان نصيب ردائي ما رأيتم . لقد أثار كل أوحال الطريق فوق هذا الرداء .

فعلت الضحكات من الجميع ، وعاد هذا القادم الجديد يقول : ألا ترون هذا أمراً يغيظ ويسخط ؟

فقال صاحب الحان : في أغلب الاحيان ، أن اللورد أربيكل طالما دهس أفراخنا ودجاجاتنا وأنت يا سيد جون كنت ترى ذلك أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ، واليوم لأنه لطخ ثوبك بالأوحال أصبحت تصرخ مغيظاً ساخطاً . ألا تفاهم إذن واللورد . فإنه انكليزي وأنت كذلك . ان هذه المسائل لا تهمنا نحن .

فضجّ الجميع بالضحك في هذه المرة أيضاً ..

وقال جون بابتسامة المتكبر المزهو : انكليزي..انكليزي..
هذا مفهوم ، ولكنني قد عرفت منكم سيدة ستكون السعادة لديها أو أنها تزوجت باللورد .

فعلت الاصوات متسائلة ، وقال صاحب الخان : أحق ما تقول . ومن تكون سيدتك تلك ؟

فقال جون بهدوء : ومن تكون غير أميرتكم الكونتس انتيوب ؟

فاشتد الضجيج ، وثارت الصيحات ، ووضع جون يده في خصره وعاد يكرر : نعم ، أميرتكم الكونتس انتيوب !

وارتفع في القاعة صوت يقول : إنك كاذب !

وكان ذلك صوت الحوذيّ الذي كان يسوق المركبة التي تحملنا ، فسكن الجمع ، وقال جون : أتقول انني كاذب ؟

فأجاب الحوذيّ محتدماً غيظاً : نعم ، انك تكذب وأنت تعرف ذلك .

قال صاحبه : حذار يا جوزف !

فاشتد غضب الآخر وقال : ما كان مثلي ليحذر ، انني أقول لك انك كاذب . لن تتزوج صاحبة السمو آخر الدهر رجلاً انكليزياً ، وان كان اسمه اللورد اربيكل أو لورد كتشنر ، بل ولا مستر لويد جورج نفسه !

قال جون : سنرى .

فأجاب جوزف الحوذيّ : لن يكون ذلك مطلقاً .

وكاد الجمع يشتبكون في شجار ، فانبرى الدكتور جروتلي

يقول بصوته الخافت الضعيف يريد أن ينهي هذا الحديث المخيف : هيه يا جوزف ، ان غطاء المركبة قد أنزل فمتى نواصل المسير ؟

فسكت كل من في القاعة ، وأحنى الحوذي رأسه وقال : أمرك يا مولاي !

ولم تمض دقائق حتى كنا على الطريق .

فلما سارت بنا المركبة قليلًا لمست كتف السائق قائلًا :

– أليس اللورد اربيكل هو بعينه سائق تلك السيارة التي مرّت بنا منذ قليل ؟

فأجاب الحوذي : نعم ولكن ما قاله جون كذب وافتراء وأقسم على ذلك. نعم،لن تتزوج صاحبة السمو باللورد اربيكل.

فقال الاستاذ : ولكن هذا اللورد يلوح لي غنياً طائل الثراء من هذه السيارة التي كان يسوقها .

قال جوزف : لن تتزوج به .

وراح يلهب الجياد بسوطه مغضباً وهو يكرر هذه الكلمات : لن يكون ذلك . لن يكون ذلك .

ولم يلبث الحوذي ان قال : لقد وصلنا !

وكأنما أدركت الخيل ذلك ، فأسرعت الخطى .

وسارت المركبة بهدوء في ممر قد فرش بالرمل الأصفر ، وفرعت على جوانبه السرحات الطوال،ثم وقفت أمام مظلة ذات بهو فسيح وقد وقف على درجة السلّم الأخيرة من تلك الشرفة رجل في رداء أسود ، وكان وجهه تنعكس عليه أشعة المصابيح التي فوق رأسه فبدا أزرق رائعاً .

وونب الحوذي عن المركبة ، وقال بلهجة احترام يمازجه خوف : يا سيدي مسيو رالف ، انني أستطيع أن أقول ان هذين السيدين قد ظفرا بسفرة طيبة !

فانحنى الرجل في صمت وأشار الينا أن نتبعه .

كندال

وقع ذلك الحادث الذي عجل بحياة الكونت دي كندال في اليوم السادس من شهر حزيران عام ١٩٠٤ وكان الكونت قد تزوج بانتيوب قبل ذلك بثلاثة أشهر .

وتم الزواج في قصر دانمور في شمالي ولاية الصتر .

وفي ذلك القصر كان مولد الفتاة، وفيه عاشت أيام طفولتها وعهود صباها .

ولكن على الرغم من ان أنتيوب كانت مدللة هانئة في طفولتها لم تكن تود أن تعيش في قصر دانمور ، إذ كانت الصتر مقاطعة بروتستانية ، وكانت تكرهها كراهية شديدة .

وكان أبوها يشاركها في هذه الكراهية ولكنه كان يفضل البقاء في القصر .

وكان يقول: لقد أصبحت الصتر كما ترينها الآن لأن الايرلنديين لم يؤدوا واجبهم . لقد نزلوا عن أرضهم الاولى وموطنهم المقدس للمهاجرة من السكسون . ولذلك ينبغي أن نوقف تيار الهجرة من ارلندة وطننا .

واتفق ان ذهب الكونت دي كندال في الثالث من شهر حزيران إلى مدينة بلفاست ليعود بسيارة فخمة كان قد ابتاعها من قبل . وعاد يحمل إلى زوجته الفتية هدية يطرفها بها ، وهي أداة جميلة من أدوات التصوير .

وتواعد الزوجان أن يجربا السيارة والآلة في اليوم التالي . فلما كانت الغداة ، والسماء صحو والجو زاه مشرق ، والمطر لا أثر له في السماء ، انطلق العروسان إلى النزهة .

وكانت في رفقتهما أخت لأنتيوب من الرضاعة ، هي أديث ستوارت ، وكانت قد اتخذت وظيفة الوصيفة لانتيوب والكاتبة والمصورة .

وانطلق معهم كذلك شقيق أديث وهو الغلام روبير . صبي يمشي الي الحول الثاني عشر . وأبت الأقدار الا أن تقع المأساة الكبرى على كيلومترين اثنين من القصر .

وكانت السيارة التي يقودها الكونت دي كندال، تنطلق في طريق ضيقة ، على جانبيها واد عميق يبلغ غوره ثلثمائة قدم .

وإذ انطلقت السيارة صعدا في ذلك الطريق، فكرت أنتيوب أن توقف المسير قليلًا عند مشهد جميل هناك ، لكي تأخذ صورة السيارة والراكبين فيها .

ونزلت العروس من السيارة وجلست مستندة إلى صخرة هناك ورأت أن موضع السيارة أمام أداة التصوير لم يكن صالحاً ، فأشارت إلى الكونت أن يزيحها قليلًا قليلًا . فلما أراد أن يزيحها هبطت يده على المحرك بسرعة ، فأفلتت السيارة بمن فيها هاوية في

ذلك الوادي السحيق .

تلك كانت الفاجعة الأليمة .

وأبت أنتيوب إلا أن تواري رفـــات أديث وأشلاء أخيها الصغير روبير مع جثة الكونت في مقبرته .

ومضى شهران ، فارتحل الكونت دانتريم وابنته الأرمـل المحزونة إلى قصر كندال .

*

وآضلة الأحمق . لقد كنت أظنني سأرى انتيوب في مساء اليوم الذي وصلنا فيه إلى القصر ، ولكن لم تتح لي تلك السعادة ، بل لم أقابل أباها الشيخ كذلك . ومشينا أنا والدكتور جروتلي في أثر الرجل ذي الرداء الأسود الذي ناداه الحوذي « مسيو رالف » وصعدنا سلماً باهر الضياء .

ووقف مسيو رالف أمام باب كبير وراح يقول بلهجة أدب كبيرة : سيدي الاستاذ جيرار !

وفتح الباب ، ووجدتني في تلـك الحجرة الرحيبة التي أشار اليها ، ورأيت وصيفاً قد دخل معي اليها . ووضع الوصيف جعبتي على مقربة من مائدة الزينة وقال متأدباً : ان لسيدي جعبة أخرى في قطار الامتعة وستكون هنا غداً صباحاً .

فشعرت بشيء من الاستياء .

لقد كانت أثوابي التي ارتدي بهـا في حفلات المساء في تلك الجعبة ، ولذلك وددت في تلك اللحظة ألا أرى انتيوب قبل مساء اليوم التالي ، وشرعت أخرج مطالب الزينة من الجعبة وأنا

مضطرب الاعصاب ، وأحسست أمام هذا الخادم بخجل من تفاهة أدوات زينتي وقلة عددها ، وضؤولة حجمها .

أدهشني وقوفه وجعلت أحدث نفسي قائلًا : لماذا بقي في الحجرة . يلوح لي انه يرتقب مني الاذن بالانصراف . واذا كان قد تمكث وتمهل ، فلا بد من انه قد أمر بذلك .

ودق الباب ، فاذا القادم مسيوم رالف ، ودنا مـــني وهو يقول :

ان سيدي الكونت قد كلمني أن أنهي اليه هل ظفر سيدي الاستاذ بسياحة طيبة ؟ وهل هو بحاجة الى شيء من مطالب الراحة ؟ ويسر صاحب السمو أن يقابل الاستاذ غداً في الحادية عشرة صباحاً .

وانحنى انحناءة الادب ثم أشار الى الخادم ومضى يقول : ان ويليم هذا تحت تصرف سيدي الاستاذ، وليس على سيدي الا أن يدق له الجرس عند ما يريد الذهاب الى قاعة المائدة .

وخرج الرجلان . ولم اكد اخلو بنفسي ، حتى خطر لي أولاً أن افتح نافذة الحجرة ، فدنوت منها وفتحت مصراعيها فنفذ في الحجرة هواء بارد نقيّ يمـــلأ الصدر انتعاشاً يحمل في أنفاسه شذا لزهر .

ورأيت الأشجار ممتدة أمام عيني في اشباح سوداء رائعة ، وكانت قريبة من النافذة ، كثيرة الفروع منتشرة الاغصان ، فاضطررت أن ارفع رأسي كثيراً لكي أشهد السماء ، اذ كانت الريح تطارد القمر في رقائق من السحاب .

تركت النافذة وعدت الى بهوة الحجرة .

لي الله . أية مأساة من مآسي الفؤاد ستشهد تلك الحجرة وأية خواطر وأية عذابات سأشعر بها بين هذه الجدران السوداء !

ونظرت الى الجدار فرأيت اطاراً مذهباً متقن الصنع امام عيني .

لقد كان ذلك الاطار يحوي « نبوءة دونيغال ! »

فأعدت قراءتها كما يقرأ الانسان قصيدة من الشعر يستظهرها وهو بها معجب .

وبدأت زينتي ، فلما انتهيت منها دققت الجرس ، وأدهشني أن فتح الباب في الحال ، وظهر ويليم الخادم . كأنما كان واقفاً بالباب كالحارس ، واقتادني إلى قاعة المائدة ، وهي حجرة أنيقة مستديرة الاركان .

وكان في طرفي المائدة مصباحان مضيئان ، ورأيت عند دخولي رجلاً في ثوب رسمي جالساً عن كثب من المائدة يقرأ صحيفة يومية ، ونهض إذ رآني وألقى جانباً الصحيفة التي بيده وانحنى بالتحية ، وقال يعرفني بنفسه : الكولونيل هارفي من بلتيمور !

قلت مجيباً : الاستاذ جيرار من باريس .

وتصافحنا . وفي هذه اللحظة دخل الدكتور جروتلي وما أشد خجلتي إذ رأيته هو كذلك في ثوب رسمي .

وجلسنا إلى المائدة ، وجعلت أستمع وأنا شارد اللب حديث الكولونيل ، فقد قال :

– لي السرور الأكبر يا سيدي الدكتور .. أن سويسرة

تعلمان انه مريض طالت العلة عليه ، ولكنه مع ذلك باذل جهده في أن يكون للجميع المضيف الحسن المثوى الكريم العشرة وان كانت صحته لا تعينه على ذلك كما يحب ويرغب ، ولهذا كلفني أن أن أنوب عنه في ذلك .

قلت : ونحن لك شاكرون يا سيدي الكولونيل .

فألقى اليّ الكولونيل نظرة شكر ، وعاد الدكتور جروتلي يسأل : وماذا سيكون عملنا بوجه التقريب ؟

فبدت على وجه الكولونيل دلائل الاستياء وقال :

– كل ما سيروق لك يا سيدي الدكتور . كل ما سيروق لك . فان لم يبد لك من حديثي الأول الذي سنعقده انك حر في هذا القصر ، مطلق الحرية، فاعلم اذ ذاك انني قد أسأت الشرح ولم أقم بتحقيق رغائب الكونت . فليعمل كل منكم في ناحية ، كما يشاء وكما يبدو له أن يعمل . وستذلل أمامكم الصعاب كلها . وتكفل لكم الوسائل . نحن ما جئنا الى هذا القصر الآن لنقول للملأ جميعاً ما رأته أعيننا ، وما أحسته قلوبنا ، ولكن الكونت يصر – واسمحا لي أن أحمل هذه الكلمة عنه – على أن الملاحظات التي يهتدي كل منا اليها تجمع وتدون في سجل واحد لا أن ترسل الى الصحف يوماً فيوماً ، اننا جئنا هنا كأساتذة بحاثين دارسين ، لا صحافيين يوميين !

قال الدكتور جروتلي بصوت أهدأ من قبل : هذا هو الصواب بعينه .

ومضى الحديث بينهما في شؤون عامة فلم أسمع ما كان يجري

قالت وهي فرحة : آه ، هذا أنت هنا ، يا عزيزي مستربيغ!

فوقف الجواد خائفاً مطرق الرأس كأنه يخشى عتاباً .

ودنت نحـوي وهي دهشة اذ لم تكن تتوقع أن تجد بجانب جوادها الا قروياً من أهل البـــلد ، وشهدت التراب الذي علا ردائي في محاولتي أمساك الجواد فضجت ضاحكة .

قالت : انني متأسفة الاسف كله يا سيدي لهذه المتعبة التي تحملتها لأجلي . أن مستر بيـغ هذا جواد لا يطاق ..

قالت ذلك ونظرت اليّ نظرة المستفسر وهي باسمة .

فأدركت من ذلك انني قـــد نسيت أن أعرفها بنفسي ، فذكرت لها اسمي وأنا في حيرة وخجل .

وقالت اذ سمعت اسمي : آه . أنت غريب إذن ؟

فلم اجب اذ وقفت أتأمل محدثتي باعجاب وهدوء .

قلت في نفسي : « كم عمرها ؟ »

لقد تذكرت بعد ذلك خطئي اذ قدرت لها من العمر خمسة وثلاثين .

كانت رشيقة هيفاء ، وقد تراخت جدائل شعرها تحت قبعتها السوداء حتى تدلت على منكبيها كسلاسل من الذهب ، ولهـــا عينان زرقاوان ، يشعان ابتساماً ونوراً ، من محجرين واسعين . وشفتاها الصغيرتان الورديتان تشبهان الزنبق .

وعادت تقول : إذن أنت غريب !

قلت : فرنسي يا سيدتي .

ومضيت اشرح لها بايجاز باعث مجيئي واخبرتها أنني ضيف في

قصر الكونت دانتريم .

قالت : انت اذن في قصر كندال ؟

وهنا بدأ الجواد يتململ ، فقالت : هيه ، مستر بيغ !

ثم التفتت اليّ وابتسمت قائلة : الا تتكرم يا سيدي العزيز بأن تمسك هذا الحيوان الشرير ريثما اعتلي صهوته ، اذ لا سبيل غير ذلك لإسكات هذا الجواد .

ووثبت على ظهر الجواد ، ولما استوت فوقه نظرت اليّ بابتسامة وقالت : ما دمت يا سيدي تقيم في كندال فستكون لنا ولا ريب الحظوة بلقائك مرة أخرى . ان ذلك يوليني سروراً عظيماً .

فانحنيت انحناءة شكر ، وقالت :

– الى الملتقى القريب وألف شكر لك مرة أخرى ..

وانطلق الجواد بها خبباً ، وقبل أن تختفي عن نظري ويعرج بها الجواد في منعطف هناك ، التفتت وراءها ولوحت لي بسوطها تلويحة الوداع !

*

عدت ادراجي الى القصر .

وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، وكان ينبغي لي أن اشتمل بثوب خليق بلقاء الكونت ، وكانت جعبتي قد وصلت ووضعت في حجرتي .

وبينا كان الخادم ويليام يفك احزمتها قلت اسأله من غير اكتراث : ان الكونتس دي كندال تركب الجياد ولا ريب .

فأجاب الخادم : نعم يا سيدي . في كل يوم لها ركبة الى نزهة .
قلت : اذن هي التي لقيتها في طريقي هذا الصباح .
وأردفت على قولي للتأكيد : فوق جواد أدهم .
فهز ويليام رأسه واجاب : كلا . لم تكن هي يا سيدي فأن جواد صاحبة السمو ابيض .
قلت : اذن من تكون تلك السيدة التي التقيت بها ، سيدة ذات فروع صفراء ؟
قال : صفراء وهيفاء القد ، على جواد اسود ، اذن لقد رأيت اللادي اربيكل ..
قلت في دهشة : اللادي اربيكل !
قال : نعم يا سيدي .
قلت : نبئني . لقد رأيت أمس في طريقي الى القصر اللورد اربيكل وقد اخبرني رفيقك جوزف الحوذي أن اللورد ليس بالمتزوج .
فأجاب الخادم : لقد نبأك حقاً فان اللورد اربيكل لم يتزوج بعد والسيدة التي التقيت بها هذا الصباح ليست زوجته .
قلت : إذن من تكون ؟
فأجاب : أمه يا سيدي !
فنظرت إلى ويليام غير مصدق .. ورحت أسأل بدهشة : إذن كم عمر اللورد اربيكل ؟
فأجاب الخادم : انه اليوم في الربيع السادس والعشرين يا سيدي . وفي الحق لقد رزقت اللادي به وهي صغيرة فقد

تزوجت في الربيع السابع عشر ، فهي تناهز الحول الخامس والأربعين ، ولقد رأيت يا سيدي بعينك انها لا تلوح في هذه السن . وعجيب من القدر ذلك فان لدينا في القرية امرأة تبيع الزبدة والجبن ، وهي تدعى كيتي ، وقد بدت اليوم مقوسة الظهر عجوزاً شوهاء، وان كانت لم تحطم بعد الثامنة والأربعين فهي لا تزيد عن اللادي اربيكل إلا ثلاثة أعوام لا أكثر . ان هذه المدهشات لا تُصدق حتى تُرى رأي العين !

ثم تمهل لحظة ومضى يقول : ومع ذلك هذه هي الحقيقة !

قلت متمتماً : هذا لا يهم . انها حسناء مع ذلك .

وحان موعد لقاء الكونت انتريم ولعلّي سأرى أيضاً انتيوب !..

*

واقتادني مسيو «رالف» في بهو صغير حيث لقيت ثلاثة رجال مجتمعين .

كان هناك الدكتور جروتلي والكولونيل هارفي ورجل قصير القامة يضع زجاجة على احدى عينيه ، وهو في ثوب أسود أنيق المظهر . كان هذا الرجل هو البارون أدزومي ممثل اليابان .

وتولى الكولونيل هارفي بيننا صيغة التعارف .

وإذ عرف البارون اسمي،مضى يقول مبتسماً متهلل الاسارير بفرنسية نقية صحيحة وقد شد على يدي مصافحاً : آه يا سيدي لي الشرف بالتعرف اليك،انني معجب بمؤلفاتك مكبر لكتبك الممتعة.

فابتسمت عن تواضع وحياء ، وقلت أحدث نفسي : « نعم.

يا سيدي العزيز ، ولكن لن تسمع مني عنها شيئاً ما أقمت في هذا القصر ! »

واسترسل البارون يقول : انك يا سيدي الأستاذ الأول في علم اللغات الكلتية في العالم كله .

فأوقفت مدائحه بإشارة وابتسامة وقلت : لسنا إلا أربعة فقط في العالم يا سيدي البارون !

وهنا قال الكولونيل : لم يصل بعد السناتور بار كيلبدرو فقد مر بباريس ومكث فيها هَوْناً . وأنتم تعلمون ان اسبانياً يمر بباريس لا تطاوعه نفسه الرحيل عنها سريعاً . بل ان مكثه فيها مؤكد لا ريب فيه أما الأستاذ هنريكسون ...

وتمهل الكولونيل وراح يضحك ضحكة متواصلة ، فقلت :

— ماذا عنه ؟

قال : هو الغرابة بعينها . فقد أرسل من حجرته يقول إنه لا يستطيع أن يترك عمله ويخرج للتعارف بزملائه . وأبى إلا أن يلازم غرفته ، فاذا كان هذا رأيه فلأي شيء جاء الاستاذ إلى ارلندة . لكان والله خيراً له لو انه بقي في استوكهلم مواصلاً عمله . انني لم أشأ أن أعتذر عنه أو أحمل شفاعه إلى الكونت ، بل دفعت بالمهمة إلى مسيو رالف .

وفي تلك اللحظة ، ازيحت الأستار الحريرية عن باب صغير في الحجرة ، فظهر الوصيف وقال :

— تفضلوا أيها السادة .

فدخلنا الحجرة كل منا في اثر الآخر . وكانت حجرة الاستقبال

تلك قاعة رحيبة قليلة الضوء ، ولم يقع نظري عند دخولي الآن على الموقدة والنار تضطرم في جوفها .

وقادنا مسيو رالف إلى صدر القاعة حيث مقاعد كبيرة على شكل دائرة لجلوسنا ، وفي مقعد من تلك المقاعد ، بل أكبرها وأطولها ، جلس الكونت دانتريم .

وخيل إليّ انني لا أزال أتذكر ملامحه ، وان بدت عليه آثار تغيير قليل ، وكان في ثياب سود ، وقد هبط الجزء الاعلى من بدنه في المقعد وتغطت ساقاه مختفيتين وراء غطاء من الفرو .

وكان شعره قد استحال اشهب كالثلج ، وبدا جبينه لامعاً تحت جبهة صلعاء .

ولم البث أن شعرت بخطئي أول وهلة عند مـــا نظرت إلى الشيخ عن قرب فرأيت فعل السنين في وجهه الشاحب .

لقد بدت الغضون في مكاسر جلده ، وقد غارت وجنتاه في وجهه واعتلى انفه ، وجمد شق وجهه الأيمن عن الحركة كأنما بلغه الفالج .

وبأشارة من يده اليسرى ، وهو يخف يمناه وراء كساء الفرو ، أشار الينا بالجلوس .

وبدأ الكلام .

وكان صوته بطيئاً واضح المخارج ، يتبين منـــه ألم المتكلم واجهاده نفسه في الحديث من شدة ضعفه .

ولم يقل غير كلمات قلائل ..

قال : لقد ناب عني أيها السادة صديقي الكولونيل هارفي في

الاعتذار اليكم أن اكون مضيفكم الضعيف المريض الذي ترون . لقد طالما اضنتني العلة ولكني لم اتألم منها ولم احزن ، ألمي في هذه اللحظة وحزني اذ عجزت عن أن اظهر مقدار سروري كما أريد لقدومكم ، وان أنشط الى لقائكم ، واحييكم في كندال نِعْـــمَ القادمين المرحَب بهم .

فانحنينا له شاكرين . وبدأ البارون ادزومي الحديث بصوت بين وببساطة تامة ، فقال :

– نحن يا سيدي اللورد الذين يسرنا بل يزيدنا شرفاً ان نكون لك اضيافاً ، فانت الرمز الحيّ المحترم لمملكة نشعر لهـا بأعمق الحب .

واحنى قامته القصيرة ولكن لم يضطرب صوته ، وتابـــع حديثه فقال : ان اليابان ، كفرنسا ، الحليفة الكبرى لبريطانيا العظمى . ونحن من جهة أخرى – وهنـا نظر الى الكولونيل هارفي – لدينا مبدأ ثابت نجري عليه ، وهو اشبه بمبـدأ اميركا الذي يدعونه مبدأ « مونرو » وهـذا المبدأ يوحي الينـا ألا نتداخل البتة في شؤون اوروبا وامورها . ومع ذلك نشعر بأن استقلال ارلندة من المسائل التي تهتم بها الشعوب بأسرها ، ولهـذا جئنا . ولست ابتغي من انحداري الى وطنكم ارلندة الاّ ان اكون شاهداً عدلاً للاحداث التي تريدون بها ان تمحي نقطة سوداء في صحيفة الأمم التي جعلت تنادي بأعلى اصواتها أنها تقاتل لحرية الشعوب !

وابتسم الكولونيل هارفي وانبرى في اثره يقول : اما انا

فسأقول كلمة ولا ازيد عليها وهي انني ولدت في بلتيمور تلك المدينة الاميركية الكبرى التي استمدت اسمها من بلتيمور المدينة الارلندية المحزنة التاريخ ، ولذا يعرف الكونت دانتريم أين تستقر عاطفتي .

وشرع الدكتور بعده في الكلام .. قال هـــذا الاستاذ الغريب : ان ارلندة بعد سويسرة المملكة الجميلة التي انشأ الله فيها ابدع بحيرات العالم كله .

ولم يتحرك الكونت في مجلسه ، وكانت عينـــاه مغمضتين قليلًا ، وقد لاح على الجزء الذي لم يصل اليه الفالج من شفتيه ظل ابتسامة .

واذ ذاك نظر اليّ زملائي يرتقبون مني أن اقول كلمتي ، وبصوت اجش مضطرب قلت : في تلك الايام التي كانت اشد هولاً وانكر مطلعاً من كل ما شهدت فرنسا وعانت . نعم ، في عام ١٨٧٠ اتفق لكاتب انكليزي – لكاتب لا يزال كتابنا وأهل الأدب لدينا يرفعونه مكاناً علياً ، واعني به كارليل الطائر الصيت – أن يتنزه مع المؤرخ الارلنديّ «ليكي» . وكان يشرح له الاسباب التي جعلت العالم كله يطرب للهزيمة التي اصابت فرنسا من حرب السبعين ، وكان يقول له أن تلك الهزيمة كانت اجدى شيء على الكون منذ الخليقة ، وانها قد اعادت ذكرى الشيطان اذ تقدم يحمل الزهو والكبر ويوقد نار الجحيم ، وكيف أن الملك ميكائيل عمد اليه فعلاه بسيفه الساطع الحد ، فالقاه على الارض طريحاً . فلما ذكر المؤرخ ليكي ذلك في تاريخه كتب يقول :

« لست أصدق هذا الشبه الذي أقامه كارليل بين الملك مكائيل وبين الكونت بسمارك . فنحن في ارلندة فرنسيون قلوباً وأرواحاً لأننا نفكر كما يفكرون، ونشعر كما يشعرون، وحاربنا في القرن الثامن عشر من أجلهم ولأجل فرنسا وطنهم ، ولأن الانكليز يرون نقيض هذا الرأي . » ولهذا أميل إلى الاعتقاد يا سيدي اللورد ويا سادتي الزملاء بأن الانكليز منذ عام ١٨٧٠ قد غيروا رأيهم وخففوا من حدة كراهيتهم . ولكن الفرنسيين يكونون ظالمين قساة الأكباد إذا لم يجعلوا بين الانكليزي كارليل وبين الارلندي ليكي فرقاً عظيماً .

قلت ذلك ونظرت إلى الكونت الشيخ فخيل إليّ ان شفتيه تحركتا قليلاً كأنما أراد أن يقول كلمة، لعلها كلمة شكر، ولكنه لم يقل شيئاً .

وإذ ذاك نهض الكولونيل هارفي ونهضنا في أثره .

وتقدم الكولونيل خطوة وقال بلهجة أدب واحترام :

— سيدي اللورد ، اننا لا نريد ان نضيع وقتك الثمين .

فأبدى الكونت اشارة وقال : أرجو أيها السادة أن تولوني الشرف بتناول العشاء في هذه الليلة على مائدتي .

فانحنينا له انحناءة الشكر، وعاد الكونت يقول: شكراً لكم، اننا جميعاً نرجو أن يتمكن الكونت الاستاذ هنريكسون من الجلوس معنا . فهلاّ تفضلت يا سيدي الكولونيل بحمل هذه الدعوة اليه . أم تظن الأفضل أن أبعث اليه بالدعوة في رق مكتوب ؟

فابتسم الكولونيل هارفي وقال : لعل الأخيرة أفضل الوسيلتين .

قال الكونت : ليكن ذلك والآن إلى الملتقى القريب أيها السادة في هذا المساء ؟

وكأنما تذكر شيئاً يريد قوله فأشار الينا بالتمهل ومضى يقول : إنني أظن انه لا جدوى من أن أزيد على ما قلت انه إذا أحب أحدكم ان يقابلني في أمر خاص فانني أبداً في خدمته وتحت تصرفه ، وحجرتي مفتوحة الأبواب له ليل نهار .

وكان ذلك ما كنت أرتقب .

وكنت أنا آخر من بقي لمصافحته قبل الانصراف، فلما دنوت منه وقفت وقلت بصوت خافت : انني أود أن ألتمس إلى سيدي الكونت خلوة دقيقتين للحديث .

فأجاب الكونت : ليكن ذلك في الحال . رالف تقدم أمام هؤلاء السادة . وتمكّثْ أنت يا مسيو جيرار . ألا تفضل فاتخذ لك مجلساً .

وخرج الزملاء ورأيت الدكتور جروتلي قد التفت وراءه وألقى إليّ نظرة عَجِلة في دهشة وحيرة .

وأخذ الكونت في يده المريضة يدي وقد سطع في عينيه الشاحبتين لمعة ضياء، وتمتم يقول : ان كلماتك التي فهت بها الساعة قد وقعت مني في الفؤاد .. فأشكرك .

قلت متلعثماً : ميلورد !

قال بلهجة رقيقة : ألديك ما تريد ان تحدثني عنه ؟

فلم أجب بل نظرت إلى مسيو رالف وكان قد عاد فوقف بجانب سيده ، ولاحظ الكونت نظرتي فقال : ان رالف لا يفارقني لحظة ... انه قطعة من نفسي ولكنك إذا أردت مع ذلك ان ...

فقاطعته بإشارة إذ لم أرد أن أجعل لي من هذا الرجل الرهيب الصموت الساكن عدواً كارهاً .

قلت بصوت أجش : إذا أنا التمست اليك يا ميلورد التمكث لحظة في حجرتك ، فإنما أردت بذلك ان أستثير لديك ذكرى قديمة .

فنظر إليّ دهشاً وقال : ذكرى ؟

قلت : نعم، ذكرى يا ميلورد . لقد التقينا قبل هذه المرة إذ كنت عام ١٨٩٤ في حمامات اكس في بستان الأزهار .

وبدا لي انه جعل يفكر لحظة ، ولم يلبث أن قال: لقد كنت حقاً في تلك الحمامات ولكنك كنت ولا ريب في ذلك العهد فتى حديث السن يا مسيو جيرار .

قلت : نعم يا ميلورد فقد كنت يومذاك في سن الكونتس انتيوب وظللت شهراً ألعب معها وأمرح في ذلك المصيف ولذلك أرجو ان تأذنوا لي بالاستفسار عنها الآن .

وكنت أتكلم بسرعة مطرق العينين فلما رفعت عيني اليه ، رأيت الشيخ محدقاً في وجهي ، وعلى محياه دلائل الدهشة ، أما وجه مسيو رالف فلم يبد عليه أي تأثير !

وقال الشيخ في سكون وتؤدة : إذن لقد عرفت انتيوب

من قبل ؟

وكأنما قد ثار في نفسه عذاب أليم لهذه المفاجأة .

ولاح لي انه جعل يعالج ذاكرته ، ولا غرابة ان يكون قد نسيني .

وعاد يقول : إذن هل عرفت انتيوب ؟

قلت : نعم يا ميلورد ، وكانت الكونتس دي كندال منذ عشرين عاماً هي التي قدمتني اليك قبل الكولونيل هارفي في هذا الصباح .

فنظر إليّ وهو يهز رأسه وقال : لقد كنت عصامياً في هذه الأعوام العشرين وبلغت بها مجداً عظيماً يا سيدي .

فعلتني حمرة الخجل ولكنه لم يلحظ ذلك مني إذ كان في شغل بتلك الذكريات القديمة البعيدة العهد .

وقال أخيراً وهو يجاهد نفسه : نعم انني لأتذكر ذلك الآن . نعم ، اتذكر جيرار الصغير . ذلك الصبيّ الذي كان يمشي مع عجوز في ثياب سوداء ، وكانت تجزع من الاعيب انتيوب وغرابة اطوارها . نعم ، لقد عادت إليّ الذكرى . رباه . رباه !

فنظرت اليه نظرة خشوع وقلت :

— لقد علمت ، وأنا محزون اسيف لما علمت ، بتلك الكارثة الكبرى التي اصابت الكونتس دي كندال .

فجعل يكرر في اثري هذه الكلمات : نعم ، الكارثة الكبرى . الكارثة الكبرى !

قلت بخوف : هل تأذن لي في أن أقدم اليها تحيتي .

فأجاب بهدوء : بلا ريب ، بلا ريب !

وجعل يخرج انفاسه بكل جهد ، ومضى يقول :

– أنها ستتناول العشاء معنا في هذه الليلة ، وهي ستجلس الينا في هذا المساء مجلس ربة البيت .

وبدا لعيني أن الماضي وذكراه وعهوده قد أثارت دفائن المه وحزنه .

ورأيت مسيو رالف قد دنا منه فلمس بيده كتفه وراح يهمس له قائلًا : ارجو أن تسمحو لي يا صاحب السمو بان الاحظ بأنه لا ينبغي أن تجهد صحتك كل هذه المدة الطويلة .

فقال الكونت كأنما في لهجة التوسل : لقد انتهيت يا رالف ، لقد انتهيت . ولكن ما قاله لي مسيو جيرار مؤثر ، لم اكن اتوقع سماعه ، ومدهش لم اكن ارتقب ذكره ، والآن اعود الى سؤالي الذي اردت أن أسأله يا سيدي العزيز . انك تود ولا ريب أن ترى قبل موعد هـــذا العشاء صديقتك وصاحبة طفولتك ؟ اليس كذلك ؟

قلت : سأكون بذلك سعيداً اذا تيسر ما أردت .

قال : حسناً ، حسناً . انه لطبيعي جداً ، ان انتيوب تركب جواداً في كل يوم بعد تناول طعام الغداء ولا تعود من نزهتها الا حوالي الرابعة أو الخامسة من الأصيل ، فاذا أردت أن تلقاهـــا فسيحضر اليك من يتقدمك إلى لقائها .

*

على مائدة الغداء جعلت استمع شارد الذهن إلى الحوار الذي

اشتدت حماسته بين الكولونيل هارفي والبارون ادزومي حول تمثال اليابان في ولاية كاليفورنيا ، وكان حديثاً حافلاً بالفكاهة والطرائف ولكني لم استمع اليه بكليتي .

وبينما أنا عائد إلى حجرتي التقيت بالخادم ويليام وكان منشغلاً برفع كتب كنت قد وضعتها على مائدة صغيرة هناك .

فلما رآني امسك عن عمله وهو متحير جزوع ، فسألته : ماذا بك ؟

قال : الاستاذ هنريكسون يا مولاي .

قلت : ما يريد مني الاستاذ ؟

قال : كلفني الاستاذ هنريكسون يا مولاي أن أبحث له في القصر على مائدة صغيرة خفيفة الحجم ، وقال انه إذا لم يجد هذه المائدة التي ينشدها في القصر أو إذا لم تكفل له ، فسيرد جعبه وأمتعته إلى السويد ويزمع رحيلاً سريعاً ، فبعد البحث لم أجد إلا هذه التي يقصد ، فإذا كنت يا مولاي لا تحفل بأن تؤخذ المائدة ..

قلت في نفسي : « من يكون هذا الاستاذ الأبله الأحمق ! »

وظل الخادم في بهو الحجرة واقفاً ويداه على المائدة ترتقب جوابي ، فقلت :

— أحملها اليه وأسأله أيضاً إذا كان يريد أن ترسل اليه مائدة الزينة التي في حجرتي هذه .

فأجاب الخادم وقد خف ما به من قلق :

– أما هذه فلا يا سيدي أنه مولع بالموائد المستديرة الصغيرة!

*

وأمضيت بقية الأصيل أحاول قراءة كتاب « تريسترام شاندي » وأنا مشرد الخاطر ، فلما دقت الخامسة دق باب حجرتي وبدا مسيو رالف عند الباب ، وقال في هدوء :

– ان مولاتي الكونتس في انتظار سيدي الاستاذ ! ..

في كندال ايضاً

في اليوم الذي ودعت فيه أنتيوب في أخريات شهر ايلول عام ١٨٩٤ كانت الشمس توشك أن تجود بنفسها ، وكان وداعنا على ضفاف البحيرة والاشجار الفارعة متدانية الاغصان هابطة في مياه البحيرة كأنها تستحم وتغتسل .

تلك الشمس المريضة التي كانت توشك أن تغيب في كبد السماء ، هي التي عادت إلى ذاكرتي وأنا أسير في أثر مسيو رالف في دهليز طويل سيقودني إلى تلك الصورة الجميلة التي بقيت في الذاكرة من عهود الصبا والطفولة .

وفي تلك اللحظة خف ما كان بي من جزع ..

سأرى أنتيوت ! ..

سألقاها في الساعة عينها التي ودعتها فيها ..

جعلت كلما أمر بنافذة من نوافذ ذلك الدهليز أنظر إلى الشمس ، تلك الشمس المحتضرة التي كانت شاهدة يوم وداعنا ، وستصبح الآن شاهدة لقائنا وموقف اجتماعنا .

وكان صوت البحر الزاخر يشق أفنية القصر ويبلغ الحجرات.

وكانت الساعة رهيبة ، والكون مهيبا .

ووقف مسيو رالف عند باب رفعت عليه أستار من الحرير ، ودق الباب ، فجاءت وصيفة وفتحت ، فتبادلت الوصيفة والفتاة اشارة بينهما ولم تلبث الوصيفة أن تراجعت لتخلي أمامي السبيل الى الدخول ، فنفذت الى بهـو واسع ومشيت منه الى حجرة أخرى .

وكانت هي حجرة الكونتس دي كندال .

ورأيت في الحال انتيوب ، ولم أر شيئاً غيرها .

كانت جاثية على ركبتها فوق أديم الحجرة وهي مشغولة بلصق لوحات صغيرة فوق صناديق على شكل طرود للبريد .

وقفت جامداً في مكاني عند عتبة الباب فلما لمحتني نهضت من مجثمها وتقدمت نحوي ومدت اليّ يدها بالسلام .

وقالت بكل بساطة : انني سعيدة برؤيتك مرة أخرى يا سيدي !

وأشارت اليّ بالجلوس ، فلمـــا جلست عادت تقول : ألا معذرة .. فقد كنت مشغولة باعداد هذه الطرود ، فهي صناديق تحوي شيئاً من الطرائف نبعث بها الى أولئك الفتيان أهل هذه الولاية الذين يقيمون الآن في الخنادق في فرنسا .

فاشرت اشارة أريد بها أن اشرح اسفي اذ قطعت عليها سبيل العمل في مهمة مقدسة كتلك ، فقالت :

— كلا ، كلا . فقد انتهيت من العمل . ولم يبق غير خياطة هذه اللوحات الصغيرة حتى تثبت فوق الطرود . وتلك شغلة جني

الوصيفة .

ونادت الخادمة وهي تقول : احملي يا جني هذه الطرود من الحجرة ولا تدعيها ترسل الى البريد حتى اراجع قائمة المرسلة اليهم .

ومضت تعين الخادمة على رفـع تلك الصناديق ، وفي تلك اللحظة انتهزتُ فرصة انشغالها فجعلت اتأملها .

وقد ذكرت في تلك اللحظة تلك الصفحة البليغة الشائقة التي جعل مؤلف كتاب « حديقة برنيس » يصف فيها الألم الذي يجده الانسان اذ يرى الفتاة التي عرفها طفلة صغيرة في بواكر الشباب قد اصبحت امرأة ، ويشرح عذاب النفس الذي يثور في فؤاده اذ يحاول استثارة ذكرى ابتساماتها العذبـة وهي فتاة وحركاتها وسكناتها، ويترسم من جمالها وطلعة محياها وهي في الثلاثين طيش الفتاة في الثالثة عشرة وخفتها، وروعة تلك الطفولة الساذجة الحلوة الطاهرة .

أمام هذا المشهد الغريب ، وذلك التغير المدهش ، وقفت بي الذكرى !

وهجمت على ذهني كل تلك الخواطر العميقة الأثر في النفس ، حتى لقد احسست الدموع تريد أن تجول في عينيّ ويدىّ قـــد اخذتها رعدة .

ونظرت إلى يديّ انتيوب فسرني كذلك أن تينك اليدين الرخصتين الناعمتين كانتا ترتعشان فوق تلك الطرود الصغيرة .

وكان اكبر خوفي قبل لقائي اياها أن اجدها إذ أجدها فاترة العاطفة نحوي ، ولكن ما اسرع أن تبدد هذا الخوف الآن .

وبدأ الظلام يسود في الحجرة واشتد صوت زئير البحر .

وانصرفت الخادمة بالطرود وبقيت وحدي مع الكونتس دي كندال .

وراحت فجلست في المقعد المواجه للنافذة واعانني ذلك على أن أرى صفحة وجهها .

وكانت الاشعة الاخيرة من الضياء تلعب فوق شعرها .

لقد كانت فروعها السوداء هي بعينها التي كانت لها في طفولتها، ولكنها كانت تعقصها الآن .

وساد بيننا سكون .

وكانت انتيوب البادئة بالحديث .

وبدا لي صوتها أعذب من قبل وافتن اغاريد ، كأنما قد اختفت تلك الشيطانة الحلوة التي رأيتها في حمامات اكس !

قالت : انني سعيدة برؤيتك ثانية .

قلت : ألم تنسيني اذن ؟

ورأيت يديها قد احمرتا وهما مسندتان إلى المقعد ، واجابت بصوت بطيء ساكن : لو اننا كنا الآن في قصرنا بدانمور ، ولم نكن هنا في كندال لأريتك شيئاً .. شيئاً لا أزال احتفظ به . وقد وضعته في دولاب صغير من دواليبي التي احفظ فيها أعز شيء لديّ . ولكن ضلة لهذه النقلة من قصر إلى قصر . فقد تنسي في غالب الأحيان المرء أعز ما يحتفظ ، واغلى شيء يدخر .

قلت : أذلك شيء عزيز لديك ؟

قالت : نعم . قائمة اسماء احتوت هذه الكلمات : ف.جيرار –

فرنك واحد !

قلت : آه . الا تزالين تذكرين ذلك ؟ ..

فأجابت : أن تلك القطعة من النقود كانت جزءاًمن اكتتاب لأسرة فقيرة من القرويين في « ألصتر » كان صاحب المزرعة قـد طردهم منها وقد ارتحلوا إلى اميركا طلباً للرزق . وكنا قد جمعنا لها مائة جنيه . وقد بعثت الينا منذ ذلك العهد اكثر من الف في سبيل قضية ارلندة الحرة .

وأطرقت رأسها ، وعادت تقول : وأنت ساعدتنا أيضـــاً وكنت يومذاك في الحول الثالث عشر ، وها أنت فاعل من اجلنا اكثر مما فعلت واجدى !

قلت : اتذكرين البستان والبحيرة وقصر الازهار والنزهات التي مشينا اليها ، والخلوات التي بها نعمنا ؟

فبدا على وجهها أمارات الذهول ومضت تقول: وتلك السيدة ذات الثياب السود التي كانت تماشيك ألا تزال تعيش ؟

قلت : جدتي ؟ كلا . لقد ماتت !

قالت : آه !

وسكتنا لحظة .. ثم عدت أنا إلى الحديث ، فقلت :

ـ انني أذكر تلك القطعة الصغيرة من النقود التي أعطيتك إياها ، فهل تذكرين أنت ما أعطيتني يوم الوداع !

فسكتت ولم تجب .. لقد زالت تلك من ذاكرتها ! ..

قلت في لهجة إصرار وقلق : ألا تذكرين ؟

دتمتمت تقول كأنها تتنهد : لقد طـال العهد ، وتعـاقبت

سنون ، ومرّت أحداث ، ووقعت شؤون ! ..

قلت : ألا تذكرين صورة أعطيتنيها قبل أن يأذن بيننا البين ، وفي ظهر تلك الصورة كلمات طالما تراءت لي في أحلام الصبا .

قالت : آه ، تلك نبوءة دونيغال !

فأجبت : في ذلك العهد لم أكن أعرف سر هذه الكلمات ولم أكن أدرك لها معنى . ولكني منذ ذلك العهد عرفت وأدركت .. فأي قدر عجيب قدرك ، وأي مستقبل رائع مستقبلك ! لطالما أكبرت والله تلك الصدفة التي جعلتني منذ الطفولة صديق أنتيوب الصغيرة ! ..

نطقت بتلك الكلمة ، وكنت أغالب نفسي في قولها .

وقد كان يخيل إليّ إذ قلت تلك الكلمة ، أن الكونتس دي كندال ستنتهزها فتجيب على قولي : « أنتيوب .. هذا صحيح . لقد كنا ندعو بعضنا بعضاً باسمينا بلا كلفة ولا احتشام . فلنعد إلى عادتنا القديمة . ولنتنادَ كما كنا ... ! »

ولكني كنت على خطأ .

لم تلبث الكونتس أن أجابت بلهجة تدل على الحيطة :

– بل أنا التي أشعر بالزهو والخيلاء أن يكون لي في الطفولة صديق قد أصبح ما أصبحت أنت . وصار إلى ما صرت اليه . صديق ما تزال ارلندة مدينة له بالشيء الكثير ومنه ترتقب أكثر وأعظم .

وكان ذلك كل ما قالت .

وماذا كنت مستطيعاً أن أفعل أزاء كلمات الشكر، تلك التي قطعت بها الكونتس سبيل تلك العاطفة المتدفقة في فؤادي .

وآحر قلباه لذلك الصبي الذي كان يتنزه حول ضفاف البحيرة كيف زالت ذكراه واختفى أمام الاستاذ في جامعة فرنسا !..

وباه ، أليس ذلك عقاباً لي على اغتصابي اسم رجل عظيم لست منه شيئاً !

أليس خيراً لي لو انني اختفيت من الغداة، وعدت الى ماضيّ الحقير الضئيل ، وأقفلت أدراجي الى باريس ، وان كلفني ذلك أن أترك كندال ، وادع فيها الفؤاد .. !

في هـذه اللحظة عم الظلام الحجرة . ولكن لم يلبث أن نفذ الى الحجرة بغتة بصيص نور الشمس المحتضرة ، أشعة زرقـــاء مرتعشة لا تستقر .

وكأنما احست انتيوب خشية من أن ألمحهـا ، فتحركت في مجلسها تحاول أن تستجمع جلدها ، وترد على محياها وجهاً متكلفاً ونظرات هدوء وسكون جأش .

ولكني كنت قد لمحت شفتيها وهما متقلصتان .

الله لتلك المرأة كم تعذبت .

فكرت اذ ذاك في أبيها الشيخ وخطر لي أن هذه الحركة بعينها بدت على وجه الكونت دانتريم .

وللحال تولتني شفقة مزيجة بالاحترام لهـذين المخلوقين اللذين قدر لهما أن يحملا في فؤاديهما آلام عشرين جيلًا معذباً مظلوماً مضطهداً ، ويكونا قبلة آمالها وأمانيها المقدسة .

نبوءة دونيغال ! .. يا لها من نبوءة رائعة ! ..

في هذا الظلام لم نتكلم .

وآلمنا هذا السكون المخيم علينا في الحجرة وان لم يجترىء أحد منا على الخروج منه .

ومضت الدقائق بطيئة متمهلة متماوتة حتى لقد شعرت انني لم أحس من قبل بالزمن يكاد يقف . وخيل الي ان رقاص الساعة المسندة الى الجدار في هـذا الظلام قد راح يبطىء في اهتزازاته ورقصاته .

وكان لا بد من شيء يخرجنا عن هذا السكون الأليم وينفس عنا كربة هذا الموقف ، فلم يلبث أن وقع ما كنا نريد .

دق الباب ، وكانت الوصيفة هي القادمة ، فأشارت اليهـا انتيوب ، وللحال أضيئت الحجرة وسطعت نوراً .

وكانت الوصيفة تحمل كتاباً فوق صينية فدنت مــن الكونتس لتقدمه اليها ، وتناولت انتيوب الكتاب وفضت غلافه ومضت تتـلوه ، وقالت الوصيفة اذ ذاك : ان الرسول يرتقب الجواب .

ولم افارق النظر الى عيني انتيوب .

وبدأت القراءة وهي شاردة الخاطر ، وما كادت تمضي فيه اسطراً حتى علت وجهها دلائل الدهشة ، ثم لم تلبث أن استحالت تهكماً وابتسامة استهزاء .

قالت تسأل وصيفتها : هل رالف هو الذي احضر هــذا الكتاب ?

فأشارت الوصيفة اشارة ايجاب وقالت : انه في البهو الصغير فهل ادعوه ؟

فأجابتها انتيوب : بل تمهلي حتى اقول .

والتفتت نحوي قائلة :

– انك لم تضع وقتك سدى يا مسيو جيرار في هذا القصر . لقد فاتك أن تنبئني انك ما كدت تقيم يوماً أو بعض يوم في هذا البلد حتى ظهرت بأبدع ما يظهر الفارس الشهم أمام اجمل سيدة في الولاية كلها .

فأجبت في لهجة ارتباك : آه . إذن هذا الكتاب من اللادي اربيكل ؟

فقالت انتيوب بلهجة جفاء ادهشتني : نعم منها !

ووقفت عن الكلام لحظة ثم استطردت تقول : لقد كان الموعد بيننا أن اذهب غداً لتناول الشاي في قصر كلار لدى اللادي اربيكل ، وقد كتبت إليّ تذكرني اليوم بموعدي وتسألني أن استعلم منك اذا كنت تقبل الذهاب معي إلى القصر ، واليك ما كتبت : « لقد خدمني مسيو جيرار اعظم الخدمة اذ استوقف جوادي الشامس الذي اساء إليّ الادب » .

قلت : لقد فعلت ما لم يقع لي في بال ، بل لم أكن أعرف أن السيدة هى اللادي اربيكل ، فانها لم تعرفني بنفسها اذ ذاك .

فأجابت انتيوب : ولكنك عرفت اسمها منذ تلك الساعة فقد كنت انت الآن أول من ذكر اسمها .

فأطبقت شفتي الماً وابتسمت الكونتس ..

ومضت تسألني : هل أجيبها انك تقبلت الدعوة ؟

فأجبت بصوت جاف : لا أريد يا سيدتي أن أثقل عليك برفقتي .

قالت بصوت عذب : أتقبل ؟

وأشارت إلى الوصيفة اشارة فعادت وفي أثرها مسيو رالف .

قالت الكونتس : رالف . قل لخادم اللادي اربيكل انني لن أتأخر عن الحضور غداً إلى دعوتها وان الاستاذ جيرار سيسره ان يحضر كذلك .

فانحنى الوصيف وانصرف . ودقت الساعة سبعاً ، وتذكرت ان العشاء في الثامنة ، فقلت :

— هلا اذنتِ لي يا سيدتي في الانصراف ؟

فمدت إليّ يدها فلثمتُها ..

*

قالت انتيوب: لم يبق على وصولنا قصر كلار الا مسيرة ميل واحد ، وخير لنا أن نسرع الخطى حتى يتيسر لنا بلوغ القصر قبل أن يهطل المطر .

وكان المطر قد بدأ يسقط رذاذا ، وكانت السماء قبل خروجنا من القصر صحواً لا سحائب فيها حتى آثرنا أن نذهب الى مكان الدعوة على الأقدام ، ولكنها لم تلبث أن غامت وذهب صحوها .

فقالت انتيوب : لو اننا قدمنا على جوادين كما اقترحت عليك أمس، لكنا قد بلغنا الآن القصر،ولكن فكرتي لم تستطع ردك عن عزمك .

وأردفت ضاحكة : ألا تحب ركوب الجياد ؟

قلت أشرح السبب : أخشى ألا يكون من الحكمة ان أعالج ركوبها فانني لا أستطيع الصبر على هزات شديدة وذلك من أثر جرحي .

قالت انتيوب : آه . اذن جرحت في هذه الحرب ؟

قلت : نعم .

فأجابت : إذن اصفح عن كلمتي ..

قلت : لا أدري عن أي شيء اصفح ..

ولكنها قاطعتني قائلة : كلا . كلا . كان ينبغي لي أن أدرك ذلك .

وسكتنا لحظة ، ذلك السكون العذب الجميل الذي لا بد منه للنفس المفعمة بالعواطف .

وقالت انتيوب بعد أن مشينا قليلًا : لقد أوشكنا أن نصل. ها هو القصر يلوح للعين .

وفي الحق بدا ذلك القصر بحدائقه وبساتينه ، بيتاً منسقاً ضاحكاً ، رحيباً ، بل داراً فيحاء لا قصراً من تلك القصور الرهيبة المخيفة البناء العابسة المتجهمة .

وكانت الطريق التي انحدرنا فيها تؤدي إلى باب الحديقة ، وكنا منها غير بعيدين ،إذ ذاك أبطأت انتيوب في الخطى وابتسمت ثم قالت :

— لم نتكلم طول هذه النزهة إلا قليلًا ، ولم نتحدث البتة عن أصدقائنا الذين نسير إلى دعوتهم ، ولهذا ترتقب مني ولا ريب أن أحدثك طرفاً من أخبار هؤلاء الذين ستخطو عتبة بيتهم للمرة

الأولى ، ولكن من يدري لعلك ظفرت بهذه الأخبار من قبل نزهتنا هذه .

وتبين لي من حديثها أنها تحاول تهكماً بي ومزاحاً ، ولكن لهجتها كانت تمازجها عذوبة ساحرة ، حتى لقد ابتسمتُ سروراً ثم قلت : لقد أتيح لي ذلك بفضل ذكاء مسيو رالف وهو ألطف من رأيتُ وصيفاً .

فرفعت انتيوب عينيها إلى السماء في نظرة ذهول ، ثم عادت تقول : أتريد بذلك « ويليام » ما أطيبه خادماً . ولكنه ليس رجل نميمة ولا فضولياً فشّاء للأحاديث ، ألا تراه كذلك .

قلت : نعم . ليست تلك صناعته ، بل لم يقل لي شيئاً من تلقاء نفسه ، وإنما كان يجيب على أسئلتي ، فهو الذي عرفني باسم اللادي اربيكل ولم أكن أعلم به من قبل ، بل ظننتني قد لقيتك أنت .

في هذه المرة ضحكت ملء فؤادها ضحكة صريحة .

قالت : لست متأكدة انني جميلة كاللادي أربيكل !

فنظرت اليها ، ورأت هي في عيني ذلك الاستحسان الصامت البليغ ، فاحمرت خجلًا وكنت بخجلتها فرِحاً .

ورجعت إلى حديثها مسرعة فقالت : إنـــني قلقة لمعرفة ما قال لك الخادم ويليام عن عمر اللادي أربيكل ، فإنه لا يخفي سنها مطلقاً عن أحد يلقاه .

قلت : بالطبع لقد حدثني عن عمرهـا ... هي في الخـامسة والاربعين !

قالت ضاحكة : نعم ، أنها تناهز تلك السن .

ووقفت عند سياج على الطريق وشدت اليها غصناً شائكاً من شجرة التوت، واقتطفت زهرة بيضاء ، وسألتني دون أن تلتفت إليّ : أهذا كل ما نبأك به ويليام ؟

قلت : لقد حدثني أيضاً أحاديث أخرى عن الاشاعات الدائرة على ألسنة سكان هذه الولاية عن ثروة اللورد أربيكل .

وعادت تسأل : ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

قلت وأنا أزن كلماتي : لقد تبين لي أن ويليام خادم أمين بل أشد الخدم إخلاصاً لسادته !

فقالت : ثم ماذا ؟

فأجبت : إذا كنت قد عرفت أشياء أخرى ، وبلغتني عنك بعض الاشاعات فلم يكن ويليام هو الذي حدثني عنها .

فقالت بلهجة زهو وشمم : إشاعات عني أنا ؟ عن أي شيء تريد تلميحاً ؟

قلت متلطفاً : عن مشروع زواج بينك وبين اللورد أربيكل .

فضجت ضاحكة ، وظلت تمسك بين أناملها غصن التوت وهي لا تلتفت ناحيتي ، وأخيراً قالت :

– أية أنباء غريبة أصبت .. لله هذا الفتى المسكين ريجنالد . ولكن هل تدري أن بيني وبينه من العمر الفرق عينه الذي بيني وبين اللادي فلورا والدته . لقد كان في استطاعة خادمك ويليام أن يذكر لك ذلك !

قلت ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي خاطبتها في ذلك اليوم بلهجة المحتفل المتكلف المتأدب : سيدتي . اسمحي لي أن

أكرر على مسمعك أن ويليام ليس له شأن في هذه الاحاديث .

ومضيت أقص عليها ما وقع في الخان الذي على الطريق عند قدومنا . وكانت تصغي إلى حديثي بانتباه تام،فلما انتهيت قالت :

— لا يستطيع الانسان أن يمنع الناس من الكلام ، ولكنك لا تدري أن ما حدثتني به لم يكن إلا حديث خرافة . الله لذلك الفتى ريجنالد ، ولكنك لا تدرك . ولا تستطيع أن تدرك إلا إذا رأيته رأي العين ...

ثم تمهلت ووضعت يدها فوق ذراعي وقالت : انظر . ها هو القادم للقائنا ..

*

وكان في الحق يدنو صوبنا فتى في ثياب زاهية اللون ، وكان حاسر الرأس بـلا قبعة حتى ليبدو شعره الغزير الاصفر مرسلًا متدلياً .

وكان يتراقص في مشيته عجباً وخيلاء ، وتذكرت ذلـك الوجه الذي رأيته منذ يومين في السيارة .

وما كاد يقترب منا حتى أرسل صرخة كالطفل ، صرخة فرحة متهللة كأنما قد مضت أعوام عليه لم ير فيها الكونتس دي كندال ، وقال :

— آه . انتيوب . انتيوب العزيزة . ما أرق هذا منك . ان « ماما » ستكون سعيدة بزيارتك .

قال هذه الكلمة « ماما » كالاطفال ، ولا أدري لماذا كانت لهذه اللفظة تلك العذوبة الساحرة التي رأيتها على شفتيه الورديتين

أشبه بشفتيْ امه اللادي فلورا .

وشد على يد انتيوب وهو يدنيها ناحية قلبه ، ولكنه لم يلبث أن اجفل بغتة من ثورة عاطفته ، وتحول فرحه الى خوف وحياء وقال : يا لله . ألا معذرة يا سيدي الاستاذ . وأنت يا عزيزتي انتيوب . هلا تكرمت بتقديمي الى سيدي الاستاذ جيرار !

ففعلت انتيوب كما قال .

وطفق هو يستشفع ويعتذر بلغة أدب متناهٍ ، فقال :

– كم أنا معجب فخور يا سيدي الاستاذ ، وانني لواثق من انك ستتفضل عليّ بأن تأذن لي في أن أناديك من الآن « يا سيدي العزيز » فقط . نعم ، كم أنا معجب فخور بتعرفي اليك . ولقد بلغ اعجابي بمؤلفاتك كل مبلغ . ونحن هنا في دار ريفية . ولكن في انكلترة ، في مكتبة دارنا في شلسي ، ترى كل كتبك في خزانتي ، نعم جميع كتبك .

ومضى يتلو عليّ قائمة من ذاكرته بأسماء المؤلفات والكتب التي يشير اليها تكاد تكون تامة كاملة .

قلت لنفسي : حسن جداً . انني أستدل من هذا على انه ليس لديه صورتي الفتوغرافية .

ولم يسكت عن الكلام بل طفق يكرر قوله : كم أنا معجب وفخور بك .. ليتك تدرك مقدار اعجابي وزهوي بمعرفتك ..

فقالت انتيوب ضاحكة : الى هنا أمسك عليك القول يا ريجنالد . انك ستوقع مسيو جيرار في الحيرة والارتباك لأنه أشد العلماء تواضعاً .

وأخذت ذراعه في ذراعها وراحت تسأله : وكيف صحة اللادي فلورا ؟

فأجاب : أتم صحة يا عزيزتي انتيوب . وانها لقلقة ترتقب وصولك .

فقالت الكونتس : لم تبق إلا دقائق قلائل فنكون لديها .

وظلت تمشي مستندة إلى ذراع الفتى، بلا تكلف أو احتشام، فلما التقت نظراتنا ، رأيت في عينيها ظل نظرة هازئة ضاحكة ، كأنما تقول لي « هل فهمت الآن ؟ » .. ولكني لم أفهم شيئاً مطلقاً ، بل وجدت اللورد ريجنالد فاتناً جميلًا يقطر ملاحة ، وبدأت أشعر من نحوه بعاطفة مؤلمة ..

*

لما قلت لأنتيوب ونحن نسير إلى قصر كلار « الاشاعات الدائرة على ألسنة سكان هذه الولاية عن ثروة اللورد أربيكل » كنت مبالغاً في هذا التعبير، وقد تعمدت هذه المبالغة في الوصف، أملًا مني أن تثير هذه المبالغة عواطف الكونتس دي كندال فتتكلم وتتوسع في القول والشرح ولكنها لم تحفل بكلمتي تلك ، ولم تهتم لها ، كأنما لم تطرق سمعها ، فبقيت جاهلًا حقيقة العلاقة التي بين أنتيوب والفتى اللورد ، ولم أكن أعلم من أمرهما أكثر مما سمعت من الخادم ويليام ومن الحادث الذي وقع في الخان ، ومما حدثني به الحوذي جوزف .

وقد عرفت كذلك أن اللورد أربيكل الكبير والد ريجنالد لم يكن من الاشراف الذين ورثوا هـذا اللقب كابراً عن كابر ،

بل كان عصامياً أحرزه بجهده وفضله . وقبل أن يكون له قصر كلار في ارلندة ، وقصر بولسيفر في ايقوسيا ، وقصر شلسي في انكلترة ، كان الرجل في مبدأ أمره مُعدّنا في مناجم الغال ، ثم انحدر إلى الترنسفال ، ومنها انكفأ إلى الهند يتاجر في الحبوب والغلال ، وكذلك جعل ينمي ثراءه ، ويكثر من أمواله بفضل الوسائل التي يجدها أحد أفراد الامبراطورية الانكليزية في مستعمراتها المتعددة .

ومات هذا الرجل الدؤوب العصامي قتيلًا منذ اثني عشر عاماً ووجدوا جثته ولا تزال تجري فيها حرارة الدم ، ملقاة في ثغرة في غابة هناك على مسافة ميل من قصر كلار .

وقد ألقيت التهمة على رجل قروي كان قبل مقتل اللورد هدده بكلمات شديدة إذ كان طرد من المزرعة ، ولكن التهمة لم تثبت على الرجل فأطلق سراحه .

وأما اللادي أربيكل .. ؟

في الحق لم أعلم عنها شيئاً ، إلا أنها كانت من أصل شريف ، وأنها من سلالة اللورد سومرفيل . ولكن يلوح لي أن أسرتها لم تكن على ثروة عظيمة ، وانها كانت دون هذا المـُعْدّن العصامي في الثراء ، وإلا لما اضطرت إلى أن تزوج الفتاة فلورا بهذا الرجل الذي ورث الشرف بعصاميته .

*

وكنا قد بلغنا باحة القصر ، فقالت أنتيوب :

ـ اني لأحسدك على انك لم ترَ ما أنت رائيه الآن فليس

أطرف للعين ، ولا أجمل للخاطر من قصر كلار . ولشد ما سيبدو لك قصرنا محزناً مظلماً صامتاً رهيباً عند العودة . نعم ، لا تحتج ولا تحاول دفاعاً . بل انتظر حتى ترى بعينك .

وإذ ذاك مضت تسند كل بدنها إلى ذراع ريجنالد وقالت :

— والفضل في ذلك كله إلى هذا الطفل ، فهو الذي نظم القصر وهيأ الحدائق ، ونسق كل شيء ، فهو لطيف الذوق بقدر ما هو جميل الطلعة .

فتمتم الفتى وهو يبتسم ابتسامة يمازجها الاستياء والاعجاب :

— انتيوب ، عزيزتي انتيوب . لا تتكلمي . فانك لا تطاقين !

ولكنها تابعت حديثها فقالت : كلا . انني أقول الحق . نعم يا مسيو جيرار . لقد جمع إلى جمال المحيا لطف الذوق ، وإنما له آراء سياسية شريرة فاسدة ، فهو فوضويّ وثوريّ ومتطرف ، ولا أدري أيضاً ماذا من الألقاب ألقبه به . علامَ تقرص ذراعي يا ريجنالد فان أردت انكاراً فاقسم انك لست بالثوريّ !

فضج الفتى ضاحكاً وهو يقول : لك الله يا انتيوب ، انك لمضحكة ، وهي يا سيدي العزيز أتدري من هي . انها تنتسب الى عدة جمعيات سرية ، إلى جمعيات لا غرض لها إلا طرد الانكليز من ارلندة . وقد كتب اسمها في نبوءة جعلتها أشبه بجان دارك الارلندية . فان أردت أنت الأخرى انكاراً يا انتيوب فاقسمي أنك لست كذلك ..

وقالت انتيوب : بل هو الحق . كل ما فهت به حق ، وسيأتي يوم قريب أدخل فيه هذا القصر الذي سندخله الآن ، وأنا أحمل مشعلاً

في يدي وسيفاً في نطاقي،ولكن على الرغم مما ترى بيننا يا مسيو جيرار من شجار وجـدل ، لا نزال صديقين ، نعم صديقين على أحسن ما يكون الود .

قالت ذلك، ولاطفت بيدها وجنة الفتى ، وضحكت ضحكة عالية .

قلت في نفسي : لا بد من أن يكون وراء هـــذا الفرح المتكلف والدعابة المصطنعة سر غريب .

وكأنما لحظت انتيوب جزعي وحيرتي، فغيرت لهجتها،وقالت بصوت جاف : هيا بنا ندخل، وحسبنا حماقة وطيشاً . إذ لا يحسن أن ندع والدتك في ألم الانتظار .

*

في الدهليز الرحيب الذي نفذنا فيـه ، لم أرَ صوراً من صور أفراد الأسرة ، فتبين لي أن سلالة اربيكل لم تكن غنية بصور العظماء ، إذ كان الرجل من عامة الشعب .

وانطلقنا منه إلى بهو فسيـح ، بين ترف وروعة ، وجمـــال رياش . ووقف ريجنالد أمام أستار فخمة فأزاحها عن باب جميل وهو يصيح : « ماما .. ها نحن قد وصلنا » !

وأشار الينا بالدخول .

وكانت اللادي متكئة فوق ايوان منخفض ذي طلاء احمر وخيوط مذهبة يعلوه ستر من الحرير الاسود، وكانت تدخن سيجارة، فلما رأتنا ألقتها من يدها في حُق اسود ، وقبلت انتيوب في جبينها واجلستها بجانبها فوق الايوان .

والتفتت اليّ وقالت : آه مسيو جيرار ، هازم الجياد الثائرة الجامحة ، ما اكرم شعورك اذ اجبت دعوتي !

وابتسمت وسطعت ذراعها العارية وهي مسندة الى الايوان الاسود :

ودارت بعينها الى ريجنالد وقالت : ريجنالد، ها أناقد جلست ولست اريد تحركا من مجلسي فهلم افعل فعل الفتاة الوصيفة وطف علينا بالشاي .

وبخفة الصبيان وثب الفتى ريجنالد الى مائدة هناك وضعت عليها معدات الشاي وألوان اخرى من الشراب .

وصبت انتيوب في قدحها شاياً، وتناول منه هو أيضاً قدحاً، أما أنا فآثرت قدحاً من « البورتو » واقتدت بي اللادي فلورا .

ودنا اللورد ريجنالد من مجلسي فاتخذ مجلسه عند قدميّ فوق البساط ، وطفق يعاكس كلباً صغيراً من الكلاب التي توضع في قاعات الاستقبال .

واذ ذاك قالت والدته بصوت الآمر وان كانلا أمر فيه ولا لهجة السلطة : ريجنالد . حسبك . دع « ارما » ساكنة هادئة .

وانتهزتُ فرصة انشغال اللادي فلورا بقدح الشراب تحسو منه قليلًا قليلًا ، وبسيجارة ترسل منها ذوائب من الدخان ، وبحديث جعلت تتبادله بصوت خافت مع انتيوب ، لكي اتأمل وجه اللادي .

ولا حاجة بي ان انكر أن التأثير الذي احدثته في فؤادي كان عميقاً .

كانت في ثوب من القطيفة الحمراء وقد عقصت شعرها الاصفر حتى بدا جيدها الفاتن عارياً ، اشبه شيء بعنق فتاة حدثة .. وكانت عارية الصدر ، في ثياب قوْراء ، وكان لا بد لي أن القي نظرة الى الفتى الذي جلس عند قدميّ حتى اتذكر عمر هذه المرأة ولن استطيع مع ذلك أن اصل الى تقدير صحيح عنه ، وقد ذكرت اذ ذاك ما قال الخادم ويليام « ان هـذه المدهشات لا تصدق حتى تُرى رأي العين » وقد ضل ويليام واخطأ ، فأنها لا تصدق حتى وان رؤيت !

من عنقها وذراعيها العاريتين ، تحولت عيناي الى خصرها ، وقـد شدته بنطاق اسود اللون لم تحكمه ولم تضيقه ، وكانت احدى ساقيها وهي في جورب من الحرير المذهب ، قد انحسر عنها الثوب فبدت ركبتها مستديرة شفافة من خلال الغلالة الرقيقة التي كانت تعلوه .

لم أستطع أن أرى أكثر مما رأيت .

فالتفتت عيني فالتقت بنظرات أنتيوب فرأيت نظرة جافة هازئة حتى لقد تولتني رعدة .

وبدأت الحديث بشكر اللورد أربيكل على حسن ذوقه في تنسيق القصر .

فنظر إليّ نظرة شكر وقال : أنك لرقيق الفؤاد يا سيدي العزيز !

وقالت اللادي فلورا : لقد نجح في هذا التنسيق ولا ريب !

وقال ريجنالد : لا يمكن أن يقال عن آرائك انها جميلة طيبة

إلا إذا وجدتَ من يأخذها عنك ، انك تعرف يا مسيو جيرار السير فيليب ساسون ولا ريب .

قلت : لم يكن لي هذا الشرف .

فقال الفتى : أحقاً ؟ .. ان هـــذا لغريب ، فإن اسم السير فيليب ذائع في المجتمعات العلمية . ولكن ما علينا . ان السير فيليب رجل مهذب مكتمل الأدب غير منازع . ولكنه من نحوي لم يكن طيباً ولا مهذباً .

فانبرت أمه تقول : ريجنالد . لا تقل هذه السخافـات . ان السير فيليب صديق لنا حميم .

فأجاب الفتى : انني اتخذ مسيو جيرار حَكَـماً بيننا يا أماه . فاستمع الي يا سيدي : ان للسير فيليب في « هايث » داراً فخمة بناها المهندس الذي بنى هذه ، واتفق ذات يوم ان حضر السير فيليب إلى منزلنا هذا فطفت معه في منافس القصر أريه ما صنعت من زينة وتنسيق. ومن تلك اللحظة لا تستطيعين يا ماما أن تقولي إن سلوكه كان محموداً .

فهزت اللادي فلورا كتفيها الجميلتين واستطرد الفتى في حديثه يقول : « لتضحكي يا مامـــا كما تشائين ، وأنت يا مسيو جيرار أرجو أن تستمع إلى قولي. في قصر السير فيليب « بهايث » حجرة سأريك إياها الساعة . هي الحجرة المسماة « كلوفيس هيو »

قلت في دهشة : كلوفيس هيو ؟

فأجاب : نعم ، يا سيدي العزيز . لقد عمد السير فيليب إلى تقليدها . نعم . صنع مثلها . استلب مني هذا النظام الذي نسقته

وتعبت فيه. وهناك شيء آخر . ماما ، لا تهزي كتفيك استهزاء فانك تعرفين ان ما أقول هو الحقيقة بعينها . هناك شيء آخر . في قصر السير فيليب « بهايث » حجرة البليارد الآن فهل تعرف ماذا حدث . ان تلك الحجرة صورة طبق الاصل من حجرتي التي في هذا القصر . الحجرة التي سميتها « رافين دوجنس » .

فقلت : رافين دوجنس !

فرفعت اللادي عينيها وقالت : ألا ترى يا ريجنالد . أن جيرار رجل حساس رقيق الشعور فسله رأيـــه في غرابة أطوارك هذه . كيف لعمري عمدت إلى تسمية الحجرات بأسماء كهذه ؟ فاحمر وجه الفتى خجلًا وقال : انني واثق من أن مسيو جـــيرار سيرى رأيي يا ماما في أننا لن نجد بعد اليوم فرصاً سانحة لاظهار اكبارنا واحترامنا لرجال كانوا يوماً قادة الانسانية وزعماءها . فلا غرو أن أسمي حجرات قصرنا بأسمائهم تخليداً لذكراهم .

وقالت اللادي فلورا في أثره : لو كنت ثابتاً في فكرتك لكان ذلك جميلًا منك . ولكني اتخذ الآن مسيو جيرار حكماً بيننا ، ان البهو الذي دخلت منه يا سيدي الاستاذ كان يسمى من قبل « هندرسن » وحجرتي الخاصة « فندربلت » وهذه الغرفة التي نحن جلوس فيها « البرت توماس » ولكن منذ نشبت الحرب ، اضطر إلى تغيير كل هذه الأسماء فأصبح اسم البهو « كومبير بوريل » وهذه الغرفة « مارك سانغنيه » وحجرتي الخاصة «حجرة كروبوتكين » فان هـــذا التغيير يحدث ارتباكاً في أذهان الوصائف والخدم ..

وكانت انتيوب صامتة طول هذا الحديث ، وقد وقفت ازاء نافذة في الحجرة تنقر بأناملها فوق زجاجها ، وخلف تلك النافذة كانت الحديقة تبدو مختفية رويداً في فحمة الليل .

فوثب الفتى ريجنالد من مكانه اليها وثبة الفهد وأمسك بذراعها وقال بصيحة : ما بالك أيتها الساحرة الجميلة ، ألا تزالين تفكرين في الرابع والعشرين من شهر نيسان ؟

قالت : ماذا ؟

فأجاب الفتى : ايه . تحقيق نبوءة دونيغال .. أليس ذلك الموعد هو اليوم الذي تريدين فيه أن تقذفي بنا إلى البحر .

قالت بصوت خافت : نعم هو .

فأجاب الفتى وهو ينظر إليّ ، وقد أغضبه استهزاء انتيوب به : أتقولين نعم . ألا تسمع يا مسيو جيرار . لا تعتقد أن تلك دعابة نتمازح بها بل انها لتجدّ في قولها . وأنت يا سيدي الاستاذ المطلع على شؤون ارلندة ألا تتفضل عليّ بشرحها فانني لا أزال أبداً أسائل نفسي هل سيُقدر لي يوماً ادراك معناها . فماذا يريد حقاً الارلنديون وماذا يطلبون ؟ أنظاماً جديداً في القضاء أصلح من نظامهم الحاضر ؟ أمعاهد ومدارس للعلم يبتغون ؟ أقانوناً للضرائب خيراً من هذا ؟ أمستشفيات ومستوصفات وملاجىء ؟ فليتكلموا وليطلبوا فاننا لا نسأل شيئاً أكثر من ارضائهم .

فلم أجب، فقال الفتى : ألا ترين يا انتيوب . وأنت .. ألست مسرورة بحالتك ؟

فأجابت انتيوب : أما عن نفسي فنعم .

قال : وأما عن الآخرين ؟

قالت : وأما عن الآخرين ...

وفي هـذه اللحظة توسطت اللادي فلورا في الحديث وقطعت سبيل هذا الجدل قائلة :

— رباه . ان الخوف ليتولاني من امثال هذه المناقشات ، يا لكما من طفلين . انهما لا يستطيعان يا مسيو جيرار الصبر دقيقتين دون أن يتكلما في السيـاسة ، فماذا لعمري يكون الحال لو لم يكن معهما أناس آخرون يمنعونهما من الاسترسال في مثل هـذا الجدل ؟

وكانت الظلمة قـد سادت في الحجرة ، فلم استطع أن أتبين وجه انتيوب أو أرى طلعة الفتى ريجنالد . ولكني استطعت ان ألحظ وجه اللادي فلورا اذ كانت مقابلة للنافذة .

قالت ذلك وألقت نحوي ابتسامة المستفسر ، وعـاد اللورد ريجنالد يلح على انتيوب بأسئلته ، فقال :

— لم تجيبي يا انتيوب على سؤالي . أليس الرابع والعشرون من نيسان عيد ميلادك ، وموعد وقوع نبوءة دونيغال ؟

فقالت انتيوب ببرود : انك تعلم ذلك كما اعلمه .

فتهلل محيا الفتى ومضى يقول : حسناً جداً ، ان لديّ يا ماما رأياً حسناً ، مزحة اريد ان اقدمها لانتيوب ، ان اليوم الثالث والعشرين من هذا الشهر سيصادف يوم عيد الفصح وسنقيم نحن في المساء حفلة كبرى تذكاراً لعيد ميلادها ، فينبغي ان تحضر تلك الحفلة وان تمكث حتى ينبثق فجر الرابـع والعشرين من الشهر ،

وسنرقص ونلهو كما نشاء ، وأود أن تتفضلي بافتتاح المقصف مع صديقي الكولونيل هارتفيلد قائد الحـــامية في هذه الولاية ، فهو الذي سيكون من واجبه اذا الثورة وقعت أن يلقي عليك القبض .

وما كاد ينتهي الفتى من قوله حتى صفق بيديه وقد أدرك انه رمى انتيوب بمزحة قاسية ، ثم عاد يقول :

– فهل تقبلين الدعوة يا انتيوب ؟

وخشيت اللادي اربيكل من هذه الخاتمة التي أدى اليها الجدل ، فقالت لابنها : سكوتاً يا ريجنالد ، دعك من هذا.

ولكنه أصر على أن يتابع حديثه فقال :

– أتقبلين ؟ موعدنا الحادية عشرة مساء من الثالث والعشرين من هذا الشهر ، وسأدعو جميع اصدقائنا في الولاية . وستكون وليمة عشاء .

فأجابت انتيوب بسكون : واذا كان لدينا اضياف في قصرنا بكندال فهل تتقبل أن اجيء بهم معي . لأنك تعلم ولا ريب انني لا ارفض الدعوة .

فلما سمع الفتى ذلك صاح متهللًا : مرحى . مرحى . وبالطبع سيكون مسيو جيرار من اضيافنا في تلك الليلة .

وقالت اللادي فلورا : وستكون فرصة أخرى لرؤيـــة الاستاذ .

وفي تلك اللحظة ، بـدا من النافذة نور مصبـاحين بعيدين يدنوان من القصر ، فدنا ريجنالد من النافذة ليستطلع الخبر .

وما لبث أن عاد عن الشرفة يقول: هذه مركبة من مركباتكم يا أنتيوب ورالف يجلس منها مجلس السائق . انه جاء ليذهب بكما إلى القصر .

وقالت اللادي فلورا : لم أجد في الخدم خادماً أكثر إخلاصاً من رالف هذا .

وأدارت في الجدار زراً فاضيئت الحجرة، ونهضنا من مجلسنا، وتقدمت أنتيوب واللورد أربيكل يسيران إلى البهو ، وقفت أنا لحظة واللادي فلورا وقد أسندت ذراعها اليسرى إلى البـــاب ووضعت رأسها الجميل فوق أحد مصراعيه وكنت منها قريباً ، بل كدت ألامسها .

قالت : أشكر لك زورتك .

فسكت ولم أجب ، وأردفت هي تقول : ارجو أن تعود إلى زيارتنا .

ولما لم أجب أيضاً عادت تقول : ألا عد إلى رؤيتنا إذا أذنوا لك .

فأمسكت بيدها وقلت بصوت خافت : إذن غداً .

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت : أتقول غداً ؟ إنني سأكون غداً وحدي فإن ريجنالد ذاهب إلى ترالي ، للقـــاء صديقه الكولونيل هارتفيلد.. ولكن مهما كان الأمر. لمَ لا تحضر . ألا تعال غداً إذا لم تخش أن يؤلموك لقدومك . وسأرتقب حضورك للعشاء منتصف الثامنة .

وكنا نتبادل هذه الكلمات بصوت منخفض وبسرعة شديدة،

وكنا قد وافينا أنتيوب وهي تهم بلبس قبعتها .

وسارت بنا المركبة مسافة طويلة في طريقها إلى كندال دون أن نتكلم ، وإذ ذاك بدأت أنتيوب تنادي السائـــق ، فخفف رالف سرعة المركبة .

قالت أنتيوب : رالف . لقد كلمت اللادي أربيكل وقد رضيت أن تبعث إلى مسجلها أمراً بأن يمهل « توم لالى » مهلة أخرى ولن يدفع القسط المستحق عليه إلا في شهر ايلول وحتى يجين ذلك الشهر ستحدث أحداث ، وتتغير الحال .

وسكتت لحظة ثم رجعت إلى الحديث فقالت : وقد حُفظت القضية التي أقيمت على العجوز « مادج » التي قبض عليها وهي تجمع الاحطاب من الحديقة .. ألا نبىء هذين المخلوقـــين المسكينين بنتيجة أمرهما .

فأحنى الوصيف رأسه إيجاباً وألهب الجياد ..

وبعد لحظات سكون قالت الكونتس تسأل وصيفها :

— هل ذهبت إلى ترالي يا رالف ؟

فأجاب الرجل : نعم ، يا صاحبة السمو . لقد ذهبت الى ترالي لكي أشهد المتطوعين من أهل الولاية ، ولأحدد الموعد لتدريبهم على الحركات العسكرية وعلى إطلاق النار .

فقالت انتيوب : أكل شيء على أحسن الأهبة ؟

فأجاب رالف : نعم يا صاحبة السمو . وفي طريقي راجعاً من ترالي خطر لي ان صاحبة السمو لا بد من أن تكون في قصر كلار ، ولما كنت أعلم ان ليس لديهم غـير السيارات للركوب ، جئت

لأقِلّ صاحبة السمو في المركبة لأنني أعلم كراهيتها للسيارات ..

قالت الكونتس : شكراً يا رالف .

وانتهى الحديث .

ووصلنا القصر والظلام قد ساد وأسدل استاره ، فذهبت إلى حجرتي ولم نتبادل أنا وانتيوب لفظة واحدة .

حجرة كوروبتكين

خُيّل إليّ انني سمعت دقات الساعة . .

وقد أخذ هذا الوهم ينمو في ذهني وأنا بين المنام واليقظة ، أتململ في فراشي ، حتى أوحى إليّ بالنهوض . فقمت وأنا لا أزال في غشية النوم أمشي في الحجرة ولا أكاد أتبين مواقع قدميّ ، حتى لقد اصطدمت بقطع من رياش الحجرة .

تقدمت صوب الموقدة، وكان هناك في المرجل قطع من الفحم كادت تنطفىء ولكنها كانت ترسل نوراً أحمر راقصاً يهتز اهتزازاً متقطعاً . وعلى بصيص ذلك الضوء استطعت أن أقرأ الساعة المعلقة فوق الجدار : لقد كانت الساعة الثانية وخمس دقائق .

وعلى مائدة صغيرة هناك كدت أسقطها من خطواتي المضطربة تبينت طرائف من الزجاج وأشياء أخرى من الفضة .

رأيت عشاء مهيأ فوق المائدة ، وفي وعاء كبير رأيت عنق زجاجة من الشمبانيا ، عنقاً أحمر مذهباً يطل من ذلك الوعاء . وفي الحجرة أشياء أخرى في كل جانب لم أكن لمحتها عند دخولي منذ ثلاث ساعات .

وفي هذه البرهة اتقد الفحم في الموقدة كما تلتهب الشمعة قبل الانطفاء فأضيئت الحجرة، وإذا بي أسمع ورائي ضجة ضحكة عالية.

وسمعت اللادي فلورا تقول : آه يا عزيزي ، لا أظنك ستبقى في ثوبك هذا . انني لم أشأ أن أعود للبحث عنك حتى تكون قد ارتديت أثوابك الخارجية .

فأبديت إشارة مضحكة أشرح بها ارتباكي.

فضحكت اللادي فلورا ضحكة أعلى من تلك وقالت :

– مُتعب لي في الحقيقة . تقدم وافتح هذا الباب وادخل ترَ أرديتي الداخلية معلقة في الحجرة فاختر لك رداء منها ولكن اجتهد ألا تسقط الأردية الاخرى على الارض .

فأطعت ، دخلت الحجرة وكان الظلام دامساً ، فتحسست الجدران ولم ألبث أن لمست يدي أثواباً من الحرير والقطيفة ، وقد عبق في الحجرة أريج تلك الأثواب المنشودة ، فأزحت معطفاً عن المِشجَب ، وكان كمّ المعطف واسعاً فضفاضاً فلم أجد تعباً في ادخال ذراعي فيه ورأيت نطاقاً من الحرير معلقاً فتمنطقت به ، وخرجت من الحجرة .

وكانت اللادي فلورا إذ ذاك بجانب الموقدة وقد جلست على اديم الحجرة وشبكت يديها فوق ركبتها وأشعلت سيجارة وأخذت تدخن ، وكانت مشتملة في ثوب أسود من أثواب النوم ، فلما رأتني مرتدياً بثوبها هتفت فرحة ضاحكة لا حدّ لسرورها.

وانثنت تقول : واهاً لك يا عزيزي ما أجملك في هذا المظهر وما ألطفك . تقدم حتى أعجب بك قليلًا !

ففعلت .. وجعلت تقول وهي تفحصني : ان لك لذوقاً بديعاً ، أم هذه صدفة واتفاق . فلقد وقعت على أنضر أثوابي وأحبها إلى نفسي ، وأزهاها لوناً وأبدعها . أتعرف ذلك . ان هذا المعطف يسمّى لديّ معطف « نسكاما كي ... »

وفي الحق كنت مرتدياً بثوب ياباني أحمر مزركش بالذهب قد رسمت فوق ظهارته أزهار الأقحوان والزنبق وأشكال جنود من الفرسان . وكانت ذراعاي تبدوان عاريتين من الثوب لاتساع الكمّين ، وكتفاي قد بلغتا فتحة الرقبة .

وجعلت اللادي فلورا تكرر قولها : انك جميل جداً في هذا الثوب ، ولكن لا ينبغي أن يدعوك هذا الى التكبر عليّ والزهو أفلا تأتي لتجلس بجانبي أمام الموقدة.

وضحكت ضحكة عذبة ساحرة وقالت :

— ما اسم مدير جامعة فرنسا ؟

— اسمه مسيو موريس كروازيه .

قالت ضاحكة : انني لأتنازل عن خاتم من خواتمي لا يهمني أيها ، في سبيل أن أرى وجه مديركم مسيو موريس كروازيه اذا رآك وانت على هذه الصورة ؟

فقطبت حاجبي ، وقالت اللادي فلورا : يا إلهي ، دع هذه السحنة المقلوبة ، ولو كانت هنا انتيوب لرأت رأيي . ولكن يا للحماقة ، لم يكن يحق لي أن اذكرها الآن ..

فكدت اظهر استيائي من كلمتها ولكني تمالكت نفسي اذ شعرت بأن أية حركة مني ستبدو قحة أمام هذه المرأة الجميلة في

ثوب النوم الحريري الاسود ، ولكنها كانت قد لمحت تحفزي فقالت وهي تضحك ضحكة هازئـة : لا أريد أن اكون طائشة ..

وأردت أن اهاجمها ، فقلت متكلفاً الهدوء التام : لقد نبئت بأن الكونتس دي كندال ستتزوج باللورد ريجنالد .

فهزت اللادي فلورا كتفيها وقالت : لا تحفل بهذا . ليس ريجنالد بالفتى الغيور !

وضحكت .. فنظرت اليها نظرة طويلة فلم تتحرك ولم تجفل ..

وفي تلك اللحظة نهضت واثبة من مجلسها بخفة ورشاقة ووقفت ثم امالت رأسها وشبكت ذراعيها وتمطّت مستسلمة متراخية .

وتثاءبت ثم قالت « أشعر بجوع » وألقت نظرة على المائدة الصغيرة وصفقت بيديها وصاحت :

– يا لله . حجلة وكبد أوز وفاكهة . في هذا كفاية !

فنظرت أنا كذلك الى المائدة ، فتبين لي أنها هيئت من قبل لعشاء اثنين .

عند ذلك احسست اشمئزازاً في اعماق نفسي لهذا العمل .

تذكرت أن اللادي فلورا لم تتركني في تلك المقابـلة لحظة واحدة لتصدر الى خدمها أمراً ، فلاح لي من ذلك أنها فكرت في الامر من قبل ، وأنها أعدّت العُدّة لأتعشى معها في خلوة .

وجعلت أقول لنفسي : « على أية حال انني لأحمق اذا حاولت ان أفسد هذه الخلوة الجميلة بالاحتجاج . فلننعم بالساعة التي نحن فيها ، وانها لساعة عذبة معسولة » .

ولم ألبث أنْ قرنت القول بالفعل ..

وكانت اللادي فلورا في تلك اللحظة واقفة وقد ولتني ظهرها وراحت تقطع الحجلة بسكينها ..

فأخذتها في ذراعيْ ..!

فارتعدت واهتزت السكين في يدها ثم تخلصت من ذراعيّ ضاحكة ..

وانثنت تقول : يا لك من جبان ! هل أرعبتك السكين ؟ لقد كدت أقطع اصبعي ، ثم ها أنت ترتعب وترتجف ، ألا أنظر إلى هذه البقع التي لوثت كم ثوبك الجميل ..

ولما لم أجب عادت تقول : إذا كنت تود أن تظهر نشاطك فلا تتكدر .

وأشارت إلى وعاء الفضة الذي يحتوي زجاجة الشمبانيا ثم قالت :

– وهاك المفتح ، هلم اشرب واطرب .

وصفّت فوق غطاء أمام الموقدة صحافاً ومناشف وقالت :

– لنتعش ونحن جالسان على الارض فان ذلك فكه وأبعث على السرور .

وكان بجانب وعاء الفضة سلة من القش الرقيق ، قد اضطجعت فيها زجاجة ، وأشارت إليّ اللادي فلورا أن أرفعها من السلة ، قالت :

– ضع هذه السلة بجانب الموقدة ، ثم هل قرأت الورقة الموضوعة على الزجاجة ؟

قلت : نعم « ليوفيل بويفيريه » .

فأتمت اللادي الكلمات قائلة : « سنة ١٨٨١ . شامبانيا معتقة ، أن هذا الشراب مع الحجلة بديـع » .

وفتحتُ الزجاجة ، وقالت اللادي فلورا : « لنجلس ! »

وجلست وأمسكتُ بمعصمها ورحت أضع شفتيّ عليه .

قالت : كفى . لا تعدْ إلى بقع شحم الحجلة التي تطايرت إلى الثوب واملأ لنا قدحين .

فملأت قدحين من الشمبانيا .

ورشفت من قدحها رشفة ثم قالت : انه لذيذ الطعم . والشيء بالشيء يذكر . هل قرأت صحـف اليوم . لقد أطلق الالمان قنابلهم على « ريمس » ، لله تلك الكنيسة المسكينة ! يا للخسارة ، ويا للضلال ! لئن استمرت هذه الحال كذلك ، إذن لاتخذت رأي ريجنالد إذ يقول : ليس أشنع في العالم من الحرب . فما رأيك في ذلك؟

قلت : لا يخـــالف اللورد اربيكل في رأيه إلا الأحمق أو الشرير الخبيث .

وصبت اللادي فلورا في القدحين شراباً مرة أخرى واشتفت كأسها كلها في حسوة واحدة ورجعت تقول : ان هذه الشمبانيا حقاً طيبة سائغة . لقد خطر لي أن ابتاع خمسمائة زجاجة في سنة ١٩١٤ ، نعم . لعلك لا تصدق . ولكن كان ذلك في شهر ايار ، وكأنما كنت أتوقع الحوادث . فانه من المستحيلات ان يتيسر للانسان ابتياع شيء منها الآن . ومن يدري هل يتيسر ذلك بعـد انتهاء الحرب ، فإن هذه الولاية كلها ستصبح بعد الحرب بلداً جديباً

غير ذي زرع . أليس كذلك ؟

قلت : نعم .

قالت : هذا أمر محزن . ولكن على كل حال سيبقى لنا نبيذ بورغونيا وشراب بورديلييه . ألا تناول قدحاً آخر وانني لآسفة اذ لم آمر بزجاجتين منه .

ومضت تقشر بسكين قطعة من الكمثرى ثم التفتت اليّ وقالت :

— أجئت هذه البلاد طلباً للنزهة واللهو ؟

فأجبت : لو لم اكن لاهياً ، لكنت ثقيل الظل لا أطاق .

فضحكت وقالت : يا لك من رقيق العاطفة. ولكنك عندما فكرت في الحضور الى ارلندة لم تكن تدري أنك ستلقاني .

واستضحكت واثقة بفتنة جمالها ثم قالت :

— ولكنك لست مثلي ، فانني هنا اكاد أموت من الملل !

قلت : وعلام البقاء اذا كنت تحسين سآمة ؟

فنظرت اليّ بعينيها الجميلتين مندهشة وأجابت :

— أتسألني لماذا البقاء هنا ؟ ولكن ذلك بحكم الواجب .

قلت دهشاً : بحكم الواجب ؟

فأجابت : نعم لأجل صحة ريجنالد . فان هواء لندن لا يصلح له ، وجو ايقوسيا جاف شديد الوطأة عليه ، وهناك شيء آخر . لقد ذكرت الساعة مشروعاً كنت تلمّح به تلميحاً ..

وتمهلت ولم تتمم كلمتها لكي تضع قطعة من الفاكهة كانت قد أخذت نصفها ، ثم استطردت تقول :

– ولا يدهشك مني ان أقول لك انني قد اتخذتك ناصحاً ومشيراً ، فاسمح لي أن اكلمك كصديقة لك حميمة .

قلت : أرجوك أن تفعلي .

قالت : أريد ان أستنصحك في أمر هذا الزواج فما رأيك ؟

قلت مرتبكا : رأيي ؟

فاستمرت تقول : ليس الموضوع مسألة الثروة التي للعروسين فليس في العالم زواج تعادل فيه الثراء كهذا .

قلت : اذن هل الفرق بين العمرين ؟

قالت : ولا هذا أيضاً . نعم ان انتيوب اكبر من ريجنالد بعشر سنوات. ولكنها لا تزال طفلة في أخلاقها صبية في عواطفها. كلا . ليس هذا أيضاً .

قلت بلهجة خبث : أذن لا أدري هناك من سبب .

فحدّقت فيّ النظر وقالت :

– لا أدري هل أتكلم أم لا ... انني أخاف في هذه المرة أيضاً ان أكون طائشة ؟

فتشجعت وأجبت قائلًا : لقد أصبح لك هذا الحق الآن فلا تخافي شيئاً .

فلم تهز هدبيها ولم تجفل بل قالت :

– إذن فلأكن طائشة ما دام هذا لا يسوءك . ولكن قبل كل شيء ينبغي ان تصدقني الخبر أو تقسم لي على أنه ليس في فؤادك للكونتس دي كندال غير عاطفة الصداقة القديمة التي بقيت منذ الطفولة ، فقد حدثتني هي بنبأها . فإذا كان الأمر غير ذلك

فانني أخشى ان أحدث لك ألماً. وينبغي ان أترك هذا الموضوع.

قلت : ماذا تعنين ؟

فاستطردت تقول بصوت هادىء : ان على الأم واجبات وفروضاً . ولئن كنت أود أن أرى ابني زوجاً لأنتيوب . فلا أستطيع أن أوافق على ذلك ، حتى يتبين لي كذب تلك الاشاعات .

قلت : أيّ اشاعات تقصدين ؟

فأجابت : أمور لا تليق لو صحت . انني أريد أن أكشف لك عن ذات صدري . انك صديقي ولقد استرسلت الآن في القول وما أنا مستطيعة الآن أن أمسك عنه . ألا نبئني ، أتظن فؤاد انتيوب خليّا ، وما ترى فيها ؟

قلت : انني أعتقد أن فؤاد الكونتس دي كندال في شغل شاغل بوطنها ؟

قالت : وطنها ؟ أي وطن يا عزيزي ؟

قلت : ارلندة !

فضجت اللادي فلورا ضاحكة ملء فؤادها وقالت :

— يا لك من طفل . ان المرأة لها النهار تصرفه في السياسة وشؤونها وتبقي الليالي لنفسها تفعل فيها ما تشاء .

قلت : لا أدرك ما تريدين .

فأجابت : ايه ، لا تنظر إليّ هذه النظرات . انك ستحملني على الاعتقاد بأنني قد أخطأت في مكاشفتك بهذه الأحاديث ... أتظن انني لا أهتم بهذه الاشاعات التي تحوم حولها . ان انتيوبه

امرأة طليقة حرة التصرف .

قلت : أكرر عليك السؤال مرة أخرى . أية اشاعات تقصدين ؟

فأجابت اللادي فلورا : أحاديث وهمس . فكم لبثت إلى اليوم في قصر كندال ؟

قلت : وصلت اليوم الرابع والعشرين من شهر آذار ونحن اليوم في السادس من شهر نيسان .

فقالت : أعني مضى عليك اثنا عشر يوماً في كندال فقط . يلوح لي انه لا بد من أنك سمعت شيئاً من تلك الاشاعات .

فقلت في نفسي : « ترى ماذا تكون خاتمة هذا الحديث » .

وعادت تقول : لقد مضى اثنا عشر يوماً عليك في كندال ولا ريب في انك قد أصبحت عليما بحجرات القصر ومنافسه وقاعاته ونوافذه فهل عرفت حجرة انتيوب ؟

قلت : نعم ، دخلتها مرة وكان ذلك في اليوم التالي لوصولي.

قالت : ان تلك الحجرة في الطابق الاول وفي جناح من القصر ولها نافذتان ، فنافذة تشرف على البحر ، وأخرى على الحديقة .

قلت : أتذكر ذلك .

قالت : حدث منذ أشهر ثلاثة – بل لعلها أربعة – أن كان في خدمتي سائس يدعى « جيم » وكان ذلك الفتى يحب وصيفة الكونتس دي كندال ..

قلت : أتعنين الفتاة جني ؟

فأجابت : كلا ، ان جني حديثة عهد بخدمة الكونتس ولكن

تلك الوصيفة التي كانت تحب السائس كانت تدعي « جان » ولكن هذا لا يهم ..

قلت متلهفاً : ثم ماذا ؟

فقالت : ففي ذات مساء اذ أتم الفتى عمله هرع الى قصر كندال للقاء عشيقته ، فلم يوفق الى مقابلتها ورأى حجرة الكونتس مضيئة بالانوار، فخطر للفتى أن يثب فوق صخرة هناك ليتطلع الى الحجرة ، اذ ظن ان فتاته لا بد أن تكون مع سيدتها فلما اعتلى الصخرة وألقى بنظره في الحجرة لم يجد جان عشيقته . ولكن وجد مع الكونتس ..

فقاطعتها صائحاً : ومن وجد اذ ذاك ؟

فقالت اللادي فلورا : آه ، كلا . لا ترتقب مني أن أرتكب هذه الضلة فأقول لك اسم ذلك الرجل الذي كان في الحجرة في تلك الساعة المتأخرة من الليل مع انتيوب . فانني لو فعلت فأي رأي أليم ستراه فيّ أنت . كلا . لن يكون ذلك آخر الدهر .

قلت متهكما : وماذا فعلت بجيم ذاك ؟

قالت : لقد أحسنت بسؤالك هذا ، اذ خطر لك الآن ما خطر لي في ذلك الحين . لقد انتهزت فرصة سنحت فطردته من خدمتي .

واذ ذاك أشعلت سيجارة ونظرت اليّ وقالت : فما رأيك في ذلك ؟

قلت : اظن ان اللورد ريجنالد لم يعلم بذلك .

فضحكت واجابت : هذا ما خطر لي ايضاً فلم اكاشفه البتة

بالخبر . وها انت ترى مبلغ صداقتي لك اذ أفضيت لـك انت وحدك بهذا السر .

وساد السكون .. وفي هذه اللحظة دقت الساعة ..

فارتجفت اللادي فلورا وقالت بلهجة أسف عذبة جميلة : يا لله، الساعة الرابعة الآن !

ونهضتُ وأنا مضطرب الأعصاب قليلًا وقلت :

– يجب ان أنصرف الآن .

فلم تحاول منعي عن الذهاب بل قالت : رباه انني آسفة إذ سأضطرك إلى المسير فرسخاً كاملًا في بهرة هذا الليل الساكن !

وذهبت إلى النافذة ففتحتها ثم عادت إليّ تقول : من حسن الحظ ان السماء لا تمطر !

ووضعت ذراعيها فوق كتفي ، ومددت رأسي قليـلًا فإذا شفتاي فوق جدائلها الصفراء !

قالت : هل أنت مغضب مني ؟

قلت : منك مغضب ! ولماذا ؟

قالت : إذا كنت قد أحسست نحو انتيوب عاطفة أخرى غير الصداقة ، فلن أصفح عن نفسي لمكاشفتي لك بالنبأ ..

*

ومشت اللادي فلورا معي حتى باب الحديقة ، فما كدت أبلغ الطريق حتى أسرعت الخطى ، ولكني لم أكد أسير خطوات حتى اضطررت الى الابطاء في خطاي ، إذ تكاثفت الظلمة كعادتها حيث تشتد قبيل انبثاق الفجر .

وتبينت الطريق الذي تعرفت فيه الاسبوع المنصرم باللورد ريجنالد ..

إذ ذاك خطر ببالي اسم رأس هذه الاسرة ، ذلــك الرجل العظيم اللورد سومر فيل زميل الوزير المشهور بيت .

رحمتاه لذلك العظيم . لقد كانت حفيدته الساعة بين ذراعيّ!

لقد كان خليقاً بي أن أفخر وأعجب بنفسي لهـذه الصدفة ، ولكني لم أشعر بشيء غير الأسف والاشمئزاز .

وسرت في طريق ترالي ، وكانت السماء قد بدأت تستحيـل بلون الشفق ، وقد غـارت النجوم فلا يضيء منها كوكب ، واختلطت أصوات زخير البحر بزفيف ريح الصباح الصاردة .

وانعطف الطريق ، فلم أكد أسير في المنعطف خطوات قلائـل حتى لمحت على مائة متر مني نوراً ، ولم يكن نور منزل بعيـد إذ كان هذا النور يتحرك ويدنو قبالتي . ولم يكن نور مركبة سائرة لأنني لم أسمع حوافر الخيل ولم يبلغ ذهني صوت عجلات المركبة .

وللحال سمعت صوتاً يقول : « من هذا السائر؟ » فلم أجب على هذا النداء بل تقدمت في طريقي . ولم ألبث أن دنوت من المصباح حتى كان قريباً من أنفي .

ورأيت خلف المصباح خمسة أو ستة أشباح وسمعت أحــدهم يقول : من أنت ؟

قلت : قصر دي كندال !

ووجدت أن جوابي قد اقنع أولئك الرجال ، ورأيت المصباح قد انخفض ، وتراجعت الاشباح قليلاً .

وبدا لعيني شبح نحيل ، شبح رجل في رَيْع العمر ، عذب الصوت .

قال يعرّفني بنفسه : اللفتننت فتزجرالد من متطوعة ترالي .

فذكرت له اسمي ومضيت اسأله : اتقول من متطوعة ترالي ؟

قال : نعم . فرقة المتطوعين من أهل ترالي وقد نهضنا الليلة لتأدية التمرينات على إطلاق النيران .

وأشار إشارة إلى أحد الجنود الذين ابتعدوا عنا وهو يقول : تقدم أمام هذا السيد القائد .

وأدى التحية وقال : معذرة إذا أنا لم أرافقك اليه ، فنحن سائرون للتدريب على وقاية الفرقة وهي في الطريق . وهذا هو السبب الذي دعانا إلى اعتراضك في طريقك . وأما أنا فانني أتولى قيادة المؤخرة .. ألا معذرة مرة أخرى ..

ومشيت على أطراف أناملي في اثر الجندي الذي تقدمني الى المقدمة .

ولم نكد نسير بضع دقائق حتى بلغناها فتمتم دليلي يقول :

— ها هو القائد !

ولاح لي رجل عريض المنكبين قد وقف ينظر الينا واضعاً يديه خلف ظهره وهو واقف في وسط الطريق .

فلما رآني صاح : مسيو جيرار !

فارتجفت قليلًا إذ تبينت وجه مسيو رالف ، وكنت قد نسيت في تلك اللحظة جملة أن الرجل قد تقلد رتبة في الجيش المتطوع .

وأنشأ يقول : أمن شيء يا سيدي تريد أن أخدمك فيه ؟

قلت : لقد تذكرت الآن انني سمعتك تقول أن المتطوعين سيغادرون في هذا الصباح ترالي للاستعراض على مقربة من قرية « اردفير » فهل لي أن أشهد هذا الاستعراض ؟

فأجاب : أشكر لك هذا الاهتمام .

وخيّل إليّ أن صوته تمازجه لهجة التهكم .

وخطر لي إذ ذاك أنه رآني قادماً نحوه من ناحية قصر كلار ، لا من ناحية كندال .

وكانت أستار الظلام قد رفعت ولاحت مطـــالع الضياء ، وتلألأت فوق أديم الارض قطع من السحـاب ، ومرّت فـوق رأسنا أطيار برية تصدح بأناشيد الصباح .

وأشار إليّ مسيو رالف أن أتبعه .

وغادرنا الطريق وانحرفنا إلى حقل هناك كان يشرف على جانبه .

وقال مسيو رالف بصوت مرتفع : لفتننت ديفيس . اتخـذ قيادة الطريق .

ورفع مسيو رالف إلى شفتيه صفارة وصفر صفيراً واحـداً فساد السكون بين صفوف الجنود .

وصفر صفيراً آخر ، فبدأ المسير ومشت الصفوف أمامنا ، صفاً صفاً .

وكان الجميع في أثواب عسكرية ، ولكن الأثواب كلها لم تكن متشابهة .

كان فريق من الجنود يلبسون قبعات أشبه بالقبعات الاسترالية، وفريق في قبعات صغيرة انكليزية . وكانوا يحملون بندقيات ويلبسون مناطق وضعوا فيها الحراب الصغيرة .

وهمس مسيو رالف في أذني يقول : ان كثيرين منهم كانوا جنوداً سرحتهم الحرب ، وقد احتفظوا بأثوابهم العسكرية .

قلت : والآخرون ؟

فقال : صنعت لهم زوجاتهم وآخرون أمهاتهم تلك الأثواب.

قلت : أعلى نفقتهم ؟

قال : نعم ، على نفقاتهم .

فنظرت إلى أولئك الجنود وهم يمرون أمامي. لقد كان سوادهم فتياناً في ريعان الشباب ، ولاح لي انه لم يكن بينهم قرويون بل كان أكثرهم من أهل الحضر ، عمالاً في مصارف، أو كتبة في دواوين ، أو مستخدمين في متاجر ، وكان كثيرون منهم يضعون مناظير فوق أعينهم . وإنما كانت تلوح في تلك الأعين وهي خلف المناظير دلائل تلك الارادة العنيفة التي لا يستطيع الانسان نسيانها إذا شهدها يوماً .

فلما مرّ أمامنا آخر جندي من هؤلاء المتطوعين نظر إليّ مسيو رالف وقال بلهجة المتكبر الفخور : في السابع عشر من آذار الماضي احتفالاً بعيد القديس بتريك أقيم استعراض في وسط دبلن المدينة الكبرى ، فمر ألف وخمسمائة من الجند يا سيدي الاستاذ أمام قائدهم زميلك العلامة «اوين ماك نيل» حتى اضطرت الترامو ايات أن تقف عن السير ساعة ونصف ساعة وكان الشُرَط

الانكليز وقوفاً ينظرون ..

قلت : والأسلحة ، كيف أتيح لكم جلبها ؟

فنظر إليّ نظرة تهكم وقال : انك في قلق علينا يا سيدي الاستاذ ؟ أتسألني عن الأسلحة ؟ انها تصل الينا في سفائن خاصة وقوارب صغيرة في جعب المسافرين، هاك انظر إلى هذه البندقية.

وكنا نتمشى بجانب صفوف الفرقة فأشار رالف إلى أحد الجنود فناوله بندقيته وقدمها مسيو رالف إليّ وهو يقول :

– انظر يا سيدي الاستاذ . انها بندقية من بندقيات الحرب، من الطراز الانكليزي . وعبثاً تسأل الجنديّ الذي يحملها من أي مكان استحضرها . حسبك انها في حوزته، ذلك هو المطلب الأول.

ورد البندقية إلى صاحبها وقال مبتسماً : أما إذا كنت تظن انك واجد بين هذه البندقيات شيئاً من الطراز الالماني ، فلن ترى طلبتك هنا في هذه الفرقة ، بل هناك في الولاية الأخرى ، في الصتر . ولقد حدث عام ١٩١٤ قبل نشوب الحرب بثلاثة أشهر أن التمس السير ادوارد كارزون ، وهو اليوم عضو في وزارة الحرب البريطانية ، عون « ملك عظيم من أصدقائه » كما كان يسمي امبراطور الالمان – فبعثت اليه وزارة الذخيرة في تلك البلاد خمسين الفاً من البندقيات ومليونا من الطلقات ليسحقنا بها سحقاً .

وظل مسيو رالف لحظة يفكر ثم عاد يقول برنة حزن :

– ولكن كان لنا نحن بندقيات وأسلحة من الخارج وكان زعيمنا هوش هو الذي استحضرها . لقد كانت أسلحة فرنسية ..

أويت إلى مضجعي في الثامنة صباحاً . ثم أيقظني ويليام وقد آذنت الحادية عشرة . وكنت آخر من ذهب إلى طعام الفطور وقد التف الزملاء حول المائدة .

كنت متعباً مضطرب الاعصاب ثائر النفس .

ولما كنا نتناول الفاكهة ، شرع الاستاذ هنريكسون في الحديث ، وكان قد خرج عن عزلته منذ أسبوع ومضى يؤاكلنا ويجالسنا إلى المائدة فقال :

– زملائي الأعزاء ، يسرني أن أفضي اليكم بنتيجة الابحاث الأولى التي قمت بها والتي تهتمون بها كل الاهتمام .

فنظرت اليه بدهشة فابتسم إليّ ابتسامة لطيفة وقال :

– لقد كنت أنت غائباً يا زميلي العزيز ، فإنني في جلسة من جلساتنا إلى المائدة ، ولم تكن أنت يومذاك حاضراً ، عرضت على هؤلاء السادة الزملاء الغرض من هذه الابحاث التي أنا بصددها والوسائل التي يُستعان بها في ذلك . ولأجل خاطرك سأتلو عليك موجزاً لما حدث : أن الغرض هو أن نطلب لكل سياسي عظيم في كل أمة من الأمم رأيه في المسألة الارلندية . على أنه بدا لي أن سؤال الأحياء آراءهم ليس إلا وسيلة مبتذلة وليس هذا أوانها والألسنة والأفواه مكمومة في هذا العصر . فرأيت أن نلتمس من الموتى فتواهم . دون أن يرجع بنا البحث إلى الماضي البعيد ، كأن نشعر ما قال البرنس بسمارك في القضية الارلندية أو ما فاه به البرنس جورشاكوف .

فألقيت نظرة دهشة وحيرة على وجوه زملائي ، فرأيت

الدكتور جروتلي يرتشف متثاقلاً قدح الوسكي الذي أمامه، ولمحت وجه الكولونيل هارفي عابساً مكفهراً، أما البارون أدزومي فقد جلس مشبكاً يديه الصغيرتين فوق المائدة وهو ينظر اليهما صامتاً.

وتابع الاستاذ هنريكسون حديثه فقال: «والآن لنتكلم عن الوسيلة..» وللحال أخرج محفظة من جيبه ومضى يتلو علينا صيّباً من الآراء التي التقطها من الكتب.

وسمعت بالتعاقب اسماء قوم كثيرين وكنت مشبك اليدين من شدة اضطراب اعصابي وتعبي.

ولما عدت الى حجرتي وجدت كتاباً من انتيوب وكنا قد تواعدنا أن نذهب في اصيل ذلك اليوم لمشاهدة الآثار القديمة في ضاحية اردفير. وكانت تقول في كتابها أنها نسيت امس أن اليوم الاحد وأنها لا تستطيع في الأحد ذهاباً.

وختمت كتابها بقولها: «اذن ليكن موعدنا الاربعاء ولا حاجة بي الى أن اذكرك باننا سنكون في ذلك اليوم لدى اللادي فلورا. اذ نحن مدعوان هناك الى العشاء».

*

لم أر اللادي فلورا يوماً افتن طلعة وانضر ثوباً منها في تلك الليلة..

لقد كانت في ثوب من القطيفة الزرقاء، أشبه بالمليكات. ثوب شفاف ينم عما تحته من بدن ناعم حسن التقاطيع.

وكانت عينا ريجنالد نفسه ترمقان أمه ولا تفارقان النظر اليها.

وكان جالساً فوق البساط تحت قدم انتيوب ، وكانت تضع هي يدها على رأس الفتى وشعره الفارع الاصفر الجميل مرسل فوق كتفيه ، وهو يقرأ في كتاب يحبه بصوت مرتفع .

ثم لم يلبث أن وقف عن القراءة اذ نهضت الكونتس دي كندال من مجلسها بغتة .

قال ريجنالد مندهشاً : « ماذا بك يا انتيوب » وتلته أمه تقول : « ماذا حدث يا عزيزتي » ؟

فأجابت انتيوب وقد وضعت يدها على فؤادها : انني أختنق من الحر .

فقالت اللادي فلورا : تختنقين والنوافذ مفتحة على آخرها ، ونحن في شهر نيسان !

قالت انتيوب : هلم يا ريجنالد نطوف قليلاً في الحديقة .

وخرجا ، وظلت اللادي فلورا تدخن سيجارتها ومكثنا بضع دقائق في مجلسينا لا نتكلم ، وأخيراً ابتسمت ابتسامة حزينة ومضت تقول : آه لو تعلم كم أنا متألمة ؟

قلت : متألمة .. ؟ . انني لا ادرك ما تقولين .

قالت : ولكن قد فهمت أنا . ليس على الانسان الا أن ينظر اليك فيفهم !

قلت : الا أن ينظر اليّ . ما معنى هذا ؟

قالت : نعم . ان ما قلته لك في تلك الليلة ، قد رحت تشغل فيه بالك وتجهد ذاكرتك . حتى لقد سوّلت لك النفس أن تعمل على تحقيقه . نعم ، لقد تسلقت الصخرة !..

قلت بجفوة شديدة : سيدتي !

وللحال بدا في عينيها بريق الدهشة والسرور وقالت :

ـ اذن الم تفعل ذلك حقاً ؟ يا لله ، أي عبء ثقيل قد ازحت عن فؤادي . ألا يجب ان تعدني ألا تحاول ذلك او أن تجتهد في ارتكابه ؟

واذ ذاك دخلت انتيوب وفي أثرها ريجنالد عائدين من الحديقة. وقالت انتيوب مبتسمة : لقد خشيت ان يصيبني البرد . ولكني لست متوعكة ، وقد وصلت المركبة التي ستقلنا ، وانني استميحك يا عزيزتي عذراً في الذهاب .

قالت اللادي فلورا : لم تحن الساعة التاسعة بعد .

فقالت أنتيوب : سأمكث مدة أطول في المرة التالية .

فقال ريجنالد : هذا ما نرجوه . نحن اليوم في الرابع عشر من نيسان . فهل تتذكرين متى ستكون المرة التاليـــة . الثالث والعشرين . يوم عيد الفصح . وسنحتفل فيه بعيد مولدك ونرقص الليل كلـه ، فاذا طلع الصبح تركنا لكم الحرية التامة في تحقيق نبوءة دونيغال .

فأجابت انتيوب والابتسامة لا تفارق شفتيها : لم انس ذلك مطلقاً .

وكانت المركبة التي أقلتنا الى القصر يسوقها الحوذي جوزف.

وكانت مصابيح المركبة لا ترسل في داخلها الا بصيصاً من ضوء ، فتمتمت أقول بصوت منخفض : أحقاً لم يبق على النبوءة غير أيام تسعة ، أيام تسعة فقط ؟

وشعرت أن انتيوب كانت ترتجف في مقعدها واجابت :

– أتقول لم يبق غير تسعة أيام . أتريد أن تقول انه لا يزال لدينا تسعة أيام ؟

ثم تمهلت قليلًا ولم تلبث أن صاحت مرتعبة :

– أواه ، وددت لو أنها كانت غداً .

فتمتمت منذعراً : ماذا بك ؟

فرأيتها تحاول الابتسام ثم أجابت :

– معذرة . انني قلقة مضطربة الاعصاب ، وقد جئت بك سليب الارادة،اذ نسيت انك قد تود المكث قليلًا في قصر اللادي فلورا .

قلت بصوت رهيب: سيدتي ، أتعتقدين أنك تسرينني بكلام كهذا ؟

فقالت بصوت عذب : اذن سامحني .

ومدت اليّ يدها، فأخذت تلك اليد الناعمة في يدي، وظللت كذلك طول شقة الطريق .

ولم تحاول هي أن تجتذب يدها من يدي .

شعرت بأن الكونتس محزونة حزناً لا شفاء لها منه ، ولكني رأيت ألا أسألها السبب .

وفي ردهة القصر غادرتني، وتمتمت وهي عجلة تقول: شكراً، تعال إلى لقائي غداً . وتلك النزهة التي أجلناها، سنسير غداً اليها. فإلى الملتقى في منتصف التاسعة صباحاً . وستجدني في انتظارك ..

دخلت حجرتي، ومكثت بضع دقائق أتمشى ذهاباً وجيئة في

قلق .

وأضأت الحجرة وتركت النور وخرجت .

مشيت في الحديقـة ، وكان القمر قد توسط السماء مبتدراً يرسل أشعته فوق صفحة البحر .

وجعلت أسائل النفس عن باعث مجيئي إلى الحديقة .

وفي الحق لم أكن أعرف لماذا جئت ..

وسمعت الساعة تدق نصفاً بعد العاشرة وانعطفت يسرة في الحديقة .

وإذا بي أجدني قد اقتربت من الصخرة التي تشرف عليها نافذة أنتيوب .

وخطر لي أن أسير في طريق ضيقة من الصخر قد انسابت فوقها أغصان شجرة عظيمة من أشجار الصنوبر .

وانسللت بين تلك الاشجار السوداء واتخذت لي مكاناً بينها ومضيت أتطلع إلى النافذة .

رأيت أنتيوب جالسة أمام مكتب صغير قبالة النافـذة وقد أسندت مرفقيها إلى المكتب ودفنت رأسها في راحتيها .

ولاحت لي كتفاها العاريتان تهتزان من شدة التنهد والتأوه ، وأمامها وقف رجل مولياً ظهره نحو النافذة ، وكان يلوح لي أنه يحدث الكونتس دي كندال .

لقد وددت أن أتنازل عن كل شيء في سبيل سماع ذلك الحديث !

ورفعت أنتيوب بغتة جبينها ثم مدت يديهـــا مد المتوسل المستغفر نحو محدثها ، ورأيت ذلك الرجل يدنو نحو تلك المرأة

الشابة ثم رأيته قد أخذها في ذراعيه ، وكانت هي تحاول التخلص من أحضانه ، وراح هو يطبع فوق تلك العنق الجميلة قبلات حارة طويلة .

وتلاصق البدنان .

وبدا لي وجهاهما الآن في أشعة الضياء .

يا لله ، لقد كان الرجل مسيو رالف !

في تلك اللحظة طرق سمعي صوت فرقعة فوق رأسي ، وخيّل إليّ أن غصناً قد تحطم ، وللحال صدمني جسم سقط فوقي فكدت أقع لولا أنني تماسكت .

وسمعت صوتاً يقول : سيدي الاستاذ جيرار إذا لم يخطئني نظري ، انني مدين لك بالحياة .

فتبين لي وجه الرجل .

لقد ذعرت إذ رأيت الدكتور جروتلي أمامي .

ومضى ينفض ثوبه ثم قال : ما رأيك الآن في الشريفات الارلنديات . آه . يا لتلك المرأة اللعينة !

قلت في نزوة غضب : ماذا جئت تصنع هنا ؟

فوضع أصبعاً فوق شفتيه وأجاب : صه . لا ترفع الصوت فإن المكان لا يسمح الآن بالشرح .

وجعل يتحسس أعضاء بدنه ثم قال : عجباً ، أحس برضوض في جسمي .

قلت : انني أسألك ماذا جئت تفعل هذه الساعة في هذا المكان؟

فأجاب : قد كان في استطاعتي أن أجيبك على سؤالك ، لو

أنك قلت لي أنت ماذا جئت تفعل هنـا . ولكن لا يصح أن نتناقش في مكان كهذا . أتتكرم عليّ بالذهاب إلى حجرتك أو إلى حجرتي لنتحدث قليلاً .

قلت : هلم ، انني في أثرك .

قال الدكتور جروتلي : تفضل يا سيدي الاستاذ . تقدم أولاً . لن أبرح مكاني حتى تتقدمني . هلم بنا . .

الايام الثمانية الباقية

وكانت حجرة الاستاذ جروتلي ملاصقة لحجرتي ، وكانت أيضاً مضاءة بالأنوار .

قال الاستاذ وقد بلغنا عتبة الباب : تفضل يا عزيزي مسيو جيرار بالدخول . هلم اجلس كأنك في حجرتك . إنني أتوسل اليك . كن كأنك في حجرتك .

وكانت لهجته في الدعوة تزيد في غضبي .

وعمد الدكتور جروتلي إلى النافذة فأغلقها وانكفأ إلى الباب فأوصده بالقفل ، ثم تقدم نحوي مبتسماً وهو يعرج في مشيته ويقول : يا للعنة ، كدت أكسر ساقي في هذه السقطة المشؤومة؟

فنظرت إلى قدميه . لم يكن منتعلاً حذاءه ، بل رأيت حذاءه البيضاء ملقاة في ناحية من الحجرة ، وسمعته يقول :

— حذائي . أرأيتها . غداً ستكون زرقاء اللون ، وبعد غد بلون السواد . وأود أن تصبح وردية اللون . إذ يجيء يوم نبوءة دونيغال .

وقام الى رف فجاء بزجاجة وقدحين وقال :

– لا يمنعنا هـذا من أن نقول كلمتنا في هذا « الويسكي » أليس كذلك يا مسيو جيرار . يا سيدي الاستاذ جيرار !

وكان يشدد في تلك الكلمات، ثم لم يلبث أن علا صوته منفجراً بضحكة شديدة ثم مضى يضحك ضحكاً متواصلاً . وهو يقول مكرراً : مسيو جـــيرار . ها . ها . سيدي الاستاذ جيرار . سيدي الاستاذ جيرار . ها . ها .

قلت مغضباً محتدماً : ما هذا ، تكلم . ماذا يضحكك ؟

وأمسك حذاءه في يديـــه وعاد الى الضحك والاشارات كالقردة ثم قال :

– نعم ، ما أسوأ الضحك اذ يكون جليسك متألماً . ولكن هدىء روعك . يا سيدي الاستاذ جيرار . فردينان جيرار أليس كذلك ؟

قلت بلهجة المهدد : لا أطيق هذه الامازيح منك والاشارات الغريبة ، وأقول لك تكلم . قل أتريد ان تتكلم أم لا .

فأجاب : أرجوك يا مسيو جـيرار ألا تغضب ، اذ يحزنني كل الحزن ان أغضب الاستاذ فردينان جيرار . وها أنت ترى حالـتي السيئة . انني لا أستطيـع المشي أو التحرك فيجب أن تساعدني .

وتناول من كيس نقوده مفتاحاً صغيراً وقدمه اليّ وقال :

– في هـذا الصندوق ، أدر القفل من فضلك دورتين ، تجد غلافاً أصفر كبير الحجم مطبقاً مرتين . ألا تكرم باعطائي اياه . انني آسف لاتعابك على هـذا الشكل . تناول قدحاً آخر من

الويسكي . أليس الشراب جيداً عتيقاً ؟

فض الغلاف وأدهشني أن أخرج منه عدداً من مجلة « الالستراسيون » وفي هذه اللحظة تولاني اضطراب لا ادري سببه ، واذ ذاك قال :

– اليك يا سيدي الاستاذ جيرار ما تتفكه به ويهمك أنت على الأخص !

قال ذلك وعاد الى ضحكاته المؤلمة وقلب صفحات المجلة وهو يقول : هذا العدد مؤرخ الخامس والعشرين من شهر تموز سنة ١٩١٣ .

ثم تمهل ومضى يقرأ الكلمات التي وضعت في ذيل صورة كبيرة في صدر العدد « مسيو بارتو وزير المعارف في زيارته لجامعة فرنسا » ونظر اليّ ثم تابع حديثه يقول: حقاً ان هذا العدد يهمك أنت بوجه خاص .

فنهضت من مجلسي وقلت : عليّ بهذا العدد .

قال : رفقاً ، رفقاً بقدمي المرضوضة . انها والله يا سيدي الاستاذ صورة رائعة جميلة ، صورت فيها أساتذة الجامعة كلهم . وأجمل من ذلك ان اسماءهم في ذيل الصورة صفاً صفاً . فهاك الوزير . وها بجانبه مدير الجامعة مسيو موريس كروازيه . ثم يليهما مسيو هادمار أستاذ العلوم الميكانيكية . ثم هاك مسيو موريل فاتيو استاذ اللغات والأدب ، وبعد هؤلاء تأتي صورة ظاهرة واضحة . وهي صورة مسيو فردينان جيرار ، استاذ اللغات والآداب الكلتية . ها . ها . ها .

وأسرع إلى مقعده فهبط فيه وراح يضحك بحنجرة واسعة .

قلت بغضب ملؤه الذعر والاضطراب : اسكت !

فلم يستمع لي ، بل مضى في ضحكات أعلى من الأولى .

وبعد جهد طويل استطاع أن يقطع سبيل الضحك وهو يقول:

– كلا . كلا . أنك لن تستطيع أن تدرك الخوف الذي تولاني منذ علمت أنك استاذ اللغات الكلتية . وكلما أفكر في ذلك الآن ، أرقص طرباً ، وأمرح فرحاً ، وأكاد أنادي مسيو رالف الآن ليشرب معنا قدحاً . انني أتكلم اللغة « الغالية » بكل سهولة يا سيدي الاستاذ ، ولكن من جهة النحو والصرف وأصول الكلمات والمزيد منها والمجرد ، فلا أعرف عنها شيئاً . وأنعي سوء الحظ إذ جهلت كل ذلك ، وكنت أشعر بخوف شديد أن تكتشف جهلي ، فجعلت أتهرب منك كما تتهرب الفأرة من القط ولكن لم يكن لي سبيل إلى القرار ، ونحن نجلس أبداً إلى موائد الطعام مجتمعين . وكلما جلسنا الى المائدة ، اقشعر بدني مخافة أن يعرض الحديث في اللغات الكلتية . يا لله ، لقد ضؤلت نفسي أمامك طول هذه الأيام . ولكن لي الله . لقد كنت أنت تعاني هذا الشعور بعينه . يا لله . يا لله . لم أر في حياتي أمراً أعجب من هذا ولا أغرب !

قلت بصوت أجش : ومن أنت ؟

فأجاب : لا أرى مانعاً يحول بيني وبين مكاشفتك بحقيقتي بعد أن حذرتَ ذلك ولا ريب ، فلنتصارح أيها الزميل ما دمنا نسعى لغاية واحدة . ولكن واأسفاه لكل هذا الزمن الذي

أضعناه بلا جدوى . ألا لعنة الله على هذا النظام. كيف لا يكون بين الادارتين ارتباط وتفاوض .

قلت دهشاً : أتقول بين الادارتين ؟

فأجاب : نعم ، يا لك من غريب . دع عنك خبث الاطفال. ألا تفهم ؟

قال ذلك وتناول ورقة وأنشأ يكتب وأنا أقرأ حرفاً حرفاً، فإذا بي أقرأ هذه الكلمات :

ويلكي جويس مفتش الشرطة بادارة البوليس الانكليزي الملكي .

وقال إذ أتممت قراءتها : ألا تفضل الآن بإلقاء هذه الورقة الصغيرة في نار الموقدة ولا تمض عنها حتى تتأكد أنها قد التهمتها ، فإن مثل هذه الورقة لا يُترك في هذا المكان .

ففعلت كما أشار ، وإذ دنوت منه قال: وأنت قل لي بدورك.

قلت دهشاً : بدوري ؟

قال : نعم ، يا عزيزي مسيو جيرار . دورك للكلام الآن . فقد عرفنا الآن ما وراء اللغة الكاتية. ولكن ما اسمك الحقيقي؟

قلت متلعثماً : كورانتين بيراد .

ولا أدري كيف خطر لي اختراع هذا الاسم وقد فوجئت بهذه الصاعقة على غير مرتقب .

ولكن كان ذلك وحي الساعة .

قال هذا الرجل : كورانتين بيراد . هذا كلام طيب . إذن يا مسيو بيراد. أنك لا تستطيع أن تتصور مقدار سروري بالعمل

معك ..

قال ذلك ولمس جبيني بأصبعه ثم وضعها فوق جبينه وعـــاد يقول :

– إن سرك يختفي هنا وراء هذا الجبين ، وهنا سري أيضاً . فلغاية الرابع والعشرين من شهر نيسان سنظل أنا وأنت كما نحن، الاستاذ جيرار والدكتور جروتلي . أود أن أسألك سؤالاً آخر .

قلت : ماذا ؟

قال : إلى أية ادارة تنتسب . هل المكتب الثاني أم للأمن العام ؟

قلت : ماذا تقول ؟

فأجاب الدكتور جروتلي ضاحكاً : لعلك تظنني أحمق غبياً . لك الله يا استاذ . وتود أن تعلم مني هل أنا مطلع على نظام الشرطة لديكم في فرنسا . وأنا أقول لك أن نظام الشرطة أو البوليس السياسي يتلخص في قسمين كل منهما قائم بذاته . فأحدهما تابع لوزارة الحرب ، والآخر لوزارة الداخلية . فهل اقتنعت الآن بانني عليم بما هنالك . اذن اسمح لي أن اعود الى سؤالي الأول . فالى أي القسمين أنت تابع » ؟

قلت : للأمن العام .

فشد على يدي مصافحاً وانثنى يقول :

ـ هذا كلام طيب يا زميلي العزيز . انني افضل هذا القسم على الآخر ، لأنني لا احب العسكريين ولا طرقهم في العمل .

ومضى يفرك يديه بشدة ، واستطرد يقول :

ـ اني اعتقد أننا سنؤدي معاً عملاً مجيداً هنا . ولكن ألست ترى رأيي في أن حكومتينا كان جديراً بهما أن تبعثا بعثة مشتركة أو ُتعرّف فريقاً بفريق ، حتى لا يتضاربا في العمل أو يتباينا في القصد .

قلت : هل لي بدوري أن اسألك سؤالاً ؟

قال : تفضل .

قلت : كيف اتيح لك أن تعرف حقيقة أمري ؟

فابتسم وقال : الفضل في ذلك الى طفولة الفن وسذاجة التصوير . وعلى ذكر ذلك ارجو أن تسمح لي بأن الاحظ عليك أنك لم تتقن إخفاء حقيقتك . فلم تكن تقيم في القصر إلا قليلاً . بل كنت أبداً في نزهة ، أو ساعياً إلى صيد ، أو سائراً إلى مشاهدة آثار . بل لم تعد في ليلة من الليالي إلى القصر مطلقاً . فأدهشتني تلك الأحوال من أستاذ مثلك . ولا أخفي عنك الآن انني تطفلت مرة بالدخول إلى حجرتك في غيبتك . فيا لله لشد ما كانت دهشتي . لم أجد ولا كتاباً واحداً من كتبك ولا عملاً أنت مواصله ، ولا مؤلفاً أنت تحاول إتمامه . لك الله . لو انك اطلعت إلى حجرة الاستاذ هنريكسون أو غرفة البارون ادزومي إذن لرأيت العجب العجاب من المجلدات والابحاث والاسفار . ولا أطيل عليك القول بل أصدقك الحق . لقد بدأ الشك يدب في نفسي من ناحيتك منذ تلك اللحظة . فكتبت إلى ادارتنا العامة أطلب اليها أن تبعث إليّ بصورة فوتوغرافية للأستاذ جيرار ، فوصلني أمس هذا العدد الذي رأيت من « الالستراسيون » فلما رأيتها ضحكت

بالطبع ملء فمي ..

قلت حانقاً: ولكن من يدريك لعل هؤلاء أيضاً هنريكسون وادزومي وهارفي من الشرطة مثلنا ؟

فأجاب : كلا . لقد علمت ذلك من هذه ، وهذه ، وهذه ..

وراح يخرج من الغلاف الاصفر أوراقاً ،وتابع حديثه فقال:

– لقد حصلت كذلك على صورهم الفوتوغرافية . بل لقد تمادى بي حذق الصناعة ان طلبت صورة السناتور بار كيلبدرو الذي جعل يؤجل وصوله من حين إلى آخر. ألا انظر إلى صورته حتى تعلم حقيقة طلعته قبل قدومه ..

قلت : هل لديك من المعلومات عن الحوادث التي يعدون الآن لها العدة ما تظن أنني يجب أن أعلم به ؟

فأجاب : انني أظن أنك تعلم عنها مثل الذي أعلم . وإنما الذي يزعجني ويؤلم نفسي أنني لا أستطيع أن أحمل أولي الشأن على الاعتقاد بأن هذه المعلومات التي أبعث بها اليهم خطيرة ذات بال، فان الحكومة في لندن والحكومة في دبلن لا تريدان أن تؤمنا بأن الثورة واقعة لا محالة ، وانها الآن تتمخض وتُعَدّ عدتها . ولقد حملني وجودك هنا على الاعتقاد بأن الحكومة الفرنسية عليمة بالنبأ أكثر من حكومة بريطانيا .

قلت : وهل ستقوم هذه الثورة في الرابع والعشرين حقاً لا مستقدمة ولا مستأخرة ؟

قال : ذلك موعد محتوم وأمر منظم كنوتة الموسيقى . لا خلاف فيها ولا خروج عنها .

قلت : وهل ستكون الثورة عامة ؟

قال : أما هذا فلا ، ستنشب الثورة في بعـــض النواحي . فتكون حركة في ويكسفورد ، وأخرى في كرى ، وثالثة في كورك ، ولكنها لن تلبث أن تقمع . أما في دبلن الحــــاضرة الكبرى فستندلع ألسنتها .

قلت : وهل يعتقد زعماء هذه الحركة انهم مصيبون بها نجاحاً ؟

فبدت على وجه الرجل علائم الشك وقال :

— لا علم لي بذلك ، ولكن لا أظنهم أطفالاً الى هـذا الحد حتى يتصوروا شيئاً من ذلك واقعاً .

قلت : ولكن كيف يغامرون في نهضة كهذه قـد تنتهي بأرواحهم ؟

فهز كتفيه وقال : كي يتحدث الناس عنهم . انك لا تدري من هم الارلنديون يا عزيزي بيراد .

قلت : كي يتحدث الناس عنهم .. ! أتريد بذلك أن تقول لكي ينشروا دعوتهم في العالم ؟

فنظر اليّ نظرة تهكم وقال : ها قد عدت الاستاذ جيرار . ان تعبيرك هـذا يا زميلي العزيز هو تعبير العلماء والاساتذة ولكن هلا ادخرت ذلك الى طعام الفطور غداً . اذ سيجد الكولونيل هارفي السرور كلـه في الدخول معك في حديث علمي طويل . ولكن أليس الافضل الآن أن نتفاهم في سؤالك الذي سألتنيه في أول الامر لأشرح لك ماذا كنت أفعل وأنا كامن فوق الشجرة ؟

فاحمر وجهي خجلاً . لقد رأى هذا الرجل أنتيوب وهي في

أحضان مسيو رالف ..

بدا ذلك شنيعاً في نظري ، ولكني كنت أسير هذا الرجل فرأيت أن أصانعه .

قال وهو يغمز بعينيه : انك لا تظن ولا ريب انني كنت في ذلك المكمن لأتلهى بذلك المنظر اذ أرى امرأة فتية في احضان شاب خادم ، فلقد مللت ذلك المنظر من طول مـا شهدته . اذ مضى علي اليوم ثماني ليال وأنا أصعد ذروة ذلك الغصن لأرى هذا المنظر متكرراً في صورة واحدة لا تتغير الا قليلاً ، مع بعض التنقيح ! ..

وراح يضحك مسروراً ، فبهت في موقفي هذا وقلت :

— ولأي غرض اذن كنت تكمن ؟

فاستضحك وقال : مرحى يا زميلي العزيز ، للغرض عينه الذي أردته أنت . لكي أقتفي حركات هذا الرجل الكريم مسيو رالف . اذ يحسن بنا ولا ريب أن نراه ولا يرانا ..

قلت : ومن يكون رالف هذا ؟

قال : ليس أميراً متخفياً ولا ريب ، اذ ليس عليه مظاهر طيب العنصر ونبل المحتد كتلك الكونتس أنتيوب التي تنعم بأحضانه .

قلت : اذن فما مكانه من هذه الحركة التي توشك أن تثور ؟

فألقى الدكتور جروتلي يده فوق كتفي وقال :

— مرحى ، مرحى . ما هذا الخبث يا عزيزي ، فانك لا تدري ، وكأنك تجهل ان الكونت دانتريم هو روح جمعية « السين فين »

ولبّها ، ولكن ذلك السيد الشيخ قعيد بعلّة الفالج ، فأصبح هو منها الرأس المفكر ، ورالف ذاك اليد الفعالة والذراع المنفذة .
هذا هو سر خطورة هذا الوصيف يا عزيزي مسيو جيرار. إذ يجب أن تعلم ان عشيق الكونتس دي كندال كان منذ عشرين عاماً سائساً في قصر دانور ، وقد وجد سبيله منذ ذلك العهد وأصاب المكانة . تعساً لنا نحن الشرطة ، فان للخدم حظاً أوفر من رجال البوليس !

قلت: انني متعب منهوك القوى أريد ان آوي إلى مضجعي..

قال : اسمح لي ألا أرافقك ، فـإلى الغد إذن ملتقانا أيها الزميل العزيز والأمور مرهونة بخواتيمها . وعلينا ألا نغفل الاشتراك في العمل يداً في يد .

ورفع اصبعه إلى شفتيه وقال بصوت خافت :

– سكوتاً !..

*

ولم أنم .. بل لم أذهب إلى مضجعي .

رأيت نور الفجر الأزرق ينفذ إلى حجرتي والهواء يهب عاصفاً ، والمطر يسقط وابلاً .

وأذنت الساعة تسعاً فنزلت الى الطابق الأسفل ، وفي السلّم التقيت بأنتيوب فقالت :

– آه ، أنسيت اننا متواعدان الخروج معاً اليوم في منتصف التاسعة ؟

فأجبت مرتبكاً : ولكني أرى الجو ...

فقاطعتني قائلة : أتخاف المطر والهواء ؟
ثم سكتت لحظة وقالت : ولكن ربما لا ترى في هذه النزهة فائدة ...
فنظرت اليها نظرة رهيبة وقلت :
– لِمَ تقولين كلمات كهذه ؟
قالت : إذن عد الى حجرتك فاشتمل في ثيـــاب الخروج . فها انت ترى انك لست في ثوب يليق بالمشي فوق الصخـــور البيضاء .. ألا انظر إليّ ..!
رأيتها في نعل طويـلة مشتملة في معطف من الجلد ، وقـد اختفت جدائل شعرها تحت قبعة مستديرة .
قالت : انني منتظرتك .
ولم تكد تمضي دقائق قلائل حتى وافيتها .
وهبطنا نريد الحديقة ، وقضينا الضحوة كلهـا نطوف ساحل البحر .
ولم ينقطع المطر لحظة واحدة بل مضى واكفاً مغضباً صارخاً، ولكنا لم نكن نحفل به .
وكانت انتيوب في المرحـــلة الأولى من النزهة فرحة متهللة النفس ، ولكني لم أستطع أن اكون فرحاً مثلها على رغم مـا حاولت وجاهدت .
وكان حديثنا اعتيادياً لا أهمية له ثم ما عتمنا أن سكتنا عن الحديث ، واقتعدنا صخرة على عُدْوة البحر وظللنا كذلك ساعتين نشهد المعركة المحتدمة بين البحر والريح .

وجعلت الامواج الزرقاء تتلاطم مهاجمة المكان الذي كنا فيه، وجاءت قطع الزبد الاصفر تترامى منفجرة تحت قدمينا، وكانت هناك أطيار البحـر ترف حولنا صارخة في صيحات محزنة ، حتى لكأننا كدنا نلمسها بأيدينا ، وشهدناها تقاتل مستيئسة نسراً يريد أن يسقطها من الفضاء ، ورأيناها وقد ضم طيراً منها تحت جناحيه السوداوين .

سمعت انتيوب تقول : يا للهول ! .

فارتعبت ونظرت اليها فرأيتها قد حملت رأسها باليدين وهي جامدة في مكانها وسمعت صوتها الخافت يردد هذه الكلمة :

– يا للهول ! .

قلت : رباه ، ماذا بك ؟ تكلمي !

فلم تجب ولم أجترىء على أن أسألها مرة أخرى أن تتكلم .

وفي تلك اللحظة قلت لنفسي اسائلها ماذا كنت قائلًا لها لو انها تكلمت وكشفت لي عن حزنها وبثت لي شكاة عارها ، وأية ألفاظ كنت واجدها لعزائها ، ولا يزال منظرها وهي في احضان رالف في ذاكرتي ماثلا أمام عيني .

ان ذلك المنظر وحده كان كافياً ليحمل فؤادي على كرهها .

وراحت تكرر للمرة الثانية كلمتها « يا للهول ! »

أية معجزة استطاع بها ذلك الرجل ، بل ذلك الوصيف ، ان يحدث هذا السلطان على نفسها ؟..

تذكرت إذ ذاك تلك الصبية التي رأيتها في حمامات اكس ، تلك الفتاة الغريرة التي كان يخيل إليّ يومذاك انها ستمشي في الحياة

تحمل سوطاً في يدها تسوق به العالم سَوْقاً !

أواه ، ها هي الحياة قد صرعتها وأسقطتها عن مكانها ..!

قالت انتيوب بصوت متهدج : هلم بنا نعود إلى القصر .

فانحدرنا عن الصخرة ، وكانت ترتجف كالريشة حتى اضطررت إلى اسنادها في احضاني ..!

وبلغنا القصر بعد قليل ، وكنا نسير في صمت .

وصعدنا السلم معاً ، ورأيتني أسير معها إلى باب حجرتها .

وبينا أنا أهمّ بتركها إذ أمسكت بيدي وكان صوتها خافتاً متقطعاً ، وقالت :

– ألا أقسم لي انك لن تغضب مني إذا علمت عني يوماً أشياء تؤلمك !..

وكانت ترتجف ..

ونظرت إليّ بعينين متوسلتين ..

إذن لقد شعرت من طرف خفيّ بأنني قد حذرت سرّها الأليم .

رباه ، كيف إذن أغضب منها بعد الآن ... ألم تك هذه السانحة خليقة بأن انتهزها لأكاشفها أنا أيضاً بسري الأليم الذي احتملته اليوم شهراً كاملاً .

نعم لقد حانت الساعة لأن أقول لأنتيوب كل شيء ..

ومهما يكن ما صنعت ، ومهما كذبت ، ولبست ثوب رجل آخر ، واختفيت وراء اسم غير اسمي ، فوالله ما فعلت ذلك لا لكي أراها مرة أخرى .

ألا يستفز هذا فؤاد المرأة ..؟ لو انني فعلت ذلك لتخلصت من هذا العبء الثقيل الذي يؤلمني . ولنقضت هذا العهد الملعون الذي بيني وبين جروتلي ..

قلت وأنا مرتجف مثلها راعد : ألا استمعي اليّ أنت أيضاً . استمعي . افرضي ان انساناً اتخذ اسماً غير اسمه واغتصب لقباً غير لقبه ...

فقاطعتني وهي تمسك يدي في يدها وترتجف وتمتمت تقول :

– لا تتكلم ، كفى . لا تتكلم !

فنظرت اليها برعب ، وحاولت أن أواصل القول : قلت اجتهدي أن تتصوري ..

فأمسكت بي وقالت بصوت جمد الدم في عروقي : كفى ، حسبك . لا تتكلم ..

وتمايلت مرتعبة ، وأسندت ظهرها إلى الباب وذراعاها مشبكتان وهي تقول : لا تتكلم . لا تتكلم ..!

وبينا كنت أحاول امساك يدها فتحت الباب بسرعة وأفلتت في حجرتها هاربة .

وسمعت القفل يدور في الباب ..

ووقفت وحيداً في وسط الردهة ..

*

وعلى مائدة الغداء مضى الكولونيل هارفي يتلو علينا رسالة وصلت من السناتور بار كيلبدرو يعتذر فيها مرة أخرى عن تأخره في الحضور . ويقول انه اضطر إلى ذلك في سبيل الحصول

على أوراق كان لا بد له منها من أجل الكتاب الذي يضعه، وكان خاتم البريد الذي على الرسالة ، بريد مونت كارلو .

فلما أتم الكولونيل قراءة الرسالة مضى يقول : نحن الآن في الخامس عشر من شهر نيسان فهل ترى يصل السناتور قبل عيد الفصح ؟ ليس لي أمل من هذه الناحية ، إذ لم يبق غير أيام ثمانية .

قلت سابح المخيلة شارد اللب : نعم ، ايام ثمانية !

ولما انتهى الغداء ، طلب اليّ الدكتور جروتلي ان اماشيه الى حجرته .

وكان ذلك الخوف الذي تولاني من قبل اذ كنت اظنه استاذاً في اللغات والآداب قد استحال في نفسي اشمئزازاً شديداً . ولكن رأيت من الحكمة أن انزل على امره .

وما كاد يجلس في مقعده في الحجرة حتى بدأ مزاحه وضحكاته وطفق يقول :

على الرغم من رضة الأمس . نعم ، صدقني . لقد كانت رضة شديدة ، قد اخذت حقي من غداء شهيّ . وهذه هي المرة الأولى التي لم اشعر فيها بخوف من مناقشاتك على المائدة . لقد مضيت تتلو ابياتاً من الشاعر توماس مور . وطلبت اليّ أن أتم ذلك القصيد . قل انك لم تعد أنت تخافني ، أليس كذلك ؟

قلت : اسمح لي أن انصرف ؟

قال : لن يكون ذلك حتى اكلمك عن خدمة ارجوك أن تؤديها لأجلي ..

قلت : وما تلك ؟

قال : اليك هي . اني اجدني عاجزاً عن الخروج . والذنب في ذلك عليك ..

قلت : الذنب عليّ ؟ . لا تستطيع أن تدعي انني أنا الذي اسقطتك عن الغصن .

فأجاب : بلا ريب . ولكن قدومك فجأة هو الذي جعلني اسارع الى السقوط فسقطت .

قلت : عجلْ بشرح طلبتك ، انني في عجلة . ماذا تريد مني ؟

فنظر اليّ الدكتور جروتلي نظرة طويلة وقال : لعلك متزوج يا مسيو جيرار .

قلت : متزوج ؟ كلا ، ولكن علام هذا السؤال ؟

فأجاب : ولكني متزوج وآآسفاه !

وابتسم ابتسامة خفيفة وقال : ولكن هـذا لا يمنع من أن تكون لي صديقة صغيرة .

قلت : اهنئك .

قال : والله أنها لملاك يا عزيزي . ملاك ! حسبك أن تنظر الى ديدمونه باركر ليشتعل منك الفؤاد بحبها . جدائل شعر ذهبيّ وعينان زرقاوان لعوبان بالقلوب ، وروح أيّ روح ، وفؤاد يا له من فؤاد ..

قلت : لعلك تتذكر أنني قلت لك أنني مستعجل .

قال : سأصل حالاً الى النتيجة ، سأصل حالاً الى النتيجة . انني احب ديدمونه ، الحب الخليق بجمالها . وفي فؤادي اليوم لوعة فراقها ، وقد اعتدت منذ شهر أن أبعث اليها بانبائي . ولكني اليوم

عاجز كما ترى عن الحركة .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : لقد اعتمدت عليك في أن تكلف خاطرك وتنوب عني في ارسال هذه الاشارة البرقية ، على أن أرد اليك خدمة مثلها فيما بعد .

قلت : أشكرك، ولكن أقرب مكتب للتلغراف من القصر هو مكتب في ترالي .

قال : أعرف ذلك، وإلى ترالي أتوسل اليك الآن أن تذهب بالاشارة البرقية .

فلم أرَ جواباً على سؤاله خيراً من أن أشير إلى نوافذ الحجرة وقد بللها المطر ، وكانت الحديقة قد اختفت في لجة من الانواء .

قال : هذا عارض لا يلبث أن يزول ، ولن يني قوس قزح أن ينتشر في صفحة السماء ، ثم لا تزال هناك مركبات الكونت دانتريم ، فهي لم تخلق للكلاب فقط ، وسيسرّ الحوذيّ جوزف أن يقدم لك هذه الخدمة ، ولن تستغرق في الذهاب والإياب إلا ساعتين فقط .

لم تغضبني من هذا الرجل الشرير وقاحته بقدر ما أغضبتني لهجته الهادئة الهازئة التي كان يتخذها في حديثه معي . ولكن هل أستطيع أن أرفض رجاء رجل لا تزال في خزانته صورة الاستاذ جيرار الحقيقية ؟!

تقبلت ... وقال وهو يناولني الاشارة البرقية : على هذا الشرط ، وهو أن أرد اليك صنيعك هذا بصنيع مثله ، فان لك

ولا ريب صديقة حبيبة اليك، ولا بد من أن تبعث اليها بالرسائل من الحين إلى الحين .

وغمز بعينيه ..

وبينا أهمّ بالانصراف ، وقد مشيت خطوتين ، ناداني ثانية وقال :

– صه ، ألا اغلق الباب ، ان أشد ما يضحكني في مسألتنا هذه هو أن لوزان ليست بعيدة عن باريس كثيراً ، وان العلامة جيرار لا بد من أن يكون ذا صلات بالاستاذ جروتلي ، فان عالمين كبيرين مثلهما لا يمكن أن يكونا غير صديقين حميمين ،وبينا نحن نتحاب ونتواد ، ويعامل كل منا أخاه بالرفق والمجاملة والحب ، من يدري لعلهما هما الآخران يجتمعان في باريس أو لوزان ، يتناقشان في شؤون علمية . أليس هذا مضحكاً؟ اضحك يا شيخ ما بالك لا تضحك !..

فتمتمت أقول وأنا أغلق بشدة باب الحجرة ورائي :

– ألا لعنة الله عليك !..

*

ولم تكد تمضي ربع الساعة حتى جاءني ويليام في حجرتي ينبئني أن المركبة على أتم الاستعداد . قال الخادم :

– ينبغي لك يا سيدي أن تسرع إذا شئت أن تعود قبل أن يهجم الليل .

ورأيت مركبة مغطاة يجرها جواد واحد واقفة بباب القصر، فوثبت اليها ، وفي لحظة كنا قد اجتزنا الحديقة .

اذ ذاك لحظت وأنا في دهشة وحيرة أن مسيو رالف كان هو الذي يسوقها ، فرأيت أن أشكره . قلت :

– انني يؤسفني أن تكون أنت ..

ولكنه لم يمهلني حتى أتم قولي بل أجاب :

– انني مسرور بذلك يا سيدي الاستاذ .

ومضت دقائق والمركبة تسير بنا مسرعة ، واذ ذاك قال مسيو رالف :

– أذاهبان نحن يا سيدي الاستاذ الى مكتب التلغراف ؟

قلت : نعم .

وللحال تذكرت أنني لم أقل لانسان ما عن نيتي ، فذعرت..

قلت : ما الذي بعثك على أن تحذر أنني أريد مكتب التلغراف ؟

فلم يجب مسيو رالف على سؤالي بل قال : أتعرف يا سيدي الاستاذ الآنسة ديدمونه باركر ؟

قلت : الآنسة ديدمونه باركر ؟ ..

فأجاب : لو كنت تعرف يا سيدي الآنسة ديدمونه معرفة شخصية فلا شك عندي في أنك ستندهش للفرق الكبير بين وجهها الحقيقي وبين التأثير الذي سيحدث في فؤادك من ناحيتها لرؤيتها . نعم ، ستندهش الدهشة كلها !

قلت : ما غرضك من قولك هذا ؟

قال : سأشرح لك غرضي طوعاً وكرامة . الآنسة ديدمونه باركر تقيم في لندن ، رقم ٤٧ شارع واردر وهو عنوان الاشارة

البرقية الذي كتب في الرسالة التي كلفت بإرسالها . ولكن ليس لها هناك الا منزلها الخاص . أما مسكنها الحقيقي ففي ناحية هوايت هول ، واذا شئت الحق فاعلم يا سيدي الاستاذ ان مكانها الحقيقي في سكوتلند يارد ادارة البوليس ، وأضيف على ذلك أن الآنسة بار كر فتاة هيفاء بارعة لها شاربان طويلان ، وفي جيبها مسدس من طراز « برونتغ » وتدخن في قصبة تبغ من النوع الانكليزي الذي تشربه البحارة . والحقيقة هي أن اسم الدكتور جروتلي الحقيقي هــو ويلكي جويس وان صحة اسم الآنسة ديدمونه بار كر هو « مستر جون جلكريست » !

وكان يتكلم بصوت هادىء كعادته وعيناه لا تغيبان عن أذن جواده . فأخرجت محفظتي من جيبي وقلت :

— اليك الاشارة البرقية .

ولم أزد ... فأوقف مسيو رالف المركبة وتناول الاشارة وقال بصوت رزين :

— شكراً لك يا سيدي الأستاذ .

قلت : أرجو أن تعتقد أنني ...

ولكنه لم يشأ أن أتم كلمتي بل نظر إليّ ، ورأيت في عينيه نظرة تهكم وسخرية .

قال : لا تقل هذا يا سيدي الأستاذ . وهل كنت تظن أنـه سيكون بين أضياف القصر جواسيس ؟

آلمني موقفي المضحك أمـام هذا الرجل الرهيب ، وأعجب ما في أمري معه أنني على الرغم من تذكري تلك الليـلة التي

وأيت فيها أنتيوب تكاد تكون عارية البدن بين ذراعيه ، لم أكن أشعر بكراهية شديدة لمسيو رالف ، بل كنت معجباً به في ذهني ، وان كان فؤادي منه في ألم.

في تلك اللحظة كنت على وشك أن أعترف له بالحقيقة كلها .. وا أسفاه ، ستعلم من ذلك أنتيوب تلك الخدعة الأليمة التي جئت بها إلى القصر ، وقد رأيت في هذا الصباح الذعر الذي تولاها إذ هممت بذلك الاعتراف .

شعرت إذ ذاك بالجبن مرة أخرى فسكت عن الكلام، وردّ إليّ مسيو رالف الاشارة البرقية دون أن ينظر اليها وهو يقول :

— لا أسمح لنفسي يا سيدي الاستاذ أن أقرأها قبلك ، ألا اقرأها يا سيدي وسترى انني لم أكن مخدوعاً فيما قلت لك .

فرحت أقرأ الرسالة ، وأنا في دهشة . وكان هذا نصها :

« مِسْ ديدمونه باركر ٤٧ شارع واردر بلندن . قدمي يوم عيد الفصح فطيرة للصغيرة تيدي . ولكن حذار ان تكون فيها زبيب من كورنيس ، إذا كنت تريدين أن تبقي للكبير هوي بعض الأمل في النجاح .

المخلص

« ستلانسلاس جروتلي »

وتناول مسيو رالف الرسالة وقرأها أيضاً ، وجعل يقف بعد كل كلمة لينزع من جيبه دفتراً صغيراً ينظر فيه ثم يعاود القراءة ، فلما أتم قراءة الرسالة تمتم يقول :

— هذا أمر واضح !

قلت : ماذا فيها ؟

فقال : ليس الدكتور جروتلي مع كل هذا بالرجل المجرد من الأدب .

قلت : هل لي أن أسألك سؤالاً ؟

قال : تفضل يا سيدي الاستاذ .

قلت : كيف توصلت إلى معرفة حقيقة الآنسة ديدمونه باركر ؟

فابتسم مسيو رالف وقال : إذا لم يكن للانسان أصدقاء في جميع الانحاء فخير له أن لا يحاول الاشتغال بالسياسة مطلقاً .

قال ذلك وألهب الجواد بسوطه ..

قلت : اذا كان الامر كذلك ، فلا أرى فائدة الآن من ذهابنا الى ترالي .

فأجاب : ماذا ترى في ذلك يا سيدي الاستاذ ، لقد مضى الان ثلاثة أسابيع ، وفي كل يوم ترسل رسالة من هذا النوع ، وكنت أعلم بأمرها ، قبل ارسالها بساعة على الاقل ، واليوم بفضلك استطعت أن أعرف هذه الرسالة كذلك .

وبعد ربع ساعة كنا قد أنهينا المهمة وعدنا ادراجنا في الطريق التي منها ذهبنا . قال مسيو رالف ونحن في الطريق :

ـ لقد بدا لي يا سيدي الاستاذ انني قد أسأت دون أن أدري .. اذ لم أنبئك بمعنى الرسالة التي ذهبنا لإرسالها ، فانك ولا ريب لم تدرك منها الشيء الكثير ، وها أنا الآن فاعل ذلك . ان الدكتور جروتلي في رسالته تلك ، يخبر الحكومة الانكليزية بأن

الهدوء سيسود في البلاد يوم عيد الفصح،وان السبب في ذلك يعود إلى معارضة مسيو اوراهيلي لكل محاولة يراد بها إثارة الثورة .

قلت : ومن يكون اوراهيلي هذا ؟

قال: رجل أمين شجاع،ولكنه كثير التردد، وهو أحد أولئك الذين يعتقدون بأنه إذا كانت الثورة ستفشل فخير لنا ألا نقتحم سبيلهـا وألاّ نقوم بها ، وهو من الذين يجهلون ان في الهزائم ما هو أكثر فخاراً من الانتصارات ، وجملة القول ترى هذا الرجل معارضاً للحركة الارلندية . ولما كانت مكانته تعادل في الولاية مكانة الكونت دانتريم ، فلن تكون الثورة يوم عيد الفصح في هذه الولاية شيئاً يذكر .. انه لأمر يحزن ويؤلم ، ولكن هذه هي الحقيقة وقد علم بها الدكتور جروتلي .

ونظر اليّ متهكماً وقال : لا تجزع يا سيدي الاستاذ ولا تتخذ هذه الطلعة المكفهرة ، فاننا متحولون بالثورة إلى دوبلن..

قلت : إلى دوبلن ؟

أجاب: نعم،وستطلق القذيفة الاولى يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر نيسان (ابريل) في الساعة عينها التي ولدت فيها الكونتس دانتريم . كما ورد ذلك في نبوءة لعلك علمت بها ، وأمـــا الطلقة الاولى تلك فستطلقها هي بيدها، ولن يقف في سبيل ذلك حائل، ألا كن مطمئناً يا سيدي الاستاذ !

قلت : لا ريب في ان الكونتس قد نسيت أنها تقبلت دعوة إلى مأدبة عشاء في قصر اللادي فلورا في الليلة السابقة للموعـد ، ولن تستطيـع أن تتخلف عن الذهاب لئلا تثير الشكوك .

فأجاب مسيو رالف بلهجة جافة : بل ستذهب الكونتس إلى مأدبة اللادي أربيكل ، نعم ستذهب . وسترقص إذا دعت الحال ، مع الكولونيل هارتفيلد قائد الحامية في ترالي ، فإذا طلع الغد ، فستطلق في ساعة معينة بعد الظهر القذيفة الاولى على صديق لهذا الكولونيل نفسه ، وستشهد يا سيدي كل هذه الحوادث عن كثب إذا أردت . وقد أعدت المعدات التي ينبغي اعدادها ، لكي نكفل لك أنت وزملائك رؤية كل شيء .

وضحك ضحكة صامتة وأردف على قوله :

– ومن بينهم الدكتور جروتلي أيضاً !

وكانت المركبة قد بلغت الحديقة إذ ذاك فسمعت مسيو رالف يتمتم قائلًا :

« انه لن يستطيع انكاراً ، فهو لا يخلو من الشجاعة »

قلت : مَن تقصد ؟

فأجاب : ويلكي جويس ، يا سيدي الاستاذ.

قلت : لماذا تقول ذلك ؟

قال : أتريد أن تعرف يا سيدي .

وإذ ذاك أوقف المركبة ، وهمّ بالكلام ولكنه هزّ رأسه مبتسماً ومضى يقول :

لن أستطيع أن أحدثك عن هذا خيراً من إنسان آخر . ألا استمع إليّ يا سيدي الاستاذ . إذا كان هذا المساء ، فاخلُ بخادمك ويليام واسأله مَن يكون ويلكي جويس ، وحسبك ذلك ، إذ سينبئك ويليام عن السر الذي جعل الدكتور جروتلي

يتشجع ويحضر إلى هذا القصر .

*

قلت : ويليام . من يكون ويلكي جويس ؟

وكنا في خلوة وحدنا ، قبل موعد العشاء بساعة ، في قاعة البليارد وكنت أدفع الكرات على غير هدى .

قال : أتسألني يا سيدي عن ويلكي جويس ؟

ولم أكن أتبين ويليام إذ كانت الحجرة مظلمة وإنما سمعت صوته وكان مفعماً بالألم .

قلت : نعم ، ويلكي جويس !

فأجاب : إن ويلكي جويس قد مات يا سيدي .

قلت : مات .. كيف ذلك ؟

وللحال أطبقت شفتيّ إذ تذكرت أن مسيو رالف قد أوصاني بألا ألقي عليه سؤالاً آخر .

ولكن ويليام طفق يتكلم فقال : نعم ، مات منذ خمسة وعشرين عاماً . رباه ، ليته كان حياً إلى الآن .

قلت :لماذا يا ويليام ؟

قال : أتسألني يا سيدي لماذا ؟ لكي يموت من يدي . ألا تعلم يا سيدي ماذا ارتكب ؟

قلت : كلا يا ويليام ..

وسمعت في الظلام صوت تأوّه شديد يكاد يكون انتحاباً .

قلت ثانية : ماذا فعل ؟

ودنوت منه فأمسكته من ذراعه ومشيت به إلى متكأ في

الحجرة وكان في أشد التأثر لا يستطيع كلاماً ، وقلت :

– إنني مصغ اليك .

فتمالك قواه قليلاً ، وشرع يتكلم ، وكانت الالفاظ تتعثر على شفتيه .. قال :

– لقد كنت يومذاك طفلاً صغيراً .

قلت : هوّن عليك يا ويليام ، وتكلم في رفق .

قال: ليكن ذلك يا سيدي. لقد كنت يومذاك طفلاً صغيراً، وكان أبي صاحب حان في ويكلو ، ولم يكن من الثوريين ولكنه كان ارلندياً يا سيدي ، ارلندياً صميماً ، وكان اذا المساء أقبل يتلقى في الحجرة الخلفية من حانه جمعاً من أبناء جلدته فيحادثهم في شؤون وطنه ، ويتلقى منهم انباء الثوريين من قومه . كان ذلك عام ١٨٨٥ وكان جمع من الارلنديين يريدون أن ينسفوا برج ايفل في لندن أو قصر وستمنستر ، وقد فشلت تلك المؤامرة كما تعلم. ولم يقبض من اولئك الذين كانوا يجتمعون عند أبي غير ايتيان أو جرادي . ولكنهم عادوا فألقوا القبض على بتريك ايفانس ، وهو أبي ، وقد عدوه شريكاً في الجناية ، اذ كان يعلم بأمرها ولم يخبر الشرطة عنها . وحكم على الرجلين بعد تحقيق استمر عاماً — أو بعض عـام — بالاعدام . وأبقوهما عاماً آخر قبل التنفيذ ، ليواصلوا البحث والتنقيب فلم يعثروا على شيء ..

قلت : ترفق بنفسك يا ويليام ، تكلم برفق .

قال : ألا معذرة يا سيدي لانفعالي ، ففي ذات يوم من شهر كانون الثاني عام ١٨٨٨ ، وكنت يومذاك في الحول السادس من

عمري دخل مأمور السجن على أبي في محبسه ، وكانوا قد وضعوا رفيقه ايتيان معه في غرفة واحدة ، وقال له المأمور : « موعدك غداً الا اذا أردت أن تكشف لنا عن السر » .

« وكان تأجيل التنفيذ كل ذلك الزمن حيلة منهم لمعرفة أسماء المتآمرين الآخرين ، وكان جواب أبي وصاحبه انه لم يكن لديهم قول آخر يريدان أن يقولاه ، ولكن ذلك المأمور قال لهما : « ولكن قد تكونان بحاجة الى قسيس لتعترفا له قبل تنفيذ الحكم » . وكان قسيس السجن انكليزيا فرفضاه وأصرا على ألا يعترفا الا لقسيس ارلندي فأجيبا الى طلبهما » .

قلت اذ رأيته قد تمهل : أتمم حديثك يا ويليام .

قال : وفي الليلة الاخيرة لهما في الحياة حضر القسيس . وكان يتكلم اللغة الغالية بحذق تام . فلم يخالج أبي ولا صاحبه ريب مطلقاً ، نعم . لقد كان أمراً في منتهى الغرابة .

قلت : رحمتاه للمسكينين !

قال : وسمع ذلك القسيس اعترافهما وباركهما ، وكان ذلك القسيس .. !

قلت مقاطعاً : ويلكي جويس !

قال في اثري : نعم ، يا سيدي . ويلكي جويس . واعترف أبي وصديقه ايتيان بأسماء المتآمرين الآخرين !

وسكت ويليام لحظة ، ثم عاود حديثه فقال :

وكان ختام القصة أشنع من مبدئها . في الغد شنق بتريك وايتيان ، وقبل موتهما علما بالحقيقة وأدركا انهما اعترفا

لرجل من البوليس الانكليزي تخفّى في زيّ قسيس من أهل الكنيسة ، وانهما قد فضحا أصدقاءهما الأعزاء !

قلت : وماذا جرى لويلكي جويس ؟

فأجاب : تقدم في منصبه ، ولكنه ذات يوم وهو جالس إلى مكتبه يشتغل في هدوء أطلقت عليه قنبلة فأصابت زجاج الحجرة وحطمت الدواة ولم تصبه هو بسوء ، وفي مرة أخرى ألقي عليه حجر فكاد يهوي على رأسه ولكنه نجا بأعجوبة . وكنت أنا يومذاك صغيراً لم أناهز الحول السابع . فلم أكن أنا صاحب تلك الفعلتين . بل كان الاصدقاء والصحاب . فتولاه الخوف ونقل بعد ذلك من دبلن إلى لندن . ولكن وقعت مؤامرتان على اغتيال حياته . وكان في كل مرة ينجو من الموت. كأنما أراد الله ألا يموت على أيدينا . ففي عام ١٨٩٢ وكان يسوق مركبة ، جمحت به الخيل بغتة فألقت بالمركبة في نهر التاميز . وقد قرأنا ذلك في الصحف يومذاك. تلك ياسيدي قصة وفاة ويلكي جويس !

وسكتنا فلم نتكلم . وعند ذلك دقت الساعة معلنة موعد العشاء ، وأضيئت الردهة ، فنهض ويليام وهو يقول :

— معذرة يا سيدي ، فانهم ينادونني .

وتركني وحدي .

وللحال رأيت شبح رالف أمام عيني وهو يقول :

— هل سمعت يا سيدي الاستاذ ؟

قلت : يا لشناعة ما سمعت !

وكانت قاعة البليارد كما قلت مظلمة ، ولكن الردهة كانت

مضيئة ، والسلم أيضاً ، فلمس رالف كتفي وقال :

– انظر !

فنظرت وللحال ارتجفت .

رأيت الدكتور جروتلي في أعلى السلم وهو يهبط درجة درجة مستنداً على ذراع ويليام وهذا ينزل محاذراً خشية أن يؤلمه .

وهمس رالف في أذني بصوت خافت يقول : ان ويليام لم يعرف بعد .

ثم نظر إليّ وقال : ولكنه لن يلبث أن يعلم !..

وليمة العشاء

ألقيت الكتاب الذي كنت أقرأ فيه على المائدة التي بجانب سريري ومددت ساقيّ تحت الغطاء . وكانت العاصفة تزف زفيفاً متواصلاً وقد مضت أيام ثمانية لم ينقطع فيها المطر ، ولم تسكن الريح ، بل لقد خيل إليّ أنها تضاعفت عصفاً وقصفاً ودوياً .

في هذه اللحظة انتبهت من تأملاتي على صوت الباب وهو يفتح . وكان القادم مسيو رالف ودنا من سريري خفيف الخطى .

قلت : ماذا حدث ؟

فرفع إصبعه إلى شفتيه وقال :

– إلبس ثيابك !

– ولكن ماذا حدث ؟

فرفع الاصبع ثانية إلى شفتيه وقال : « سكوتاً » وأشار إلى الجدار ثم همس يقول « لا ينبغي أن يسمع جارك حديثنا »

فنهضت من السرير والتمست ثيابي وتمتم مسيو رالف :

– خذ نعلك القصيرة وهذا المعطف ، فذلك يكفي . فلسنا خارجين من القصر . اتبعني .

فأطعت ، وأغلق الباب بكل سكون وهبطنا السلم مسترشدين بمصباحه الكهربائي ، الذي كان يحمله في يده .

ودخلنا قاعة التدخين وأضاءها ، ولاحظت أنه كان شاحب اللون فأرعبني أن يكون هذا الرجل الرهيب مصفر الطلعة .

أعدت عليه السؤال : قل ماذا حدث ؟

فأجاب : إن ما فعلته كان بوحي إرادتي وحدي . فقد رأيت ذلك من واجبي . هل أنت تستطيع أن تبقى ساعة كاملة جامداً في مكان لا تتحرك ولا تبدي أية إشارة كانت ، مهما كان انفعالك ؟

قلت : سأحاول ذلك .

قال : يجب أن تعدني ذلك وعداً ، فإذا لم تستطع فعد إلى حجرتك .

قلت : أعدك ذلك .

فأجاب : حسناً ، هلم بنا .

وبلغنا باباً عالياً ، فقال مسيو رالف :

– هذا الباب يؤدي إلى حجرة الكونت دانتريم ، وهو الآن نائم . ولكني سأوقظه على أنني قبل أن أفعل ذلك سأدخلك في حجرته ، وهنـــاك تحت سريره ركن مظلم ستجد فيه كرسياً صغيراً لا أرجل له ، فاجلس فيه وحذار أن تبدي أية حركة حتى اعود اليك فآخذك الى حجرتك . في ذلك المقعد سترى ما سيحدث وتسمع ما سيدور من الحديث .

ثم تمهل لحظة وعاد يقول :

– واقسم لك أن صاحب السمو يجهل ذلك كل الجهل ، ولا

يعلم عن وجودك في ذلك الركن المظلم من حجرته . وستكون أنت الرجل الوحيد الذي سيسمع ما سيدور من الحديث . ولو عرف الكونت بكمنك ذاك ، فما هو بمتكلم . فهل أنت على استعداد ؟

قلت : هلم بي !

فتناول يدي وشد عليها ، ثم فتح الباب ، وكانت الحجرة مظلمة قليلاً ، وعلى اليمين سرير الشيخ باعمدته واستاره ، وفوق مائدة هناك مصباح صغير .

ومشيت في اثر مسيو رالف ، ودلني على المقعد الذي في الركن ، فانسللت اليه في خفة وهناك جلست .

وتبددت الظلمة اذ اشعل مسيو رالف مصباحاً كهربائياً بجانب المصباح الآخر .

رأيت الكونت دانتريم ، ولاح لي انه نائم . شهدت يديه المفلوجتين فـــوق الاغطية ، وشعره الثلجي الابيض ، وعنقه الشاحب ، والابتسامة الدائمة على وجهه الذي ينم عن الالآم والاحزان .

رأيته قد فتح عينيه اذ لمسه رالف بيده ، وقال :

ــ رالف ؟ ما الخبر ؟

فأجاب الوصيف : لقد ازعجت مولاي من نومـه الهادىء ولكن الأمر خطير ولا يمكن تأجيله الى الغد .

قال : ماذا حدث ؟

فأجاب الوصيف : مولاي ، ان السير روجر قد حضر .

فقطب الشيخ وجهه وقال : ماذا تقول ؟

فردد الوصيف قوله : مولاي، ان السير روجر قد حضر .

فقال الشيخ : وأين هو ؟

فأجاب مسيو رالف : في البهو الصغير .

قال : متى وصل ؟

فأجاب الوصيف : في منتصف الثانية عشرة .

قال الشيخ : وهل رآه أحد ؟

فكان جواب مسيو رالف : كلا يا صاحب السمو، لقد وصل الى الحديقة متسلقاً الصخور، فدق النافذة بيده وكانت مضاءة ولم يكن هناك أحد غيري .

قال : وكيف وصل ؟

فأجاب : نزل الساعة الخامسة عند شاطىء البحر وكانت تقله غواصة المانية ، فجاء الى القصر رأساً ولم يلق في الطريق أحداً .

قال الكونت : ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

فأجاب الوصيف : لم يقل لي شيئاً آخر سوى أنه يريد مقابلة مولاي في التو واللحظة . وهو الآن ينتظر المثول بين يديكم في البهو الصغير بجانب الموقدة يستدفىء من المطر الذي أصـــابه في طريقه إلى القصر .

قال : اذهب وعد به إليّ .

ورأيت مسيو رالف قد ألقى فوق منكبي الشيخ غطاء من الفرو فلم يبق من ذلك البدن غير الوجه ظاهراً . وخرج الوصيف.

جمدت في مكاني لا أتحرك ، ولو أنني تحركت ، لما بلغ سمعه

صوت حركتي ، إذ كانت الريح تقصف بشدة .

وكان الكونت أيضاً جامداً في مكانه لا يتحرك .

ولم تمض لحظة حتى عاد مسيو رالف وفي رفقته ذلك القادم الذي أزعج حضوره في تلك الساعة الساكنة من الليل الكونت دانتريم ووصيفه .

قال الكونت : روجر ! أنت هنا ، الآن ؟ وفي هذه الساعة ؟

فأجاب القادم : ميلورد .. ميلورد !

ولم يتمهل الزائر بل جثا فوق الأرض أمام سرير الكونت ، ومضى يلتمس يداً من يديه وهو يكرر هذا النداء : « ميلورد ، ميلورد ! »

قال الكونت : هدىء روعك يا روجر ، هدىء روعك !

والتفت إلى رالف وقال : دعنا وحدنا .

وكنت أحاول ألا تفوتني كلمة مما سيقال ، أو حركة مما سيحدث .

بدأت الرواية الرهيبة .. وأخذ قلبي يدق بشدة متوقعاً أن أسمع ما يهول ويدهش . وبدأ الكونت الحديث فقال :

– أجئت من برلين يا روجر ؟

أجاب : نعم ، من برلين يا ميلورد !

قال الشيخ : ولماذا جئت . وكيف ؟

فأجاب القادم : كنت مريضاً . نعم مريضاً في المستشفى ، وهناك علمت منذ خمسة عشر يوماً أعني في السادس من شهر نيسان

أن الثورة واقعة يوم عيد الفصح ، فرأيت من مجرى الأمور أن الثورة ستكون حماقة وضلالاً وأنه ينبغي بذل كل شيء في سبيل منعها . ولهذا جئت !

قال الشيخ : وقد وضعت الحكومة الألمانية تحت تصرفك إحدى غواصاتها لتحملك الينا حتى تمنع ثورة كان خليقاً بها أن ترغب فيها وتتطلع اليها . إذا كان الأمر كذلك حقاً ، فإنني أرى اليوم رأي الكونت بلانكت إذ قال : « إن الحكومة الالمانية في ضلال مبين » .

فعض السير روجر شفتيه وقطب جبينه ، وأجاب :

– ميلورد ، لا تسخر مني ولا تهزأ .

فقال الشيخ : هدىء من روعك يا روجر واشرح غرضك .

فأجاب السير روجر : سأشرح غرضي يا ميلورد. نعم ، سأقول كل شيء . ولكن نبئني أولاً ، قل ان المعلومات التي بلغتني لم تكن صحيحة ، وأن هذه الرحلة التي كانت ولا ريب مودية بحياتي لم تكن ذات فائدة. ألا قل انه لن تقع في البلاد ثورة ولن تقوم قيامة يوم عيد الفصح ؟

فأجاب الكونت : بل ستقع الثورة واقسم لك .

فجعل السير روجر يكرر هذه الكلمات : حماقة وضلال مبين ، حماقة وضلال مبين !

فأجاب الكونت دانتريم : ربما ، ولكن لم تضعف ذاكرتي بعد . ألست أنت القائل في بعض رسائلك «ان اليوم الذي سينزل فيه أول صديق لنا من الالمان بساحل ارلندة» اليوم الذي ستُرى

فيه أول سفينة ألمانية من سفائن الحرب شاقة العباب نحو شاطىء ارلندة . ذلك اليوم هو الذي ينبغي أن يموت فيه خلق كثيرون من الارلنديين ، ويبذلوا فيه مهجهم ونفوسهم مسترخصة . نعم ، سيموتون وهم راضون مطمئنون ، مؤمنون بأن ارلندة ستعيش بعدهم وتبقى .. » نعم إذا صحت ذاكرتي ، وكانت هذه كلماتك التي جاءت في رسالتك ، فما أعجب اليوم أن تصف بالحماقة والضلال هذه النهضة التي تريد أن تنفجر وتضرم نارها . ان ذلك يدلنا على أن آمالك يا روجر قد طاشت ، وانك لم تعد الينا بالنجدة التي وعدتنا ولم نسألك نجدة ، ولا طلبنا اليك عوناً .

فتمتم السير روجر : لا تحمل عليّ بعَتَبْك ، لا تحمل علي بعتبك .

قال الكونت دانتريم بلهجة خشنة : ماذا فعلت في ألمانيا ، ماذا وعدتهم ، وماذا وعدوك هم ؟

فأجاب الآخر برنة حزن : لم أعدهم شيئاً إذ لم يكن لي هذا الحق . لقد كنت أعتمد عليهم في ادراك الأماني الارلندية ، وانه في اليوم الذي سيعقد فيه مؤتمر الصلح ، سيعملون على أن تكون القضية الارلندية مسألة دولية .. !

فقاطعه الكونت دانتريم قائلاً : يا لك من طفل . لا شك في أن الالمان قوم حمقى أغبياء . لقد وعدوك وعوداً حسنة فذلك ديدنهم ، وتلك طريقتهم . فهل طلبوا اليك في مقابل ذلك شيئاً؟ فلم يحر السير روجر جواباً واسترسل الكونت يقول :

— لقد حدثوني عن محاولة حاولتها لكي تؤلف ألمانيا من

الاسرى الارلنديين الذين لديها فرقة ارلندية يراد بها أن تقاتل في صفوفهم في سبيل القضية الارلندية وقد اعانك على هـذا العمل القساوسة الالمان الكاثوليكيون . فنبئني يا روجر . من بين أولئك الثلاثة آلاف أسير من الصبية والفتيان الذين كانوا يرسفون في قيد الاسار ، كم لبوا نداءك وأطاعوا رأيك ؟

فتمتم الآخر يقول : خمسة وخمسون !

فقال الكونت : خمسة وخمسون ، أكذلك لم يستسلم اولئك الفلاحون المساكين الأميون من ولايتي ألستر وكونوت لتلك الخديعة . بينا غرتك واستهوت فؤادك أنت . وكذلك تضلنا نحن العقلاء المهذبين عقولنا ، ويخدعنا تهذيبنا ، على حين توحي الى الشعب الجاهل غريزته بـألا يحيد عن الحق قيد شبر فهل استفدت أنت يا سير روجر منهذا الدرس البليـغ الذي لقنك اياه الشعب؟

فأجاب السير روجر : أجل . ها أنت قد رأيت . وحسبيمن هذا الدرس أنك تراني الان امام عينيك . لقد اردت أن يعلم القوم هنا أن ارلندة لا ينبغي لها أن تعتمد على عون المانيا ، وان الثورة التي يريدون أن يشعلوا نارها يجب أن تؤجل اليوم الىوقت آخر ، وقد خاطرت بحياتي يا ميلورد وها أنا قد جئت !

فأجاب الكونت دانتريم : نعم . جئت يا روجر . ولكنعلى ظهر غواصة المانية ، فهل للألمان هذا العدد العديد من الغواصات حتى يخاطروا بواحدة منها ، لا لشيء غير ارضائك وحباً في سواد عينيك ، ولكي تأتي ولا غرض لك الا منع نهضة كان ينبغي لها أن تُسر بها وتتمنى تحقيقها ؟

فالتزم السير روجر الصمت ولم يجب ، وعاد الكونت يقول بصوت رهيب : أجب يا روجر فان الوقت أضيق من أن يتسع للسكوت .

ولما لم يسمع من السير روجر جواباً استرسل الشيخ يقول :

– نبئني ماذا قالوا لك ولأي غرض أذنوا لـك في السفر . ولماذا أعانوك على المجيء ؟

فقال الزائر : لأنني قلت لهم انني عائد الى ارلندة لأشعل فيها الثورة العاصفة !

قال الكونت : وهل صدقوك ؟

فأجاب الرجل : بل لقد آمنوا بقولي يا ميلورد فوهبوني ما لم اسألهم .

قال الشيخ : وما هو ؟

فأجاب السير روجر : سفينة مسلحة من سفن الدول المحايدة محملة بنادق وذخائر !

اذ ذاك رأيت يد الكونت المفلوجة تتحرك تحت غطاء الفرو وقال :

– وأين تلك السفينة ؟

فأجاب الرجل : ستصل قريباً يا ميلورد لأنهـــا ابحرت مع الغواصة التي حملتني .

فتمتم الكونت يقول : ربّاه !

وساد بينهما سكون رهيب ، ثم تمتم السير روجر :

– ماذا بك يا ميلورد ؟

قال الكونت في لهجة اضطراب : أتسألني ماذا بي ؟ أتسألني ماذا بي ؟

وتولته رعدة .. ثم قال أخيراً :

—أتظن يا روجر أنك قد خدعت المانيا ؟ . يا لك من شقي . يا لك من شقي . بل هي التي هزأت بك أيها الطفل !

فقال السير روجر : ماذا تريد بهذا القول يا ميلورد ؟

فأجاب الكونت : ماذا فعلت يا روجر؟ ما هذا الذي فعلت!

فقال السير روجر : أنت ترى أنني لم أكن أستطيع عن المانيا رحيلًا إذا أنا قلت انني أريد برحيلي أن أمنع سبيل الثورة ، فلم يسعني غير أن أحتال بذلك الشفيع الذي ذكرته الساعة لك.

قال الكونت دانتريم : إن الثورة واقعة يا روجر لا محالة وأقسم لك على ذلك . نعم أقسم لك مرة أخرى . ولكنك قد فعلت ما سيضعف من تأثيرها ، ويشوه من جمالها . فإذا كانت سفينتك المحملة على مستشرف سواحلنا ، وهي لا ريب كذلك لأنها لا تستطيع عنها ابتعاداً ، فسيقبض عليها بعد ساعتين من الزمن . فهل نسيت أن الاسطول البريطاني ساهر على مراقبة سواحل ارلندة أكثر من سواحل الأعداء . واأسفاه يا روجر لقد مهدت بفعلتك تلك حجة كانوا سيبذلون كل مرتخص وغال في سبيل الحصول عليها ، فإن ثورتنا على انكلترة لا ينبغي أن تبغض حلفاءنا فينا وتحملهم على كراهيتنا ، لأنهم إذا سمعوا أننا أصبحنا حلفاء للالمان فسنكون في أعينهم خونة غادرين . هذا ما فعلت يا روجر . هذا ما ارتكبت !

فأرسل هذا صرخة حزن وألم ، ولم يلبث أن قال:

– ميلورد ، ميلورد . إنني أتقبل تأنيبك وأرتضي لومك وعتابك ، ولكن الآن قل إن الثورة ليست إلا حماقة شديدة وانها لن تقع ولن تحدث .

قال الكونت : بل ستقع !

فقال السير روجر بصرخة دهشة :

– أتقول يا ميلورد انها ستقع ، انك إذا قلت ذلك فينبغي أن تكون مؤمناً بنجاحها، الا اقسم انك تؤمن بنجاحها. فإذا أنت أقسمت فسأعتقد أنك أنت الأحمق الأبله يا ميلورد وان لم ينقص ذلك من إعجابي بك واكباري ، ولكن ..

قال الكونت دانتريم : ولكن ماذا ؟

فأجاب السير روجر : ولكن أقسم يا ميلورد . إنني أتوسل اليك . آه . ها أنت ترى أنك لا تستطيع قسماً . أنك لا تؤمن بنجاحها . فكيف إذاً ترضى لنفسك بأن تُصدر كلمتك وأنت في سريرك هذا ، تلك الكلمة الرهيبة المخيفة التي ستدفع بمئات من الشباب إلى الموت وتردهم إلى التراب رفاتاً وأشلاء ، كيف لعمري ترضى لهم ذلك وأنت تعلم أن تضحيتهم هذه لن تنفع ولن تجدي ؟

قال الكونت بصوت أجش: يخيل إليّ يا روجر انك تكلمني بلهجة الحاكم ورهبة القاضي الذي يصدر الحكم .

فلم يحر روجر جواباً بل رأى ذراعي الكونت مشبكتين فوق صدره ، وقد دفن رأسه في غطاء الفرو ، ومضى ينتحب

كالأطفال . ولكنه لم يلبث أن عاد يقول برنة حزن رهيبة جليلة :

– ليكن ما قلت فقد قلت حقاً . لقد حملتني الآن بكلمتك تلك على أن أكاشفك بحزني المرعب الرهيب ، حزن رجل مريض مفلوج ، تحول علته بينه وبين الاشتراك في قتال عنيف يراه حقاً مقدساً واجباً لا غناء عنه . أي روجر : ان تلك الدماء التي أسلتها وددت اليوم لو أنني لم أسفكها . وتلك الكلمة التي سأصدرها مهيباً بالفتيان أدعوهم إلى أسلحتهم يحملونها ، ستخرج من فمي وفؤادي في حزن وألم لأنني لا أستطيع أنا أيضاً أن أحمل مثلهم سلاحاً ، انني أصفح عن كلماتك التي فهت بها ، وأحيلها إلى اضطراب نفسك وسورة عواطفك . انني أدرك ان العالم خارج حدود ارلندة لا يفهم الروح الوطنية الارلندية على حقيقتها . فهل نسيت يا روجر تلك الكلمات التي استظهرتها منذ صباك . أنسيت اليوم نبوءة دونيغال ؟

فرفع السير روجر رأسه ثم قال بلهجة ذهول ورعب :

– نبوءة دونيغال ، ألا تدري انك تخيفني وترعبني بهذا؟ كيف يؤمن رجل من أهل هذا العصر بطفولة خرافات الأعصر الغابرة ؟ نبوءة دونيغال ؟.. ماذا ترتقب من هذه النبوءة المسكينة العاجزة حيال المدافع الخفيفة منها والثقيلة . واسوأتاه ! غداً ، بفضل هذه النبوءة ستبدو دبلن شعلة من النار . ولكن واأسفاه . سننهزم يا ميلورد . سنعود عنها مهزومين !

فأجاب الشيخ بهدوء : انني أعلم ذلك مثلك ، وأشعر منه بحزن أليم . ولكن على رغم الهزيمة ، ستخرج روح ارلندة من

هذا الصراع منتصرة فائزة . واأسفاه ان هذه الروح يا روجر قد همدت وكادت تموت، لقد مشى بها نوابنا إلى المجتمعات الانكليزية يتناقشون في أمرها ، ويتحدثون عنها ، ولهـــذا أضحت الروح الارلندية كلامية لا حرارة فيها . إذن يجب أن يثور في النفوس هذا المثل الأعلى . لقد ذكرت لك الساعة نبوءة دونيغال ، ولم أذكرها عبثاً ومن غير جدوى . في نظري ونظرك ليست هذه النبوءة إلا رمزاً ووهماً . ولكن في نظر البسطاء والسذج الذين ماتوا منذ ثمانية قرون، وفي عين الذين سيموتون في الصراع غداً، وهي على شفاههم ، لا تزال هذه النبوءة التي تنتقص الآن قيمتها ، حقيقة صادقة . انها أروع منا وأشد بأساً ، لأننا نموت ونصبح تراباً وهي تحيا وتبقى . اننا نحتقر الشعب وننتقص أولئـــك البسطاء . ولكن هؤلاء السذج هم الذين احتملوا العذاب ورضوا ذل الأسر في سجون الالمان . انهم هم الذين لم تستطع ألمانيا أن تخدعهم باسم وطنهم وتحرير بـــلادهم . بينا أفلحت في خداعك ومكرت بك. نعم،في سبيل كل ذلك يا روجر سيكون الاثنين القادم يوماً عظيماً . ففي ساعة من ساعات الأصيل ، بينا أكون أنا جالساً هنا ويدي على فؤادي الهرم الذي يريد أن يقف من حرارة الحمية ومن ألم العذاب الرهيب ، إذ تحيي بنادق المتطوعين في دبلن هذا اليوم المحتوم في تلك النبوءة المقدسة .

فرفع السير روجر رأسه وقال : وسأكون معهم يا ميلورد !

فنظر اليه الكونت نظرة حزن وقال : واأسفاه يا روجر ، انك واهم . لن تكون معهم . بل لا تستطيع أن تكون معهم.

فأجاب الآخر دهشاً : أتقول انني لن أكون معهم ؟

قال الكونت دانتريم : انني اعلم أن ما سأريده منك مخيف هائل . ولكن هذه التضحية التي سأفرضها عليك، ستحملها صابراً في سبيل نجاة الوطن الذي تحبه أنت اكثر من سواك . نعم ، إني أسألك الموت فوق المشنقة محتجب النظر وراء قناع اسود ، ولا اطلب اليك أن تموت في المعركة !

قال الآخر : ماذا تقول يا ميلورد ؟ هذا فظيـع !

قال الكونت : نعم ، فظيـع يا روجر ولكن لا بد منه . الا استمع لما أقول لك . أن ظهورك في وسط جنودنا سيكون في نظر اعدائنا دليلاً على ارتباطنا بالالمان، وحجة علينا حيالهم ولا تحسبن أنني ابغض الالمان ، ولكن صوت العاطفة يجب أن يخفت إذا ما كانت مصلحة الوطن في خطر . ولو كنت الساعة أرى أن في ارتباطنا بألمانيا عوناً لنا على قضيتنا ، لكنت أول مدافع عن ذلك ، ولبذلت كل مسعى للتحالف معها . ولكني لست أرى ذلك . ألأجل عدة بنادق وبضعة مدافع ، تترك ارلندة واجبها المقدس ، وهو أن تقاتل الظالم وحدها قِرناً لقرن . كلا . آخر الدهر !

فأجاب السير روجر بصوت متهدج أجشّ لا يكاد يخرج من فمه :

— ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

فقال الكونت : تنام الليلة هنا وتحاول أن تـُغرق في لجة النوم كل ألمـــك ، لتنهض قوياً تستطيـع احتمال واجبك الخشن

الموحش ، وسيسير بك رالف إذا الفجر انبثق إلى قرية ترالي ، وينبغي ألا يعلم أحد انك جئت إلى القصر ، واننا التقينا ، فإذا وصلت ترالي فاذهب إلى مكان تعتقد أنه سيقبض عليك فيه. فإذا وقعت في أيدي القضاء الانكليزي ، فقل بواعث عودتك، واعلن أنه من الحماقة أن نعتمد على المانيا ، وابذل كل جهدك حتى تزيل عنا الشر الذي يكاد يلحق بقضيتنا العادلة !

قال السير روجر : سأفعل ذلك !

فنظر اليه الكونت دانتريم ولم يلبث أن قال وهو في أشد التأثر :

– هات يدك يا روجر أصافحك !

فقبّل السير روجر يد الشيخ ، وأرسل الكونت تنهدة ألم وحزن وقال : أي روجر ، أي روجر . يا لقسوة الواجب ويا لروعته . ها نحن رجلان لا يفكران إلا في تحرير وطنها ، ثم انظر كيف اشتد بيننا الجدل الليلة واستحر الحديث. ان الواجب وحشي لا يعرف الرحمة !

وهز الجرس الذي فوق المائدة الصغيرة ، فنهض السير روجر كأنما به مس يترنح مضطرباً ، وللحال بدا مسيو رالف ، فقال الكونت :

– هيء للسير روجر حجرة للمبيت وينبغي أن يكون في ترالي قبل الساعة الخامسة بعد منتصف الليل . إنني معتمد عليك يا رالف في ايصاله إلى ترالي في الموعد الذي عينته لك .

وانصرف الرجلان ... ولبثت وحدي مع الكونت دانتريم

بضع دقائق أخرى . رأيته أغمض عينيه ولم يلبث أن زال كل أثر للحياة من ذلك الوجه الصلب الشاحب . وعاد المسيو رالف فأطفأ النور فأظلمت الحجرة ثانية ، ودنا من الركن الذي كنت مختفياً فيه وأمسك بيدي وقادني على اطراف الأصابع خارج الحجرة .

وسمعت اذ بلغنا الباب صوت الشيخ الخافت منادياً رالف .

فأجاب الوصيف : سأعود يا مولاي ، سأعود .

ومشينا معاً في الردهة وأشار رالف اليّ أن أظل في صمت . ثم قال بصوت خافت :

— والآن عد الى حجرتك لتنام . نعم ، يجب أن يأخذ عينك النوم . فان الليالي التي تدنو منا الآن مسهدة لا نوم فيها فيجب أن تنام لكي تحتمل سهرها .

وأشار بيده الى الطابق الآخر ، وابتسم ابتسامة غريبة وقال :

— نعم ينبغي أن تحذو حذوها . وتفعل كما فعلت . لقد نامت « هي » الآن ! ..

*

لا ريب عندي في ان مأدبة الثالث والعشرين من نيسان قد استنفدت كثيراً من خزانة الشمبانيا في قصر اللادي فلورا .

وابتدأ الرقص في العاشرة من المساء ، وكان الجلوس حول المائدة يبلغون أربعين من المدعوين . وكانت اللادي فلورا في معطف من القطيفة الوردية اللون . وأما انتيوب فكانت في ثوب من الحرير الاسود .

وكنا نستمع الى حديث القائد البحري روزل توار في ترالي

وكان يتكلم عن الحادث الذي شغل أذهان الناس منذ يومين .

قالت اللادي فلورا : اذن لقد كان في النية أن ترسو تلك السفينة المحملة بالذخائر على ساحل هذه المدينة ؟

فأجاب القائد : هذا لا شك فيه يا سيدتي . فقد اعترف ربانها بذلك وسلمت السفينة نفسها بلا مشقة . واستسلم ضباطها وبحارتها للقدر كأنما أرادوا أن ينتهي الأمر على إحدى الحالتين .

فقال ريجنالد : على أية حال ، لم تكن الفكرة حسنة أيها القائد إذ بعثت بالسفينة لتلقي مراسيها في كوينستون فلو أنك أبقيتها راسية في مياه ترالي لما كان لديها متسع من الوقت لإغراق نفسها في اليم .

فأجاب القائد : لم تكن الفكرة يا عزيزي فكرتي بل تلقيت الأمر بذلك من الاميرالية بعد أن أعلنتها بالنبأ ، ولم تغرق إلا وهي على قيد خطوات من الميناء .

إذ ذاك رفع البارون ادزومي يده كعادته عندما يريد الكلام وقال : أتأذن لي بسؤال يا سيدي القائد ؟

قال هذا : تفضل يا سيدي .

فقال البارون ادزومي : نبئني أية فائدة للحكومة البريطانية من ترك هذه السفينة تغرق .

فأجاب القائد روزل توار : أتسألني أية فائدة ؟ أتريد ان تضحك يا سيدي ؟

فأجاب البارون ادزومي: بل انني أجدّ في سؤالي . أية فائدة لها من ذلك ؟

فقال القائد : لم يكن من مصلحتنا أن ندع السفينة تختفي في اليم . بل على النقيض من ذلك ، كان هـــذا نتيجة الاهمال في المراقبة .

فأجاب البارون ادزومي : ان انكلترة ليست أمة من الأمم التي تهمل المراقبة ، فإذا غرقت سفائن من سفن العدو كانت في قبضة يدها ، فان هذا الخطأ لا بد من أن يكون قهرياً يا سيدي القائد . ألا تتكرم عليّ إذن يا سيدي بالصفح عن سؤالي ؟

وكان الدكتور جروتلي يجلس بجانبي ، فلما انتهى البارون من كلامه غمزني بمرفقه وقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

– انظر هذا الرجل القزم الذي كان يصح أن يكون وسيط الصلح بين الانكليز والفرنسيين في حادثة فاشودة ، ولكن لحسن الحظ لن يكون بين الأمتين اليوم شيء من سوء التفاهم القديم . مرحى ، مرحى . تعال نسمع هذا السيد الذي سيتكلم فأية حماقة ستطرق الآن أسماعنا !

وكان الدكتور جروتلي يريد بهذا القول الكولونيل هارتفيلد ، وقد تبين لي من قبل ونحن جلوس إلى العشاء أن الدكتور لم يكن يشعر نحو هذا القائد بشيء كبير من الإعجاب .

قال الكولونيل : إذا كان للبحرية نصيب في العمل « في هـذا الحادث ، فقد كان للجيش كذلك .

قال ريجنالد فرحاً ، نعم ، هو ذلك . حدثنا إذن عن كيفيـة القبض على السير روجر فأنه والله حديث شائق .

أجاب الكولونيل : نزل السير روجر الى البر في اليوم العشرين

من نيسان وكان قادماً على ظهر غواصة ، وكان نزوله في ساعة ومكان معينين . فجعل يمشي تحت عاصفٍ من المطر في الحقول حتى منتصف الليل . وفي صبيحة اليوم التالي، كان في ترالي ، وقد التقى بأناس كثيرين سيستجوبون قريباً ، ولكن لم يلبث رجالي أن قبضوا عليه في ناحية « اردفير » نعم . لقد وقع في الفخ . انني اسأل الكونتس دي كندال الصفح اذا أنا تكلمت هكذا أمامها، عن رجل قد تحمل له شيئاً من الود !

فقالت اللادي فلورا دهشة : وهل تعرفينه يا عزيزتي ؟

فأجابت انتيوب بلهجة استخفاف بديع : أتسألينني هل أعرف السير روجر كيسمنت . اني أعرفه بلا ريب فقد اتفق لي أن رأيته عدة مرات قبل الحرب .

فوثب الفتى ريجنالد من مجلسه وصاح : يا للغرابة ! ولكنك لم تحدثيني عنه يوماً من الأيام يا عزيزتي انتيوب ، فما السبب ؟

فأجابت انتيوب بابتسامة ساحرة : لأنني لم اكن أحزر اذ ذاك ان الحوادث ستجعل منه رجلاً خطيراً الى هذا الحد .

فقالت اللادي فلورا : وأيّ رجل ُيعدّ السير روجر هذا ؟

فأجابت الكونتس دي كندال : رجل ككل الرجال . وعلى ذكر ذلك أرجو أن تصفح عني يا كولونيل هارتفيلد اذا أنا قلت ان حكومة جلالة الملك هي المسؤولة عن هذه الكراهية التي كان يحملها السير روجر في فؤاده من نحوها، والحقد الكامن في نفسه عليها ، فقد كان موظفاً في الحكومة، ولكن يلوح لي أنه لم يُنصف ولم يعط ما يستحق !

فانبرى الماجور ستانتون يقول :

— نعم ، هذه هي الحقيقة . لقد كان السير روجر يخدم في السفارات الانكليزية ، ولكن الحكومة لم تنظر اليه نظرة العدل ولم تمنحه من المناصب ما يلائم مواهبه .

فقالت الكونتس دي كندال بلهجة استخفاف اليم :

— لأنه ارلندي الأصل !

فصاح الكولونيل هارتفيلد : حكم قاس ، ورأي فائل ، وظلم مجحف ، أنت يا سيدتي أيضاً أرلندية الأصل، ولكن هذا لا يمنع مطلقاً من قول الحقيقة بصراحة على رؤوس الأشهاد ، وهو أن اللادي أنتيوب أجمل سيدة في المقاطعة كلها .

فهزّ الدكتور جروتلي كتفيه وتمتم يقول :

— يا له من أحمق !

وأما اللادي فلورا فضجت ضاحكة وقالت : هذا قول يسرني السرور كله ، ولكني لست أحس بالغيرة يا سيدي الاستاذ جيرار مرحى يا كولونيل مرحى . وأنت يا انتيوب ، ماذا تنتظرين ؟ ألا تشكرين الكولونيل على قوله ذاك ؟

فقال الكولونيل : انها مغضبة مني يا سيدتي العزيزة . انهـــا مغضبة مني . فهل تعرفين السبب؟ ذلك لأنني جعلت أسائلها ونحن نرقص الليلة سوياً عما إذا كان غداً هو موعد تحقيق نبوءة دونيغال!

إذ ذاك أخرج الدكتور جروتلي ساعة من جيبه فنظر فيهـا وهمس إليّ يقول :

— الرابعة إلا عشرين دقيقة . هل تعلم ماذا يحدث الآن في

دبلن بينا هذا المهذار الماجن يحدث النساء هذه الأحاديث الكاذبة المنافقة ؟ هناك في دبلن الآن أربع فرق من المتطوعين تتلقى أوامرها استعداداً للثورة في الغد ، إذا أذنت الساعة العاشرة !

وفي هذه اللحظة ملأ الكولونيل هارتفيلد كأسه بالشمبانيا ومس بها كأس الكونتس وعاد يكرر سؤاله مسروراً فرحاً بدعابته ومزاحه :

– هل إلى الغد إذن ؟ هل إلى الغد ؟..

وقالت اللادي فلورا في أثره : ألا كف يا كولونيل عن مضايقة أنتيوب، وتعال هنئني على هذه الآنية البديعة التي وصلتني أخيراً من باريس .

فهتف المدعوون من كل ناحية : انها لجميلة متقنة الصنع !

وانتهى إذ ذاك العشاء فنهض بعض المدعوين ،وتثاقل الآخرون في المقاعد ، وأزاحت اللادي فلورا كرسيها بجانبي ، ومدت ذراعها العارية بلا كلفة فوق كتفي ، وكانت انتيوب جالسة في مقعد طويل تضحك لاهية بأحاديث الكولونيل هارتفيلد ، وكان ذلك الضابط الجميل ممسكاً بإحدى يديها يقبلها ويلثمها على مرأى من الفتى ريجنالد ، وهو ينظر اليهما في دهشة وتذمر وألم ، وكلما مدت اللادي فلورا ذراعها حول عنقي ، كان يخيل إليّ ان انتيوب كانت تمد يدها إلى شفتيْ الكولونيل الأغيد ليطبع عليها لثماته الحارة.

قلت لصاحبة القصر : أتسمحين لي ؟

ونهضت من مجلسي وتقدمت إلى المائدة التي وضعت عليها زجاجات الوسكي ،وهناك رأيت الدكتور جروتلي يجرع الاقداح

مع الاستاذ هنريكسون وبضعة ضباط من الجيش وآخرين من البحرية ، وكان الجميع يلوحون ثملين قد لعبت برؤوسهم الخمر ، إلا الدكتور جروتلي فلم يكن ثملاً .

فتناول الدكتور ذراعي وغمز بعينه يشير إليّ أن ألقي نظرة على الكولونيل هارتفيلد ، وكان هذا واضعاً يده فوق فؤاده يحدث الكونتس دي كندال ويشرح لها السرور الذي سيتولاه إذا الثورة وقعت ، بأن يطلق سراحها ويفر بها إلى بلد بعيد !

وجعل يقول لها مبتسماً : انني في أعماق قلبي لست بالجندي وليس لي من الجندية غير ثوبي العسكري هذا . ولكني في قرارة نفسي شاعر . نعم شاعر عبقري !

فتمتم الدكتور جروتلي قائلاً : يا له من سكير شرير . انني كلما فكرت في انه قرأ تقاريري التي أعلنتها بأن الثورة ستكون غداً، ثم أراه مستخفاً كما ترى لاهياً لا يحفل بشيء، يجن جنوني. يا له من جنديّ أحمق أبله !

وأخرج ساعته مرة أخرى ثم قال :

– الساعة الآن الرابعة والثلث. انني لا أدري ما باعث هذه لاناة . ان القطار الذاهب إلى دبلن يغادر ترالي في الساعة السادسة . لهم الله . أيريدون أن يساقونا إلى المعركة والمتاريس بأثواب العشاء !

وفي هذه اللحظة بعينها جاء أحد غلمان القصر فدنا من الكونتس دي كندال وانحنى يكلمها في همس .

فتهللت أسارير الدكتور جروتلي بابتسامة الفرح وقال :

– آه ها هو المسيو رالف قد حضر . انه الدقة مجسمة . لقد كدت أكون ظالماً له في حكمي . ألا انظر إلى الحديقة . هناك تحت وابل المطر . ها هي المركبة قد أقبلت ، ورالف فيها .

*

وكانت هناك مركبتان فوثب إلى إحداهما الكولونيل هارفي والبارون ادزومي والاستاذ هنريكسون والدكتور جروتـلي . ودعتني انتيوب إلى الركوب معها في الأخرى وأشارت إلىرالف أن يصعد معنا . وما كدنا نجتاز باب القصر حتى قالت انتيوب :

– لقد كنت في قلق يا رالف . ألم نتأخر ؟

فأجاب الوصيف : ليهدأ بال مولاتي . لقد استبقنا الميعـاد بخمس دقائق .

فلما وقفت بنا المركبة أمام قصر كندال كانت قد بقيت عشرة دقائق حتى تدق الخامسة ، فأسرعت انتيوب الى مخدعها، وانتظر مسيو رالف حتى يجتمع أعضاء البعثة كلهم في الردهة . فلما وصلنا جميعاً ، خاطبنا بصوت هادىء ولهجة احترام فقال :

– أيها السادة . لقد عهد إليّ صاحب السمو الكونت دانتريم أن أؤكد لكم ما علمتموه من قبـل . فاليوم سيبدأ القتـال في دبلن ، وسيقوم الصراع العنيف في سبيل ارلندة ضد انكلترا العظيمة . ذلك الصراع الذي وددتم باسم وطنكم وبلادكم أن تشهدوا روعته وجلاله ، وصدق النية فيه ، ونحن الآن مرتحلون إلى دبلن . أيها السادة ، لقد أعدت المعدات كلها لمن يشاء منكم أن يكون معنا .

فأجاب الكولونيل هارفي : اننا مسافرون جميعاً عدا السناتور بار كيلبدرو بالطبع . ولكن قبل أن ننطلق ينبغي أن نرتدي بأثواب السفر .

فأجاب المسيو رالف : حسناً أيها السادة . والآن ائذنوا لي أن أنبئكم بالخطة التي ستسير عليها رحلتنا منذ الآن ، وأتوسل اليكم أن تمتثلوا لها وتعملوا على اتباعها. نحن الآن في الساعة الخامسة وستصعدون الآن الى حجراتكم لتعدوا معدات السفر ، وستتكرمون بالنزول في منتصف السادسة . فتبقى أمامكم فسحة نصف ساعة تستطيعون فيها أن تتناولوا فطوراً خفيفاً، وتودعوا صاحب السمو الكونت دانتريم ، فاذا دقت السادسة ..

فقاطعه الدكتور جروتلي قائلًا : ولكن القطار يغادر ترالي في السادسة تماماً ونحن على مسيرة ستة أميال من المحطة .

فاستمر الوصيف في حديثه غير آبه بكلمات الدكتور جروتلي:

– ففي الساعة السادسة سنغادر القصر في السيارات فنلحق بالقطار بعد اربعين دقيقة في محطة ليستوفيل . وها أنا في انتظاركم أيها السادة .

وجعل الدكتور جروتلي يقول لي ونحن صاعدان السلم وكان لا يزال يعرج في مشيته : حسن جداً ، كل هذا بديع . لقد غيّر القوم مشاربهم . لقد مضى زمن كان أهل هذا القصر يجزعون من ركوب السيارات ويتولاهم الخوف اذا ذكرت أمامهم .

وارتديت بسرعة ثوب السفر واعددت جعبتي ثم اطفأت النور ونزلت مسرعاً . ورأيت الدكتور جروتلي في قاعة المائدة،

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى وافانا اليها الكولونيل هارفي والبارون ادزومي . وكان الكولونيل يحمل في يده رسالة وصلت من السناتور باركيلبدرو يخبرنا فيها أن عمـة عجوزاً له ماتت واضطر الى تأجيل السفر . فقال الدكتور جروتلي :

– اكبر ظني أن يكون السناتور يريد مضاعفة نفقات السفر على الموائد الخضراء في مونت كارلو وضواحيها .

فلم يجب احد على دعابته ، وفي الحال دخل مسيو رالف وهو يحمل ورقة في يده وقال :

– تكرموا أيها السادة بالتنازل بكتابة عناوينكم التي تريدون أن تُرَدّ اليها أمتعتكم اذا قدر الله أن يحدث أمر خطر اليم .

فكتبنا كما أراد وكنت أنا آخر من كتب فذكرت عنواني بدار الصحافة ، معتقداً ان الفتى لابولبين سيتولى استلام جعبتي .

ولمحت مسيو رالف في ثوب ضابط من المتطوعين وقال :

– أيها السادة تفضلوا !

ومشينا في أثره صامتين .

وكان الكونت دانتريم في انتظارنا في البهو وكانت هذه هي المرة الأولى التي استقبلنا فيها في تلك الحجرة .

ورأيت خلفه الكونتس دي كندال مستندة الى ظهر المقعد . وكانت هي أيضاً في ثوب قصير قد ارتفع عن ساقيها فبدتا في نعلين عاليتين من الجلد الاصفر وهي تحمل شملة المتطوعين وقد تنكبت نطاقاً من الجلد علقت فيه مسدساً .

ولم يفه الكونت دانتريم الا ببضع كلمات . وشعرت وهو

يتكلم انه كان في أشد انفعالات العاطفة الانسانية ، وقال :

– سادتي . ان الحوادث التي تعرفونها أوشكت الآن أن تقع . فاذهبوا وتطلعوا وراقبوا . ولست أطلب اليكم الا أمراً واحداً . وهو أن تخبروا العالم كله بما سترون، فان ارلندة ليست بحاجة الى أكثر من ذلك .

قال هذا وصافح كلاً منا بيده فلما بلغني قال : « ان أشجار الحديقة في حمامات اكس في هذا الفصل من العام قد نضرت وأورقت واينعت أغصانها . أنني أحب بلادكم أشد الحب » .

وهنا التفت الينا جميعاً وقال : « وداعاً أيها السادة » .

وبإشارة من يده أعلن أنه يريد أن يبقى وحده مع انتيوب . وكانت الساعة السادسة الا عشر دقائق ..

*

ووصلنا ليستوفيل في الساعة السادسة والدقيقة الاربعين ، في اللحظة عينها التي وصل القطار فيها من ترالي .

وانطلق القطار بنا بعد ثلاث دقائق يريد بلدة « ليباريك » ، وقد حجزت لنا حجرتان في المركبة فجلست الكونتس دي كندال في الأولى وصعدنا نحن الاربعة معها . أما مسيو رالف فجلس في الثانية مع ويليام وخادمين آخرين من غلمان القصر وهما جيمس ودافيد. وكانوا ثلاثتهم في أثواب عسكرية كذلك ومعهم أيضاً بندقياتهم .

وساد السكون في المركبة التي جلسنا فيها ، وكانت انتيوب واجمة شاحبة اللون ، لا تستطيع كلاما . وأما الدكتور جروتلي

فقد آلمه ذلك السكون الرهيب فلم يستطع أن يعاود دعاباته وكلماته الحمقاء .

وفي ليباريك تثاقل القطار قليلاً ، وكان وصوله الساعة التاسعة وخمس دقائق ، ولم يكن ميعاد مغادرته تلك المحطة الا في الساعة العاشرة وربع فجلست الكونتس دي كندال في مقعد من مقاعد قاعة الانتظار .

وانتبذ الخدم ، ويليام وصاحباه جيمس ودافيد ، ناحية قصية من الحجرة وشرعا يلعبان الورق ، تلهياً قبل قيام القطار . وكان الجنود الانكليز الذين يشتغلون في المحطة ينظرون اليهم نظرة الحاسد .

فدنا الدكتور مني وكنت أحاول دائماً أن أتهرب منه ، وكان هو يأبى الا أن أكون على عينيه ، فأمسك بذراعي ، وقال وهو يشير الى اولئك الجنود حراس المحطة : « ألا انظر الى هؤلاء الاغبياء . انهم يرون هؤلاء القوم وهم حاملون البندقيات التي ستقتل بعد ساعات قلائل رفقاءهم وصحابهم ، ولا يعبأون بهم ولا تثور في نفوسهم الدهشة لرؤيتهم . ألا انظر انهم يلعبون الورق أمام أعينهم . ولكن أية لعبة يلعب هؤلاء الاشقياء إذ يخيّل إليّ انني أعرف تلك اللعبة .

قال ذلك ومشى إلى المكان الذي كان يجلس فيه أولئك الخدم ورأيته يحدثهم وقد وقفوا لمّا دنا منهم وهم في خجل ، وجعلوا يتمتمون بكلمات لم أستطع أن أسمعها ، ثم جلسوا وهم في قلق ، وجلس الدكتور كذلك ، وانطلق يلعب الورق معهم .

ولما دقت العاشرة نهض الدكتور فتقدم صوب مسيو رالف وكان هذا يحدثني ، فقال :

– أرجو ألا أزعجك يا مسيو رالف إذا أنا جلست معكم في حجرتكم في القطار فقد بدأت مع هؤلاء الخدم في لعبة الورق وأريد أن أتمها .

فأجاب مسيو رالف منحنياً باحترام: ليكن كما تشاء يامولاي.

فاستطرد الدكتور في حديثه يقول : أما وقد قبلت فانني أريد أن تكون اللعبة تامة جميلة فان هذا الورق الذي يلعبون به لا يصلح لأن يلعب به .

فأجاب مسيو رالف : توجد في هذه الساحة دكانة ستجد فيها يا مولاي ما تريد من ورق اللعب . ولا يزال لديك متسع من الوقت فان القطار يغادر المحطة بعد ربع ساعة .

فخرج الدكتور وفي اللحظة عينها سمعت مسيو رالف ينادي بصوته الساكن : ويليام !

فهرع الخادم نحوه على النداء ، فقال مسيو رالف :

– تعال معي يا ويليام فأن لديّ كلمتين أريد أن أقولها لك.

ومشى به إلى ناحية بعيدة من قاعة الانتظار . ومضت خمس دقائق فعاد الرجلان ، وكان وجه الوصيف ويليام مكفهراً قاتماً مرعباً . قال مسيو رالف : هلم عد إلى رفاقك يا ويليام .

وفي تلك اللحظة لاح الدكتور جروتلي عائداً إلى قاعة الانتظار ، وعلبة ورق اللعب في يده ..

كانت الساعة الحادية عشرة ، والقطار يطوي الأرض مسرعاً

يصفر صفيراً متواصلاً .

ورأيت باب الحجرة الاخرى قد فتح بغتة ثم أغلق في لحظة وسمعت صوت شيء غريب اصطدم بالصخر الممتد على الجسر ، شيء أشبه بغرارة ملأى ثقيلة الحجم ثم ساد السكون ثانية .

فتحت نافذة المركبة واطللت أنظر ولكن كان القطار قد انعطف في ناحية أخرى فلم أرَ شيئاً .

وتبين لي من ذلك أمر واحد ، ذلك أن سويسرة لم يعد لها من يمثلها في تلك البعثة !..

لقد اختفى الدكتور جروتلي من عالم الحياة ..!

وفي محطة « باليبروفي » إذ وقف بنا القطار في منتصف الثانية عشرة ، بدا مسيو رالف أمام باب الحجرة وقال : ها نحن قد وصلنا .

ودعانا إلى النزول من القطار فتولتنا الدهشة إذ كان لا يزال بيننا وبين دبلن عدة أميال ، ولكن الكونتس قالت :

— هل السيارات على استعداد يا رالف ؟

فأجاب الوصيف : نعم ، ها هي حاضرة .

وكان المطر شديداً . وفي باحة المحطة كان رجلان في الثياب العسكرية ينتظران فلما شهدا مسيو رالف ، أسرعا اليه فصافحاه باليدين . قال الوصيف لأطولهما قامة : انني أرى يا جورج أن كل شيء سائر على أحسن حال .

فأجاب الرجل : نعم ، يا مسيو رالف . كل شيء على استعداد .

قال الوصيف : ونداء الدعوة ؟

فأجاب الرجل : أرسل اليوم في الرابعة .

قال : والفرق ؟

فأجاب : ستتخذ أماكنها في العاشرة من المساء .

ثم تمهل جورج قليلاً وقال بحياء وخوف : وأين مولاتنا ؟

فأجاب مسيو رالف وهو يشير إلى الكونتس : ها هي !

فرفع الجنديان قبعتيهما احتراماً ، وكانا في أشد حالات التأثر أمام الكونتس .

قال مسيو رالف وقد وقف أمام سيارتين كبيرتين وقفتا في ساحة المحطة : أهاتان السيارتان لنا ؟

فأجاب جورج : نعم . يا مسيو رالف .

قال مسيو رالف وهو يتطلع الى السيارتين : مرحى يا عزيزي لقد احسنتما صنعاً ، ولكن هاتين السيارتين من سيارات الحكومة .

فأجاب جورج : لم تخطىء عن الأولى . فتلك السيارة سيارة الحاكم العام . وقد استعارها ميشيل في هذا الصباح اذ كان السائق في الكنيسة يؤدي فريضة الصلاة .

قال مسيو رالف : وهل هي سريعة في سيرها ؟

فأجاب الجندي : سنكون في دبلن بعد ساعة .

فقال مسيو رالف : نحن الآن في منتصف الثانية عشرة . بديع جداً .

وقال الجندي جورج : أما الأخرى فلا تقل عنها في السرعة كثيراً ، وستصل بعد الأولى بنصف ساعة فقط . وهذه السيارة ملكنا الخاص .

قال رالف : حسناً . هيا بنا .

ومد ذراعيه وقال يخاطبنا : المركبة الأولى أيها السادة تتسع لأربعة ركاب فقط ، فهل منكم من لا يؤلمه أن يتأخر نصف ساعة عن الوصول ؟

فأجاب الاستاذ هنريكسون : أنا . أنا فلا يهمني أن اتأخر بضع دقائق فان ذلك خير لي من أن اكسر احدى ساقيّ أو أجندل طريحاً في الأرض .

قال رالف : حسناً . اذن تفضل يا سيدي الى السيارة الأخرى التي يسوقها ميشيل ، وأنتم أيها السادة تفضلوا الى المركبة الاولى .

وكان قد وثب في تلك اللحظة الى مكانه بجانب الجندي جورج أمام المحرك . فصعدت أنتيوب أولاً وتلاها البارون ادزومي ووثبت بعدهما . وهمّ الكولونيل هارفي بالصعود ولكنه وقف بغتة ونظر حوله ثم قال :

— مالي لا أرى الدكتور جروتلي بيننا ؟

فضرب مسيو رالف جبينه بيده وصاح : رباه ، لقد نسيت . فقد أصر الدكتور جروتلي على أن ينزل في القطار في محطة « روسكريا » ليشتري برتقالاً ، وقد انذرته بأن القطار لن ينتظر اكثر من دقائق ثلاث ولكنه لم يكن ليستمع لنذيري ..

فاكفهر وجه الكولونيل هارفي وقال : ها هي بعثتنا قد اصبحت اربعة أعضاء فقط . يا لله . ستفقد أمتان خطيرتان وهي اسبانيا وسويسرة من يمثلهما في هذه المهمة ..

فقاطعه مسيو رالف بأدب قائلًا : هلموا بنا ، انطلق بالسيارة !

وجرت بنا المركبة ولم تلبث منازل تلك البلدة الصغيرة أن اختفت عن الانظار .

ووقفت بنا السيارة وفتح مسيو رالف لنا الباب وقال :

— وصلنا !

فوثبنا الى الارض . وكان الكولونيل هارفي يعرف المدينة فجعل يذكر لنا أسماء شوارعها وقال :

— لاليفي ، ثم تمثال أوكونيل ، ثم شارع باتشيلرز .

وقال مسيو رالف : تفضلوا بنا أيها السادة ولنسرع !

وكان في الشارع باب بيت مفتوح فقال الوصيف لأنتيوب :

— انهم ينتظروننا هنا يا مولاتي في دار كيلي ، ولكننا بعد ذلك ، عند ما تؤذن الساعة ، سنذهب الى « ليبرتي هول » .

ودخلنا البيت وللحال سمعنا صيحة فرح ودهشة وصوتاً يقول :

— آه أنتيوب حبيبتي العزيزة . ها أنت هنا . ما أسعدني اليوم بلقائك !

واذ ذاك بدت سيدة فارعة القوام ذات جمال رائع ، ارتدت هي أيضاً بالثوب العسكري ، وأخـــذت أنتيوب في احضانها وجعلت تعانقها مراراً وهي تكرر قولها « ما أسعدني برؤيتك ، ما دمت هنا فان الله معنا » !

وهمس رالف في أذني يقول : الكونتس ماركيفكز .

وقالت أنتيوب لصديقتها ؟ لقـــد أتاح لي حسن الحظ أن جئت في الميعاد . ألا تدرين انني منذ ساعات كنت في ثوب المساء وزينة المأدبة ، أسمع تغزل قائد انكليزي !

وخيّل اليّ في تلك الساعة ان صوت الكونتس دي كندال ولهجتها وأخلاقها قد استحالت إذ ذاك إلى مسرح غريب ، وفرح موحش .

وفتحت الكونتس ماركيفكز باباً وصاحت بصوت مرتفع:

– ابنة الكونت دانتريم أيها السادة !

وسمعنا ضجة مقاعد تتحرك من أمكنتها وقد نهض بضعة عشر رجلًا من مجالسهم يستقبلون الكونتس .

ودخلنا حجرة رحيبة مغلقة النوافذ قليلة الضوء لا ينيرها غير مصباحين فقط ، وفوق الجدران خرائط وصور ، وعلى مائدة هناك انتشرت خريطة دبلن ، وفي ركن من الحجرة أدوات التليفون .

وتولت كل من السيدتين صيغة التعارف ووقف مسيو رالف من خلفي يكرر الأسماء في أذني ، فلما ذُكِر اسمه نظر الجميع اليه نظرة الفخار به والإعجاب . وبدا لي ان اقتراب المعركة، ودنو موعد القتال قد رد هذا الرجل الصموت محدثاً كثير الكلام والابتسام .

أنتم أيها الزعماء الكبار : كلارك ، وايمون سني ، وماك ديارمادا ، وأنت يا ماكدناغ ، وأنت يا بيرسي. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها أسماءكم يوم احتوتني تلك الحجرة، أسماءكم التي كانت بالأمس مجهولة ضئيلة لا تُعرف ، وغداً ستضيء بشعلة المجد وضياء الفخار . أسماءكم التي أصبحت الفتيات والعذارى الارلنديات يحملنها في كتب صلواتهن مطبوعة بجانب

اسم الله ، إذ هن ذاهبات يوم الأحد مسرعات تحت صيّب من المطر إلى كنائس قراهن الصغيرة !

وجاؤوا متعاقبين ينحنون أمام أنتيوب انحناءة الاكبار والاحترام ، وكان كثيرون منهم يعرفونها ، واثم الجميع يدها واحداً بعد الآخر .

وأشارت الكونتس ماركيفكز إلى رجل منهم كان منتبذاً ناحية من الحجرة ، وهو فتى نحيف شاحب اللون تبدو عليه دلائل الحياء والزهو معاً وعيناه تتقدان ناراً ، ثم قالت :

— مسيو دي فاليرا ، لماذا لم تتقدم فتؤدي أنت أيضاً فريضة التحية للكونتس دي كندال ؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ووقف رجـــل على العتبة وهو يقول بفرحة الثمل : « حسناً لقد أصبحت الساعة الواحدة إلا عشر دقائق » .

فهمس إليّ مسيو رالف يقول : « مسيو جيمس كونولي » ، وكنت أعرف قصة هذا الرجـل فهو الزعيم الاشتراكي ، رئيس « ليـبرتي هول » غرفة العمال في دبلن ، وهو الذي أنشأ هـذا الجيش الكبير من المتطوعين .

وقف ذلك الرجل وعلى وجهه نور الايمـــان بمبدئه ، وهو مشبك الذراعين ، وعاد مسيو رالف يهمس في اذني :

— ألا انظر اليه طويلاً يا مسيو جيرار ، فانك لن تجد رجلاً على طرازه في العالم كله . اللهم الا في المانيا وحدها . هـذا الوطني الحار المتقد زعيم العمال . فقد جعلنا من هذا الرجل قائداً لجنودنا

ولن تجد أحداً منا عليه نادماً .

والتفتت اليه الكونتس كونستانس ماركيفيكز وقالت :

— جيمس .. تعالَ ! ..

ودارت بعينها نحونا وقالت تخاطبنا : لقد كان يفتخر بأن ينادي الكونتس دي كندال « بالسيدة المتحضرة » ألا تقدم يا جيمس . تقدم وبرّ بوعدك .

فمشى جيمس كونولي وهو في ارتبـاك صوب أنتيوب . ولكنها أسرعت تتقدمه فهبطت بين ذراعيه تعانقه ، وقد ابتسم الجمع ، واختلطت دموعهم بابتساماتهم . وقال كونولي :

— أيها السادة . الى تليفوناتكم !

ثم تمهل وقال : افتحوا النوافذ !

ففتحت النوافذ وكانت تطل على شارع لاليفي ، وصاح بيرس :

— دقيقتان ثم تدق الساعة الواحدة !

وقال كونولي في أثره : الاشارة الآن !

وتقدم الى ركن في الحجرة فتناول بندقية كانت هناك فعمّرها بيده ثم قاد أنتيوب الى النافذة . ووضع البندقية بين يديها .

ودقت الساعة المعلقة فوق الجدار الواحدة ، تلك الساعة التي ولدت فيها ، اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٨٨١ ، تلك الفتاة الموعودة منذ ستة قرون في تلك النبوءة المدهشة .

وكان جندي انكليزي جالساً في تلك اللحظة قبالة البيت وهو سارح الذهن ، لم يلحظ البندقية الممتدة نحوه .

وللحال ارتعدت أنتيوب اذ لمحت عموداً من الخشب قد ركب

في رأسه العلم الازرق الاحمر : العلم الانكليزي !
وفي وميض البرق انطلقت القذيفة فاصابت سناد العلم !
ودوت أصوات القذائف من كل صوب ..
لقد بدأت المعركة ! ..

ايبرس أخرى في ارلندة

قال البارون ادزومي : هل أستطيع ان أحصل على لوحات زجاجية لهذه الأداة التي أصور بها المشاهد . فقد استنفدت كل ما كان لديّ منها .

فنظر اليه مسيو رالف وأجاب بابتسامة استخفاف :

ـ ان الحوانيت مغلقة بالطبع في هذه الساعة .

ومشى ومشينا في أثره ، ثم قال الاستاذ هنريكسون وكاد يقف عن متابعة السير :

ـ إلى أي مكان تسوق بنا ؟

فأجاب مسيو رالف : إلى حيث أمرت أن أسوقكم !

واعتصمت أنا بالسكوت فلم أسأل ولم أتكلم ، بل كنت مشغول الذهن ونحن نسير في ليلة مظلمة ، بتذكر معالم الطريق التي كنا نمشي فيها ، لكي أستطيع عند الضرورة أن أعود منها .

وكانت أصوات البنادق والمدافع تدوي في شرق المدينة وجنوبها ، وكنا نسير قبالة الشمال منها .

وكانت السماء فوق رؤوسنا حمراء من أثر النيران التي اندلعت

ألسنتها في أنحاء دبلن ، وظلت نهاية الطرق مظلمة رهيبة المنظر .

ولم ينقطع الاستاذ هنريكسون عن التسخط والتمتمة وكان يقول :

– كان ينبغي لهم أن ينذرونا قبل وقوع هذه الحوادث ، حتى أذكرها في تقاريري ولكن ...

فقال مسيو رالف بصوت جاف : سكوتاً من فضلك !

ووقفنا أمام باب بيت مظلم ساكن في شارع مقفر لا نور فيه ، فأخرج مسيو رالف مصباحه الكهربائي وأشعله ثم قال بصوت خافت :

– لقد بلغنا المكان .

ودق الباب ، بينما تساءل الكولونيل هارفي :

– أين نحن الآن؟.. قريباً من شارع الكنيسة أليس كذلك؟

فأجاب مسيو رالف ، وكان يخص المندوب الامريكي دائماً باحترامه وعنايته : لسنا بعيدين عنه . فنحن الآن أمام رقم ١٧٢ شارع نورث كنغ .

وسمعت حركة في المنزل ورأينا بصيصاً من النور قد اقترب من الباب . فدقّ مسيو رالف ثانية ونادى : مسيو هيو . ألا تسمع ؟ مسيو هيو !

فأجابه صوت من الداخل : سأفتح يا سادتي سأفتح !

وطرق أذني اذ ذاك صوت أقفال ومزلاج حديدي ، وانفتح الباب أخيراً ودخلنا نمشي في أثر رالف الى حانوت صغير . وقال مسيو رالف :

– عمّ مساء يا مسيو هيو . هاك السادة الذين أمرت من قبل الحكومة الجمهورية بأن أقودهم الى منزلك . فـلا حاجة بك الى وضع الأقفال والمزلاج ثانية في أماكنها ، فانني خارج بعد لحظة.

فقطب مسيو هيو حاجبيه ولم أتبين منه اذا كان قـــد سره قدومنا أم وجد ذلك ضريبة ثقيلة عليه ، على أنه لاح لي رجلًا ساذجاً في الستين ، وقال مسيو رالف يحاوره :

– ألم يكن لديك خبر بقدومهم من قبل ؟

فأجاب الرجل : خبر ! نعم . لديّ به علم ، ولكن ..

فقاطعه مسيو رالف قائلًا : ولكن ماذا ؟

فأجاب الرجل برنة حزن : لسنا الا ّ تجاراً صغاراً ولم تمض علينا الا ّ أيام ثمانية في هذا المنزل وأخشى ألا يجـد هؤلاء السادة كل مطالب الراحة .

وقال الاستاذ هنريكسون في أثره : انني أخشى ذلك أيضاً .

ومضى يتلفت في الحانوت ويلقي فيه نظرات استياء وسخط .

ولكن مسيو رالف أجاب صاحب الحانوت بلهجة خشنة :

– اطمئن فان هؤلاء السادة يرضيهم القليل من وسائل الراحة ، وليس من الصعب ارضاؤهم .

قال ذلك وولى ظهره للاستاذ هنريكسون والتفت الينا يقول :

– سيدي الكولونيل ، وأنتم أيها السادة ، انني جئت بكم الى هذا المكان مؤتمراً بأمر مسيو بيرس رئيس الحكومة المؤقتـة ، فانه يرى انه لا فائدة من تعرضكم لأخطار القتال اذا أقمتم بجوار مركز القيادة ، وهو الآن مركز جنودنا المتطوعين ، ولكن هذا

الشارع في الوقت الحاضر لا يزال بعيداً عن منطقة القتال، ولذلك التمسنا الى مسيو ميشيل هيو صاحب هـــذا البيت بأن يحسن وفادتكم ويضيفكم لديه . وما ذلك الا لأن حكومة الجمهورية أيها السادة تريد أن تجعلكم في مأمن من كل خطر . وقد عهدت اليّ بأن ارجوكم بألا تخرجوا من هذا البيت حتى يصبح ذلك ممكنا ، ففي الساعة الثامنة من صباح الغد سأحضر لأسير بكم الى أماكن من المعركة تستطيعون منها أن تؤدوا واجب الشهود العُدُول . فمن الآن الى الغد، خذوا الليلة راحة وسكوناً فلعل الليالي التالية ستكون أليمة مفعمة بالقلق والجزع .. يا مسيو هيو !

فأجاب هذا : سيدي !

قال مسيو رالف : اكبر ظني أنك قد أعددت عشاء لهؤلاء السادة ؟

فأجاب الرجل : ان زوجتي الآن تعد المائدة يا سيدي .

فقال مسيو رالف : حسن جداً . والآن اصغ اليّ ... ان هؤلاء السادة ليسوا مرتبطين بالسين فين ولا هم كذلك بالارلنديين، فلن يصيبك سوء مُقامهم في بيتك بل بالعكس ..

فقاطعه مسيو هيو قائلًا : بل بالعكس ماذا ؟..

فمضى مسيو رالف يتم كلمته : بل بالعكس يا مسيو هيو ان وجودهم في منزلك سيكون أماناً لـك ولأهلك ، إذا قدر الله ووقع ما ليس بالمنتظر ، ألا تستمع إليّ يا مسيو هيو ، إذا وقع ما ليس بالمنتظر ، وسارت الأمور على غير ما كنا نحب . والآن ليس لديّ ما أقوله . إلى الملتقى أيها السادة ، غداً في الثامنة !

قال هذا وانسل من الباب مسرعاً ولم يلبث أن اختفى .

ومشينا في اثر مسيو هيو إلى الحجرة التي في خلف الحانوت ، وهي مزدانة بالصور التافهة والتحف الرخيصة، وكانت مدام هيو مشغولة بإعداد المائدة . وكانت المرأة في الخمسين من العمر تلوح في ثوب بسيط ، عذبة المحضر ، وقد قالت حين رأتنا ندخل الحجرة :

– أيها السادة . أيها السادة . ينبغي أن تعذرونا إذ لا بد من ان زوجي قد أخبركم ، ولا يكلف الانسان إلا وسعه وعلى قدر حالنا ستجدون كرمنا . ان المائدة على استعداد الآن فهل تحبون قبل الجلوس اليها أن تروا حجراتكم . انكم ستجدون فيها جعبكم في انتظاركم . هلم يا ميشال . خذ هؤلاء السادة إلى غرفهم. وأنت يا دنيس ابق معي لتساعدني .

وكان دنيس هذا فتى جميل الطلعة وقف يستدفىء بجانب الموقدة ، وقد جعل ينظر الينا نظرات دهشة واستياء ، كأنما قد عكر قدومنا عليه صفوه . وقالت مدام هيو تعرفنا بالفتى :

– هذا دنيس. دنيس هيو ابن أخي زوجي أيها السادة. جندي في فرقة « الحرس الارلندي » ونحن الآن ننعم به بيننا لمدة الاجازة فقط . وقد وصل من ساحة القتال ، فان الفرقة التي هو منها الآن أمام ايبرس . أليس كذلك يا دنيس ؟

فأجاب دنيس وهو ساخط حانق : نعم ، هو ذلك .

فنظرت اليه مدام هيو نظرة طويلة وقالت :

– ما هذا يا دنيس ، كن لطيفاً متهلل الأسارير . وأنتم أيها

السادة لا تغضبوا منه فانه لا يغيّب عنكم ألمه . فتى خرج من المعركة ليشهد أخرى .. وقد كان ينتظر أن يتمتع هنا بشيء من الراحة والسكون !

فضحك دنيس ضحكة المكشر عن نابه وقال : أتعدّين هذه معركة يا عمتي ؟

قالت مدام هيو وهي تتسمع إلى أصوات الرصاص في الخارج:

– ماذا تريد من المعركة أن تكون ؟ ان هذه الأصوات تصم الآذان . حسبنا هذا والحمد لله !

فأجاب دنيس وهو يلوي وجهه استخفافاً :

– على كل حال ليست هذه بالمعركة التي تحول بيني وبين الخروج من البيت في الحال .

فقالت امرأة عمه مهددة : لن تفعل ذلك يا دنيس !

قال : بل سترينني خارجاً يا عمتي .

فأجابت العجوز : ولكن تدبر يا ولدي فيما تقول فانك إذا خرجت بثوب عاديّ قبض عليك الجنود الانكليز، وان ارتديت بثوبك العسكري فلن تفلت من أيدي السين فين !

فكشر دنيس عن نابه وأشار إلى ثوبه الذي كان يلبسه وقال:

– سأخرج بشكلي هذا .

وكان الفتى لا يزال منتعلاً حذاء الجنود في الخنادق وهو في سراويله القصيرة وفي سترته الكاكي .

ودقت الساعة المعلقة فوق الجدار فقالت مدام هيو :

– الساعة الثامنة ، معذرة أيها السادة ، معذرة ، تفضلوا إلى

المائدة . تفضلوا إلى المائدة . تفضلوا بالجلوس .

وبدأنا العشاء في سكون . ولاح لنا أن مسيو هيو لم يكن يحب أصوات الطلقات ودويّ الرصاص ، وظل الاستاذ هنريكسون والفتى دنيس على التجهم واكفهرار الطلعة . وقالت مدام هيو بلهجة ودية :

– هل سرتكم حجركم أيها السادة ؟

قلت : كل السرور يا سيدتي .

فأجابت بابتسام : لله أنتم من قوم كرام القلوب . ينبغي أن تصفحوا عن تقصيرنا مرة أخرى ، فان الظروف ليست طيبة : دويّ الرصاص ، واجازة دنيس ، وذلك الحادث . انني عندما سمعت لأول مرة دويّ القذائف خانني جلدي . ولكني الآن هدأت قليلًا . على أن هذا لا يهم أيها السادة. فمعذرة عن ازعاجكم بهذا الحديث .

وتمتم مسيو هيو يقول : يا لهم من أشقياء !

وقال دنيس متنمراً : أواه لو أنني استطعت أن أقاتلهم .

فقال الكولونيل هارفي دهشاً : عمن تتكلمون ؟

فأجاب دنيس : وعمن تريد أن نتكلم إلا عن أولئك الأشقياء الذين يسمون أنفسهم بالسين فين . فإذا كان هؤلاء الملاعين يريدون أن يتلهوا بحمل البنادق ، فقد كان أولى بهم أن ينحدروا إلى ساحة الميدان في ايبرس وفردون وغيرهما .. نعم . قد كان أولى بهم أن يتجندوا !

فابتسم الاستاذ هنريكسون ابتسامته الثقيلة كعادته وقال :

– يبدو أن السين فين ليسوا محبوبين من الشعب في دبلن ذلك الحب الذي أرادوا في قصر كندال أن نعرفه ونصدق به . وأنت ما رأيك يا كولونيل ؟

فبدت على الكولونيل دلائل الحيرة ولم يجب فقال مسيو هيو :

– ليتهم يهلكون جميعاً !

فنظرت اليه زوجته وقالت : حسبك يا ميشيل . أنت الرجل الطيب القلب الرقيق الجانحة ، كيف تسول لك نفسك أن تقول مثل هذه الكلمات ؟

فقال مسيو هيو مغضباً : هل أنت اذن من صفهم ؟

فأجابت زوجته : لست من صفهم يا ميشيل أو من صف أعدائهم . فليس هذا هو موضوعنا . أنني معك ارى رأيك في أن سلوكهم متهور ضال ، وأننا سنرى غداً من جراء افعالهم هذه عدداً عديداً من الشباب عاطلين من العمل يتكففون ولا يجدون ما يسدون به ارماقهم . أما أن نتمنى لهم الموت ونود لهم القتل ، فذلك هو الضلال البعيد يا ميشيل والحقد السيء الشرير . أننا لا نستطيع أن ننكرهم أو نتبرأ منهم . فهم من دمائنا ولحمنا . وهم أهل وطننا وأبناء ارضنا . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فالله لهم . والملائكة معهم . ونحن لا ننكر أنهم فتيان كبار القلوب ، عظماء المواهب ، وأقرب مثال لذلك الفتى بارنت فهو منهم وعضو فيهم وأنت تعلم يا ميشيل أنه ليس في الفتيان من هو خير منه ادباً وأمانة واخلاصاً ودأبا على العمل .

فأجاب مسيو هيو وكان لا يريد أن ينهزم مطلقاً :

– ان وجود أمثال هؤلاء الاخيار في وسطهم أبعث على اثارة الفوضى وأدعى الى الشر والمصيبة.

فقلت : انك تحمل هـذه الحملة يا سيدي على السين فين ومع ذلك أرى في مكان الشرف من حجرتك هذه الصورة المنقوشة .

وأشرت باصبعي الى الجدار حيث كانت هناك صورة مذهبة في أطـــار بديـع معلقة فوق الموقدة ، وكانت صورة نبوءة دونيغال ! فارتبك مسيو هيو قليلاً ثم أجاب :

– أتقصد هـذه الصورة ؟ لقد أدركت مرماك يا سيدي . ولكن تلك بقية العصور الماضية . انني لا أريد بهـذا أن أقول انني أحب الانكليز . حاشاي ، حاشاي . ولكن يجب أن يعيش الانسان تبعاً للعصر الذي هو فيه . انني تاجر يا سيدي ، وعليّ حسابات ، وفي ذمتي ديون ، وبيني وبـــين المتاجر والمصارف ارتباطات وعهود. فاذا ظل حانوتي مغلقاً مدة من الزمن فهل تظن ان أولئك السادة أعضاء السين فين سيذهبون الى جابي الضرائب ويدفعون عني الضريبة التي استحقت عليّ ، ألست ترى رأيي هذا يا سيدي ؟

واختنق صوته في حلقه وكانت أصوات القذائف تدنو رويداً من مكاننا ، واذ ذاك قال دنيس :

– على أية حال ، لن يمنعني أولئك الناس من الذهاب الساعة الى بيت دوهرتي .

فقالت مـدام هيو : ان هـذا الفتى مجنون أيها السادة . انني أؤكد لكم ذلك . وأنت يا ميشل ألا تسمع ما قال دنيس؟ يريد

أن يذهب الى بيت دوهرتي ! يا للعجب . ان آل دوهرتي أيها السادة أصدقاؤنا وقد دعوه يوم وصوله إلى الحضور إلى منزلهم يوم عيد الفصح ليتناول مع الأسرة طعام « البودنغ » أعني اليوم في التاسعة من المساء . وكانوا يوم دعوه لا يدرون بأن هذه الحوادث واقعة يوم عيد الفصح فمن يظن انهم الآن يرتقبون حضوره ? وليتهم كانوا يسكنون في جوارنا ، ولكن تصوروا أيها السادة انهم يقطنون في شارع هانوفر، بجوار أحواض السفن، أعني في أقصى المدينة . فهلا عقلت يا بنيّ وتدبرت . اننا لا نريد أن نعارضك في مسراتك. ولكن لو كانت فتاتهم «أني دوهرتي» هنا في هذه اللحظة لوافقتني على ما قلت .

وكان دنيس خلال كلامها قد أسند جبينه إلى المائدة حزيناً متألماً ، كأنما قد استسلم إلى اليأس . وللحال سمعنا طرقتين فوق السقف فرفعنا أبصارنا لنرى ما الباعث ، فقالت مدام هيو :

— رباه ، هذه دقات ذلك المسكين مسيو ديفيس فقد نسيته. ما بالك يا دنيس عبست وقطبت . قل انك لم تغضب مني لقولي. هلم احمل الشاي الى مسيو ديفيس فانني لا أستطيع أن أترك هؤلاء السادة على هذه الصورة .

فامتثل دنيس للأمر راضياً طائعاً. وعادت مدام هيو تقول:

— ان مسيو ديفيس هذا مستأجر حجرة في المنزل وهو شيخ مسكين فقد بصره فتقبلت أن أقوم على رعايته . وهو يقيم في الحجرة التي فوقنا مباشرة فكلما احتاج الى شيء دق الارض بعصاه . ولكني أسمع الباب يدق . اذهب يا ميشل وانظر من

الطارق ..

قال مسيو هيو متلعثما : أتظنينهم قد ..

فقاطعته زوجته قائلة : اذهب وانظر ، قلت لك . اذ لا ينبغي للطارق أن يبقى واقفاً هكذا في الشارع . انني أتبين الآن صوت مدام والش .

ولم تكد تدخل مدام والش حتى بدت عليها أمارات الرعب .

قالت مدام هيو منزعجة : ماذا حدث ؟

فأجابت مدام والش : لقد زارنا الساعة ضابط من ضباط السين فين . وألقى الينا النصيحة – بل قولي «الأمر» فقد أصبحت النصيحة والأمر مترادفين اليوم – بأن نترك منزلنا في التو واللحظة فان ميدان المعركة قد امتد الى شارع الكنيسة، فسألته أن يدلنا على شارع هادىء ساكن فكان جوابه « اذهبا الآن الى شارع « نورث كنج » واذ ذاك تذكرت منزلكم . وخطر لي أن أرسل اليكم زوجي ولكن مسيو والش كان كأنما قد أخذته الصاعقة فجمد في مكانه لا يستطيع حراكاً . ما اغرب هذا التأثير الذي يحدثه دويّ القذائف في قلوب فريق من الرجال ! فلم يسعني إلا أن ألقي معطفاً على كتفيّ وأسير اليكم في الحال . يا صديقتي الكريمة « نومي» انك لن تتخلي عنا في مصيبة كهذه ، أليس كذلك ؟

فسعل مسيو هيو سعلة خفيفة وأجابت زوجته :

– بلا ريب ، يا عزيزتي مارتا . ولكن ها أنت ترين . فلدينا

هؤلاء السادة وهم أربعة ثم لدينا الشيخ الأعمى ديفيس ثم دنيس أيضاً . نعم ان دنيس فتى صغير وانه ...

ولكن مسيو هيو قاطعها بسعال شديد استولى عليه، ولم تمهلها مدام والش حتى تتم كلمتها بل قالت بلهجة المتوسل :

– إذن سننام في عجلة البضائع .

فأجابتها صاحبتها : كلا ، ولا ريب . كيف تنامان لعمري في العجلة ، لندع ذلك الآن . عليكما بالحضور أولاً . فإذا وصلتما فسنمهد لكما مضجعاً . هلمي عودي لتحضري معك بعض الأغطية ووسائد وفراشاً .

فسعل مسيو هيو سعلة اليائس وضحك الاستاذ هنريكسون ضحكته المعتادة . وقال : لم يعد هذا المكان منزلاً . هذه وكالة !

فألقت مدام هيو إلى زوجها نظرة ثم للاستاذ أخرى وقالت :

– من لا يعجبه المبيت في المنزل ، فليرونا عرض أكتافه . لديه شارع الكنيسة ان أحب !

*

أويت إلى الحجرة التي أعدت لي في هذا البيت في التاسعة مساء . فجلست أستمع إلى حركة أهل البيت ولكني لم ألبث أن تبينت أن الحركة قد سكنت في جميع أنحاء المنزل ، بينا كانت ضجة المعركة في الخارج آخذة في الازدياد. ولم تكد تمضي نصف الساعة حتى وقع ما كنت أرتقب .

سمعت وقع أقدام فوق السلم ففتحت باب حجرتي ، وإذ ذاك رأيت دنيس فوق رأس السلم وهو في أشد الاضطراب يحمل

حذاءه في يده ، فأمسكته من ذراعه وجذبته إلى حجرتي، وقلت مبتسماً :

– لا يليق بك أن تعصي ما قالت عمتك المسكينة .

قال : لم أعدها وعداً صريحاً .

ففكرت لحظة ثم قلت : هل إذا سرت إلى منزل آل دوهرتي تكون بعيداً عن شارع « باتشيلرز » .

فنظر إليّ غير مصدق وقال : بل أكون منه قريباً .

قلت : حسن جداً . لقد رأيت يا عزيزي دنيس أن أغمض عيني عن عصيانك لنصيحة عمتك في سبيل رجاء واحد قد يؤخرك تحقيقه بضع دقائق عن لقاء حبيبتك . واليك هذا الرجاء . هل تقبل أن أسير معك إلى أن أصل إلى منزل كيلي فان ذلك المنزل في جوار شارع باتشيلرز .

فتردد في الجواب لحظة وقال أخيراً :

– على كل حال هذا أمر يهمك أنت . هلم إذن بنا وحذار أن نثير الضوضاء فان عمتي في الحانوت ترتقب مسيو والش وزوجته .

ولم تمض بضع دقائق حتى كنا قد تسورنا الحائط الخلفي ومضينا نعدو ركضاً في الطريق .

وكان دويّ القذائف يعصف عصفاً ، وقد انعكست فوق صفحة النهر وأمواجه السوداء أشعة صفراء ، وأخرى حمراء ، من أثر الحريق الذي اندلعت ألسنته في المنازل التي على الطريق . وكنا كلما سرنا نجد عقبة في الطريق واللهب تلفح وجهينا، وتبينت طلعة رفيقي على لهيب النيران فإذا هو شاحب اللون ، في دهشة

ورعب ، وشعرت بيده وهي تتحسس يدي .

وهمس الفتى في أذني يقول بصوت أجش مختنق :

— ها هي ايبرس . ها هو منظرها الرهيب قد بدا في ارلندة. يا للهول !

وانطلقت قنبلة منفجرة عن كثب منا فأفقنا من الغشية وواصلنا المسير . وسمعت بغتة صوتاً يقول :

— سيدي الاستاذ جيرار ان لم أكن واهماً .

فرأيت مسيو كلارك ، وهو زعيم من الزعماء الكبار كنت قد تعرفت اليه منذ ساعات في تلك الحجرة التي كان القوم جميعاً منتدين فيها ، وكان يدخن سيجارته في هدوء .

قلت : كيف الحال ؟

قال : حسنة . حسنة . اننا ننتصر في كل مكان. فقد استولينا على وزارة العدل ووقعت « ستي هول » في قبضتنا ، وقد أتيح لي يا سيدي لحسن الحظ أن أسرت بمفردي خمسة وعشرين انكليزياً إلى الآن . ولكن يلوح لي أنك تريد أن تسألني رجاء . فهل لي أن أعرف ماذا جئت تفعل الساعة في هذا المكان ؟

قلت : لقد مللت المكث في الحجرة التي تفضلت بها عليّ الحكومة المؤقتة . وقد جئت ارلندة لكي أرى الحوادث رأي العين ، فليس الوقت الآن للنوم والذهاب إلى السرير .

فابتسم وقال : هذا ما أرى أيضاً .

قلت : هل لي أن أسألك أين الكونتس دي كندال الآن ؟

فأجاب : في الحق لا أستطيع أن أجزم أين مكانها الآن .

ولكن ليس عليك إلا أن تذهب إلى شارع ساكفيل فهناك المركز العام . فان الكونتس لا بد من ان تكون الآن بجوار الزعيمين بيرس وكونولي ..

في ردهة المنزل وجدت دنيس ، فقلت له :

– دنيس ، انني ذاهب إلى شارع ساكفيل ولا أستطيع أن أؤخرك الآن .

ولكن لشد ما كانت دهشتي إذ رفض الفتى أن يتركني . وقد نسي فطيرة « البودنغ » والفتاة التي يحبها والدعوة التي كان يصر على حضورها ، ولم يلبث ان قال :

– ان في الحياة لمدهشات يا سيدي . إذ من تظنني رأيت الآن في ردهة هذا المنزل بينما كنت أنت تحدث ذلك القائد ؟

قلت : من الذي رأيت يا دنيس ؟

فأجـــاب الفتى : لقيت أوجين وادوارد دوهرتي ، شقيقي الفتاة التي أحب . لقد كنت أحسبني واجـدهما في منزلها بشارع هـانوفر أمام مائدة البودنغ . لقد والله أغنيتني عـن تلك المشقة بتعريجنا على هذا المنزل .

قلت : يسرني ذلك يا دنيس .. ولكن ماذا جاء هذان الفتيان يفعلان في هذا البيت ؟

فأجاب دنيس : أتسألني ذلـــك . لقد كدت أسقط ذهولاً ودهشة إذ وقع نظري عليهما . انهما جـــاءا يفعلان كما يفعل الآخرون .. خرجا من القتال وسيعودان اليه . انهما من حزب السين فين . ولم أكن أعلم بذلك من قبل ولقد عرضا عليّ بندقية

وسألاني أن أذهب معهما للاشتراك في المعركة . أليست هـــذه فرحة لجندي في الاجازة . ما أغرب وما أعجب !..

وفي الحال وقف عن الكلام وقال بصوت خافت : انظر !

وكنا إذ ذاك في شارع مقفر بجوار شارع ساكفيل ، فنظرت وإذ ذاك رأيت شبحين جالسين القرفصاء أمام باب حانوت مغلق وسمعت صوت آلة حديدية يريدان أن يعالجا بها فتح ذلك الباب الحديديّ .

فصاح دنيس : هذا لا يليق ، هذا لا يليق !

ووثب من مكانه نحوهما فأمسك بكل رجل منهما في يـــده وشدهما إلى بعضهما البعض وهو يردد هذه الكلمات : هذا لا يليق ، هذا لا يليق !

فعدوت اليه أعاونه على الرجلين ولكنهما تخلصا من قبضتيه وشرعا يقاتلانه في صمت ، مستيئسين كل اليأس ، وجعـل دنيس يصرخ بأعلى صوته ، حتى دوت صرخاته في ذلك الشارع الهادىء ، والحال وصل إلى نجدتنا بغتة طـَوْف من الجنود الثوار ، وقص دنيس عليهم الخبر ، فقال قائد ذلك الطوف :

— هذه حادثة نهب ، وهذان شاهدان . ولكن يجب أن تذهبا معنا أيها السيدان للشهادة .

قلت : أين ؟

قال : إلى دار البريد .

قلت : هلموا بنا .

ووصلنا المكان ، وطلب الينا أن نقص الحكاية مرة أخـرى

ووقعنا أنا ودنيس بامضاءينا .

ولا يسعني الا ان اظهر اعجابي باولئك الثوار الذين لم يتجاوز عددهم الفي رجل ، ويريدون على قلة عددهم أن يمتلكوا مدينة يبلغ سكانها المائتي الف .. نعم انني لأشعر بعاطفة الاعجاب بهم اذ يأبون الا أن يستتب النظام في بهرة تلك الثورة الوطنية الرهيبة.

ومشى اللصان يحرسهما ستة من المتطوعين . وللحال دوت طلقات النار فتولتني رعدة . لقد اعدم اللصان رمياً بالرصاص !

فتمتمت اقول : « اكذا تكون سرعة العقاب » ! ورأيت الضابط الذي كان يحقق مع اللصين قد دنا مني وقال بصوت رقيق:

– نحن قد وضعنا لأنفسنا أقسى ضروب النظام، وأشد قوانين الضبط والربط . ان شرف الثورة الارلندية في أيدينا فينبغي أن نستمسك بـــه أو نخذَلَ دونه . ولكن معذرة يا سيدي فقد تذكرت انك سألتني ان ادلك على مكان الكونتس دي كندال.

والقى كلمة الى أحد جنوده فنظرت الى دنيس لاشكره وأستأذنه في الذهاب ولكن لم اهتد له على أثر . وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة فخطر لي انه لا بد من ان يكون قد رجع الى البيت لينام فلم ينشغل بالي عليه .

وسمعت صوتــاً يصيح ورائي : « مولاي ، مولاي » ! وكنت امشي في أثر الجندي الذي جـــاء معي في ردهة طويلة مستهدياً بالمصباح الذي كان يحمله ذلك الجندي في يده ، فنظرت فاذا بي أرى شبحاً أبيض يتحرك على الارض . شهدت رجــلًا ممدداً هناك فوق فراش مبسوط على اديم الردهة ، فلما انعكس

نور المصباح على وجهه تبينت الرجل .

قلت : ويليام !

فاجاب : انني سعيد برؤية مولاي ثانية .

ومد نحوي يداً . أمسكت بتلك اليد فاذا بي أرتجف .

قلت : ويليام ، انك محموم !

فأجاب : نعم يا مولاي ، ورصاصة كذلك في صدري .

فجثوت بجانبه وأنا متلهف على أن أسأله الخبر ، ولكني لم أر من الحكمة أن أفعل ذلك فوراً ، ولكنه أغنى عني ذلك اذ بدأ يتكلم ويتمتم يقول :

— انها ستسر مني ، أليس كذلك !

قلت : من تعني ، يا ويليام ؟

قال : مولاتي الكونتس .

فأجبته : نعم يا ويليام. ستسر بك ولا ريب اذ تسمع بنبئك.

قال : ستسمع بذلك حالاً يا مولاي ، فان هذا الباب يؤدي الى حجرتها ، وقد خرجت منذ هنيهة مع القائد العام كونولي ومسيو رالف ، لمشاهدة سير القتال ولمؤاساة الجرحى ، وقد طلبت أن أُحمل الى هذا المكان وأوضع أمام حجرتها . وستعود عما قليل وستراني وسيتولاها السرور مني .

فأشرت الى الجندي الذي جاء بي وقلت له : دعني معه .

ورأيت المصباح يبتعد في وسط الاشباح المتحركة في الردهة ، ولم يلبث الظلام أن ساد في المكان .

جلست على الارض وأسندت رأسي الى الحائط ، وشعرت

بالنوم رويداً رويداً يستولي على رأسي ، فغالبت النعاس وأفقت من الغشية ووضعت رأسي على وسادة الجريح حـــذو رأسه ، ولكني لم اكد اغالب النوم حتى غلبني ثانية ولم اشعر الا وقـد استيقظت مرة أخرى . وكان ويليام في تلك اللحظة يهذي هذياناً متواصلاً ، وسمعته يتكلم كلمات مريعة مخيفة ، إذ مضى يصرخ :

— انها لعبة جميلة . ورقتان من الآس وورقة بنت يا سيدي الاستاذ جروتلي . آه . آه . ما بالهم تركوا باب الحجرة مفتوحاً . انهم لا يستطيعون بعد الآن أن يغلقوا بابها . في سبيل الشيطان أيها الشقي . مت . انتقاماً لابي . آه . ها . ها ! . .

وعدت أهبط في وادي النوم العميق . ولما استيقظت للمرة الثالثة رأيت نور الفجر قد نفذ الى الردهة .

وشهدت أنتيوب جاثية على الارض وجبينها يكاد يلمس جبيني وكانت تنظر اليّ .

قالت : تعال معي الى حجرتي !

وكانت حجرتها ملأى بالخرائط وقد وضع فيها مكتب ، وفي ركن منها سرير من طراز الثكنات ، ومرآة وحوض ماء وآنية شراب . وكان غطاء السرير مبسوطاً فوقه ولم يكن قد أزيـح او فسد نظامه .

قلت بلهجة العاتب : ألم تنامي الى الآن ؟

فأجابت بلهجة تعب شديد : نعم ما دام في الحياة بقية للراحة والنوم .

وكانت جالسة وقـد أزاحت نطاقها ورأيت جدائل شعرها

الجميل مرسلة وهي تبرق كأن أشعة الشمس قد انعكست عليها .

قالت : ولكن انت . كيف كنت في مكانك ذاك ممدداً بجانب جثة هامدة ؟

قلت : أمات ويليام ؟

قالت : نعم .

وأطرقت برأسها متألمة ، فتمتمت أقول :

– لقد جئت لانني .. لا أدري لماذا . جئت لانني اردت ان أراك مرة اخرى . وذلك لانني ..

قالت : لانك ماذا ؟

فأجبت : لانني .. ولم أقــل شيئاً .. والتقى النظران ، فأطرقت برأسي وخفضت هي جفنيها ..

أواه لقد قضي عليّ أن لا أخلو بانتيوب مرة أخرى في الحياة ، اذن فلأحاول أن اخلّد تلك اللحظة الحلوة ، هنيهة تلك السعادة المعسولة .

في تلك المدينة التي عمتها النيران .. لعمركم الله كيف سكن دويّ الرصاص في تلك اللحظة ؟

لقد مضت تلك الثانية . لقد مضت ، رباه ولن تعود أبداً . لن تعود أبد الدهر !

لقد دق الباب ، فاذا القادم مسيو رالف ، ولما رآنا اكفهرت طلعته في الحـال ، ولمحت جبينه داميا وصاحت الكونتس دي كندال وقد رأت جرحه :

– رالف .. هل جرحت ؟

فأجاب بلهجة هادئة يحاول بها التغلب على اضطرابه :
– شيء تافه يا مولاتي . شيء تافه !
ثم تمهل لحظة وقال : وقد مات ويليام يا مولاتي .
فأجابت أنتيوب : لقد علمت ذلك .
قال : وقد استشهد جيمس أيضاً .
فأطرقت رأسها ..
وعاد يقول : ودافيد كذلك !
فوجمت الكونتس .. وقال مسيو رالف :
– لقد جئت يا مولاتي لانبئك بأن أعضاء الحكومة المؤقتة قد اجتمعوا في الطابق الاسفل لكتابة البيانات وهناك أيضاً الكولونيل هارفي والبارون ادزومي .
قال ذلك ثم رمقني بنظرة طويلة وأضاف : وها ان سيدي الاستاذ جيرار قد سبقهم إلى هذا المكان .
قالت أنتيوب : هيا بنا .
ومشينا في أثرها ..

*

لن أنسى في حياتي تلك القاعة ..
لقد كانت حجرة رحيبة عارية من الأثاث ، عاطلة من الزينة .
ولم يكن فوق جدرانها غير خرائط البريد واعلانات وصول مراكب البريد وقيامها .
وكان بيرس في وسط الحجرة أمام مائدة صغيرة من الخشب ، وقد جلس على مقعد لا ظهر له ، وهو مسترسل في الكتابة بعجلة

وانهماك ، وعن كثب منه وضعت أداة التليفون . وكان الجرس يدق دقاً متواصلاً ، فقام رجل إلى الأداة فأسكتها .

قال بيرس : تفضلوا أيها السادة بالجلوس .

ولم تكن هناك مقاعد كافية، فنهض الجميع ومن بينهم بيرس أيضاً والكونتس ماركيفكز، ولمحت الكولونيل هارفي والبارون ادزومي ، واقفين على مقربة من النافذة فمشيت اليهما ومضيت أشترك في الحديث الذي كانا يتبادلانه بصوت خافت .

وكان صوت المطر في الخارج شديداً ، وقد اختلط بقصف الرصاص والقنابل ، فقال الكولونيل هارفي :

— لقد جئنا الساعة من مصنع « بولاند » وقد تحادثنا مع بعض الجنود الأسرى ، فرأيناهم متفقين جميعاً على احترام الثوار في مبادئهم وسلوكهم، ويخيّل إليّ أن الانكليز لا يستطيعون أن ينكروا على هؤلاء القوم شجاعة المحاربين !

فقصصت عليه ما رأيت أنا وسمعت ، وما كان من إعدام اللصين اللذين كانا يحاولان انتهاب الحانوت، وإذ ذاك قال البارون ادزومي :

— سكوتاً ، وهلموا نسمع الزعيم .

وأشار بيرس إشارة فسكن كل من في الحجرة ، وقال :

— ينبغي لي أن أعلمكم بتفاصيل الحالة ، ولذلك لا أجد خيراً من أن أقرأ عليكم البيان الأول الذي وضعناه وسينشر الساعة في الجريدة الرسمية لحكومة الجمهورية .

ثم أمسك بورقة ومضى يتلو علينا ما فيها :

« دبلن في الخامس والعشرين من نيسان والوقت منتصف العاشرة صباحاً . لا تزال القوات الجمهورية محتفظة بمراكزها في كل مكان ، ولم تستطع القوات البريطانية أن تزحزحها عن أمكنتها أو تشق خطوطها ، وقد استمرت المعركة الرهيبة أربعاً وعشرين ساعة ، وكانت خسائر العدو تزيد على خسائر الجمهوريين . وقد أبلت القوات الجمهورية أحسن البلاء في القتال ، وتجلت شجاعتها بأجلى مظهر ،وقد أظهر جميع سكان دبلن دلائل حبهم للجمهورية ، وجعلوا يهتفون للضباط والجنود في كل مكان أشد الهتاف ، وقد استحوذ الجمهوريون على قلب المدينة بأسره وأضحى علم الجمهورية يرفرف على ساحة البريد ، وقد انقطعت المواصلات بين المركز العام وبين الأرياف والولايات ، ولكن التقارير التي بين أيدينا تدل على أن البلاد بأسرها قد نهضت ثائرة على العدو تريد الخلاص من الظلم والعسف . »

فلما أتم بيرس قراءة هذه الصحيفة ألقاها على المائدة ونظر الينا ، فلم يفه أحد بكلمة ، ولكن لم يلبث السكون أن تبدد على صيحة صوت يصرخ : « لتحي الجمهورية » وكان الصارخ بها « جيمس كونولي » وقد تقدم نحو بيرس فتعانق الرجلان .

وبدا لي الآن وجوه الخلاف بين هذين الرجلين العظيمين .

أما كونولي هذا فهو مثال الرجل الذي يؤمن بالنصر ، وأن وجهه لينم عن رجل باسل يرى أن السعي ينبغي أن ينتهي الى نتيجة سريعة فاصلة ، وعنده أنه اذا لم توجد النتائج فلا غنى عن خلقها وايجادها .

وأما بيرس فرجل له روح نبيل ونفس شاعر ، وقد يواصل القتال وهو مؤمن بالخيبة ، ويناضل وهو عليم بالفشل . فهو لا يعيش بروحه في هذه الارض الضيقة المضطربة ، بل يريد عالما من الخيال تسرح فيه مخيلته الغنية بالخواطر .

قال : أيها السادة . لنعد الى مكاننا هنا في هذا المساء اذا اذنت الخامسة ، وأما الآن فليذهب كل الى مكانه الذي نصب فيه .

فالتفت حولي ألتمس أنتيوب فلم أجدها في الحجرة، ولم استطع أن اقتفي أثرها ، بل خرجت مع الكولونيل هارفي والبارون ادزومي .

وفي ذلك البيت الصغير في شارع « نورث كنج » كان ينتظرنا مشهد رائع مخيف . فقد كان السكان في ذلك الحيّ يعرفون طيب قلب مدام هيو ورقة عاطفتها فاستفادوا في هذا الموقف العصيب بتلك الرقة حتى اسرفوا ، وكان والش هذا وزوجته قد مهدوا السبيل للكثيرين مثلها ، فلما وصلت الى المنزل ، رأيت عشرين شخصاً قد هرعوا الى البيت يأمنون فيه من كل خوف . وكلهم بين رجل التهمت النيران بيته ، وزوجة معولة اكل الحريق متاعها ، وكانت النساء معولات باكيات ، والاطفال يصرخون وينتحبون . وكانت مدام هيو تواسي هذا وتمسح عبرة ذاك ، وتشجع بكلمها العذب اولئك ، وتهدىء روع هؤلاء ، وقد أصبح البيت أشبه بسفينة نوح منه بحانوت تاجر صغير . فلما رأتنا تركت أضيافها المساكين وهرعت نحونا ..

قالت تخاطبني : سيدي ، سيدي . ما وراءك من انبائه ؟

قلت : من تعنين يا سيدتي ؟

فأجابت : دنيس ، يا سيدي . دنيس !

فلم أشأ ان اخدع تلك العجوز المسكينة ولذلك قلت :

– انني لا انكر عليك انه خرج الليلة الماضية معي وانه ..

فقاطعتني قائلة : أعرف ذلك يا سيدي ، أعرف ذلك . فقد نبأني بـــه هو بنفسه ليلة الأمس في الثانية بعد منتصف الليل عند عودته .

قلت : هل رأيته اذن ؟

فأجابت : نعم . وكان وجهه كالمجنون ولعلك تذكرانه كان اذ ذاك في سراويله العسكرية . ولكنه خلع تلك السراويل وارتدى بأثواب اعتيادية ، وخرج من البيت دون أن يقول لي كلمة عن نيته .

قلت : أخشى يا مـدام هيو ألاّ يكون ذهب للقاء الآنسة دوهرتي !

قالت : ماذا تقول ؟

فأجبتها : نعم يا سيدتي . ان أصدقاءه آل دوهرتي في الجيش الثوري !

فصرخت قائلة : يا عجباه . أيكون أوجين وادوارد دوهرتي أيضاً معهم . أيكونان من « السين فين » ؟

قلت : نعم ، يا سيدتي .

وكانت قد فتحت الباب الصغـــير المؤدي إلى فناء المنزل ، فجعلت تنادي زوجها قائلة :

– ميشيل تعال اسمع ما يقول هذا السيد. ان أولاد دوهرتي قد أضحوا من السين فين ودنيس كذلك معهم .

وراحت تمشي ذهاباً وجيئة وهي تقول : ولكنهم سيقتلون بالرصاص يا سيدي . نعم سيقتلون بالرصاص ألا تسمع يا ميشيل أنت الذي كنت أمس تود ان يهلكوا جميعاً !

وسمعت إذ ذاك نحيباً وشهيقاً . لقد كان ذلك الشيخ يبكي وقد خنقته العبرات . وقال الكولونيل هارفي برنة أسف :

– الله معهم يا سيدتي . الله معهم !

وفي هذه اللحظة سمعنا دقات في السقف ، فأجفلت مدام هيو من مكانها وقالت : آه هذا مسيو ديفيس والله لقد نسيته . لقد كان دنيس هو الذي يحمل الشاي اليه ، فأين هو الآن . أين هو ؟ يا له من فتى شهم .

وحملت قدح الأعمى في يدها وانطلقت مسرعة. وكان البارون ادزومي جالساً في مقعد صغير غير مكترث بما يحدث حوله وقد أخرج دفتره من جيبه ومضى يكتب . وللحال ارتج البيت على صوت قاصف وسكنت صرخات الأطفال إذ ذاك لحظة واحدة ثم عادت ألوفاً من الصرخات والصيحات الأليمة !

ووقف البارون ادزومي عن الكتابة وهو يتمتم : هذا صوت المدفعية البريطانية .. انها تدك البلد دكاً !

وعاد الصوت أشد مما كان ، فسكنت الحناجر ، واختنقت الأصوات ، ولم يكن يسمع إذ ذاك غير نباح كلب مروّع في البيت المجاور .

قال الكولونيل هارفي : هذه هي الخاتمة !

*

– سيدي الاستاذ جيرار ، هل من خدمة أؤديها لك ؟

تلك كانت المرة الثالثة التي سمعت فيها مسيو رالف يخاطبني بتلك الكلمات ، وأنا أفتش عن أنتيوب في كل مكان فلا أجدها.

قلت بلهجة جافية : أريد أن أرى الكونتس دي كندال ولا أظنك ستحول بيني وبين لقائها في هذه المرة أيضاً .

فنظر إليّ نظرة تهكم وأجاب : بلى سألبي رجاءك ، لقد مضت أيام وأنت تبحث عن الكونتس في المركز العام ، ولكن لقد تحول المركز اليوم إلى مكان آخر . فهلم أسير بك إلى الموضع الجديد .

قلت هلم بنا .

قال : هلم بنا ولنسرع يا سيدي الاستاذ فاننا سنتأخر إذا تباطأنا في الشوارع .

في تلك الساعة لم أشهد الصراع المخيف قبلها بأشد منه إذ ذاك ولا أرهب . لقد كانت الثورة تحتضر . بل لعلها ماتت . أجل ، ماتت . أمام ما حشد البريطان من قوة الحديد ، ورهبة النار ، وهول المدافع . لقد جمعوا لقمع تلك الثورة كل ما في قوتهم من حاصد وهالك .

وأمام تلك القوات العظيمة استبسل أولئك الشباب . أولئك الفتيان الكتبة والأساتذة والمدرسون وغلمان الحوانيت..فيا لظلم القويّ الجبار !..

قال مسيو رالف : من هنا يا سيدي الاستاذ من هنا . أرقد ، أرقد ، أسرع . والآن هلم ننهض ولنسرع ركضاً .

يا لله . ما أرهب العَدْو في تلك الطرق المهدمة ، والمتاريس المخيفة التي لا يزال الجنود البواسل ، شباب تلك الثورة الرائعة ، كامنين وراءها يطلقون النيران .

كانت جدران المنازل تهوي ، والأبنية تتحطم ، والسماء في لون الارجوان .

وعاد مسيو رالف يقول : من هنا ، يا سيدي الاستاذ . ذلك الباب . اسرع ، اسرع .

في ردهة قد غصت بالجرحى وهم في حشرجة الموت ، مشينا صوب باب حجرة مضيئة ، ووقفنا عند عتبتها حين سمعنا هتاف الفرح قد علا لوصولنا .

رأيت أنتيوب واقفة أمامي. رأيتها ممسكة بيدي. وشهدتها قد همت بالكلام . رباه ، لعلها كانت تريد أن تكشف لي عن ذات صدرها .. ولكنها لم تتكلم ، ولم أسمع صوتها العذب ، بل انتبهت على صوت مسيو رالف مقاطعاً وهو يقول : مولاتي !

وأشار ذلك الرجل إلى الحجرة فدخلنا ، ولشد ما ارتعبت ورجفت إذ وقفت أمام ذلك المشهد الذي تبدّى لعينيّ .

نسيت إذ ذاك أنتيوب ، نسيت التفكير فيها ، بل نسيت كل شيء !

في تلك الشوارع التي جئنا منها كنت أحسبني قد رأيت أشنع ما يُشهد من تلك المأساة المريعة ، ولكنني كنت على ضلال .

هنا في هذه الحجرة رأيت ما هو أشنع وأشد هولاً .

شهدت جيمس كونولي ، وشهدت بيرس ... وكان كونولي جريحاً راقداً في مقعد ، وكان بيرس واقفاً يتلو عليه ورقة كانت في يـــده وهو ممسك بالأخرى قلماً . وكان يحاول أن يكره كونولي على أن يأخذ منـه ذلك القلم ليكتب . وكان الجريح يدفعه عنه ، وبيرس يعيده اليه باصرار شديد .

ولمحت البطل ماكدوناغ بجانب النافذة وهو ينتحب ، ورأيت رجالاً آخرين لم أكن أعرفهم ، يبكون كذلك .

وفي ركن من الحجرة ، مشبكة الذراعين ، صامتة ، شاحبة اللون ، وقفت الكونتس ماركيفكز .

وسمعت بيرس يقـول بصوت مرتعش : يجب يا جيمس ، يجب ! ..

وتولى جيمس اليأس أخيراً فوقع بامضائه ، ثم طرح القلم بعيداً عنه وهو في أشد حالات الحزن والألم .

فتقدم بيرس متضائلاً خاشعاً الى القلم فتناوله عن الارض ، ودنا من ماكدوناغ ، فوقع بامضائه .

وقال بيرس بصوت مختنق : والآن لينفخ في البوق .

وكأنما قد خانته قواه ، فانطرح على المائدة ودفن رأسه بين راحتيه وجعل يَنشِج وينتحب كالأطفال .

ومضت دقيقة ساد فيها السكون ، فلم نكن نسمع الا شهقات بيرس ، ثم عـلا بغتة تحت النافذة صوت البوق ، محزناً مبكياً فاجعاً :

ثم علا في أثره صوت بوق آخر ، ولم تلبث أن ارتفعت أصوات عشرة أبواق .

لقد اعلن السين فين هزيمته .. !

وخيل اليّ أن صواعق المدافع اشتدت اكثر من قبل قصفاً ورعداً .

ولم أنتبه الا على يد تتحسس صدري فاذا الكولونيل هارفي بجانبي ، وسمعته يقول :

– جهز أوراق شخصيتك فقد دنت الساعة !

وكان الكولونيل جليلًا رائعاً في سكونه ، وكذلك كان البارون ادزورمي .

وتبدلت أصوات البنادق تحت النافذة سكوناً شاملًا لا ضوضاء حوله . ولكن لم تلبث أصوات البنادق أن عادت فأسرع بيرس الى النافذة وجعل ينادي : « امسكوا عن اطلاق نيرانكم . امسكوا عن اطلاق نيرانكم » .

ولكن صوته الخافت المختنق تبدد في وسط تلك الضجة العظيمة ..

ومشى ماكدوناغ الى النافذة ، ولمحت على وجهه أيات الاعجاب مختلطة بدلائل الحزن واليأس .

فتولتني الدهشة وعدوت الى النافذة ، وكان رالف قد استبقني اليها ، فلم نكد نطل من تلك الشرفة حتى صرخنا صرخة اعجاب شديد .

في ذلك الشارع الصغير كانت معركة صغيرة منتشبة بين جنود

من الانكليز وبين رجل واحد .. رجل واحد لا ثاني معه !

لقد كان ذلك الجبار يقاتل شرذمة بمفرده ، وقد وقف على عتبة منزل ومضى يطلق من مخلاة مغلولة الى عنقه قنبلة قنبلة .

ورأيناه قد أفرغ المخلاة وجعل يعيد ملأها وهو جاث على ركبتيه ثم شهدناه يقذف بالقنابل اعداءه .

ولم يكن الجنود يستطيعون شيئاً حياله ، وفي عشرين ثانية كان ذلك الرجل المدهش قد ألقى أربع قنابل على الجنود ولم تخطئهم منها واحدة .

ولكنه بينا يهم بالقاء الخامسة اصابته رصاصة .

ورأيت اذ ذاك بدنه الممدد فوق عتبة ذلك البيت .

وفي خطف البرق تبين لي وجهه ..

وارحمتاه لذلك الرجل : لقد كان مسيو تيرانس ! ?

طريق الجبابرة

خيل اليّ أن الربيع قد ولد في طرفة العين .

شهدت الشمس ضاحكة وسمعت صوت اطيار تغرد . وبدا لي أن الساعة لا بد أن تكون العاشرة صباحاً . وتقدمت نحو سريري ممرضة تضع منظاراً على عينها والصليب الاحمر فوق مبذلتها .

دنت ببطء نحو فراشي ، وكانت في الحجرة سرر كثيرة للمرضى ، ولكنها كانت جميعاً خالية .

قالت : لقد حضر الطبيب وكنت نائماً فلم يجد حاجة الى ايقاظك ومعنى ذلك أنه يرى أنك الآن قد ابللت من مرضك .

قلت : اذن هل سأخرج اليوم ؟

فأجابت : كلا . لا تستطيع الخروج الى المدينة ولا ريب ، ولكنك تستطيع أن تنهض من سريرك في الحادية عشرة فتطوف طوفة في الحديقة ، وستجلس اليوم الى المائدة لتناول الطعام ، واكبر أملي أنك ستخرج من المستشفى في العاشر من ايار هذا .

قلت : يالله ، اذن أمامي أربعة أيام أخرى !

فأجابت بحـدة : أتريد أن يقال عنا أننا لم نعتن بك العناية الواجبة ، لقد كنا نظن يوم جيء بك أننا لن نبقيك اثني عشر يوماً بل شهراً كاملاً .

قلت : لست اشكو شيئاً .

فأشارت اشارة معناها أن ذلك واجبك ، واصلحت أغطية سريري ونفضت الوسائد وانصرفت من الحجرة ، بعد أن ألقت بعض الأوامر الى خادم ذي لحية طويلة كان واقفاً بجانب النافذة وهو مشغول بتنظيف زجاجها .

وكانت تلك النافذة قبالة سريري ، وكان وقوفه يحجب عني منظر الحديقة ، وكان مسترسلاً في عمله لا ينتهي منه ، وخيل الي انـه لبث نصف الساعة ينظف من زجاج النافذة لوحاً واحداً . ومضت عشر دقائق اخرى وهو لا يزال في موقفه ذاك فلم أطق صبراً .

صحت عليه أسأله : كم تكسب في اليوم ؟

قال : عشرة شلنات يا سيدي بخلاف الغذاء .

قلت : لنفرض ذلك كله خمسة عشر فكم ساعة تشتغل ؟

فأجاب : عشر ساعات على الاقل .

قلت : اذا كان ذلك أجرك فيكون معدل اجرتك في تنظيف لوح واحد من الزجاج شلنا ونصف .

قال : قـد يكون ذلك . ولكن ادارة المستشفى يهمها أن يكون العمل متقنا » ..

واذ ذاك وضع أدواته من صابون واسفنج وطباشير في ناحية ،

وتقدم فجلس في ناحية قصيّة من سريري بلا احتشام ولا حياء ، فجن جنوني .

وسمعته يقول : لم اكن أظن ان اعفاء اللحية ثمانية أيام سوياً سيخفي عنك حقيقة صديقك . ألم تعرفني اذن يا سيدي الاستاذ ؟

فعرتني دهشة كبرى .

قلت : أنت هنا . انت هنا .

فوضع مسيو رالف أصبعاً فوق شفتيه وقال : صه . ولنتكلم بصوت منخفض ، انني لا أريد أن تقع رأسي من حظ هـــذه الممرضة فهي تجهل انهم وضعوا جائزة لمن يقبض عليّ .

وجلس مسيو رالف اذ ذاك على ركبتيه ومضى ينظف قاعدة النافذة بجانبي .

قال : لم يبق لنا لكي نخلو الى حديث طويل غير وقت قصير ، فلنحاول أن ننظم مجرى الحديث . كيف أنت الآن . يا سيدي الاستاذ ؟

قلت : أشعر بأنني قد أبللت الآن .

قال : هذا يسرني فقد كنت في جزع عليك .

قلت : وأنت ، كم مضى عليك في هذا المستشفى ، فلم يعرف أحد أين ذهبت ؟

فأجـاب : لقد نجوت من الموت . وقد حملت أنت إلى هـذا المستشفى في مساء التاسع والعشرين من شهر نيسان ، وفي نفس ذلك اليوم دخلته كذلك ولكن عن طريق الخدمة . وهي وظيفة مؤقتة يا سيدي الاستاذ ولها مزيتان ، أولاهما أن أدخـر النفقة ،

والأخرى أن أكون على أعين أصدقائنا إذا احتاجوا إليّ .

وابتسم لي ابتسامة أدركت مرماها ، فقد أراد بها أن يقول : « ألا تريد أن تسمع طرفاً من أنبائهم ؟ »

قلت : لقد كنت عليماً بأنبائهم حتى الثلاثاء المنصرم ، فقد كان يحملها إليّ البارون ادزومي والكولونيل هارفي .

قال : على ذكر ذلك . لعل هذين السيدين لم يقولا لك أنك كنت لهما مديناً بالحياة ، فان العدل يوجب عليّ أن أخبرك بذلك .

فتمتمت أقول : لقد أبى عليهما تواضعهما أن يقولا شيئاً .

قال : انهما شجاعان أيضاً بجانب تواضعهما يا سيدي الاستاذ . ويصح لي أن أقص عليك تفاصيل الحادث ، بعد انفجار تلك القنبلة في البيت الذي كنا فيه ، بل في الحجرة عينها التي كنا مجتمعين فيها ، لم يصب أحد من الجمع غيرك يا سيدي الاستاذ إذ اصطدمت بالجدار ، ويظهر أن لك عنقاً ضعيفة فسقطت فوق الأرض فاقد الرشد ، وكان الموقف خطيراً والكل في شغل بالنجاة ، وقد هجم الجنود البريطان على البيت ..

قلت : فتداخل إذ ذاك البارون ادزومي والكولونيل هارفي أليس كذلك ؟

فأجاب مسيو رالف : نعم . وقف ذانك الرجلان الباسلان يحملان أوراقهما في يديهما ، بينا كان الاستاذ هنريكسون يتوسل للجنود الانكليز ويتضرع ، وحملت إلى المستشفى ، وهما يمشيان حول محفتك ولم أستطع أن أشهد أكثر من ذلك ، إذ عدوت ألتمس النجاة من جنود الملك جورج الخامس !

قلت : لقد غادر الكولونيل هارفي والبارون أدزومي دبلن منذ يومين ، وقد علمت أنهما قبل الرحيل تفاوضا مع الجنرال مكسويل ، وانتهى الاتفاق على أن أعود الى فرنسا بعد شفائي واني شاكر لهما هذا الصنيع .

قال مسيو رالف :والآخرون. ما بالك لم تسألني عن أنبائهم؟

قلت : ماذا كان من أمر بيرس ؟

قال : أعدم رمياً بالرصاص يا سيدي الاستاذ في الاربعاء الماضي .

قلت : وكلارك ؟

فأجاب : أعدم كذلك في اليوم عينه .

قلت : وما كدوناغ ؟

قال : كذلك اعدم في يوم الاربعاء !

فسألته : وما مصير كونولي ؟

فأجاب : لقد حكموا عليه بالموت . ولكن كانوا رحماء به فقد تركوه وأجلوا اعدامه حتى يبرأ من جرحه ويستطيع وقوفاً على قدميه .

قلت بصوت خافت : والكونت دانتريم ؟

فأجاب بصوت مرتعش : قبض عليه في السادس والعشرين من نيسان وألقي في سجن ترالي ، ولكن رحمة للشيخ . ذلك الرجل المفلوج المسكين ، تصور وقع ذلك على فؤاده وبرودة المجس ، وحقارة السجن ، ثم اعلم أن الكونت دانتريم وجد ميتاً في الثلاثين من نيسان ، وقد جاءه السجان بالطعام !

فاستولى علينا السكون ..

والتقط مسيو رالف الأسفنجة وعاد يقول : ألم يبق أحد يا سيدي الاستاذ تسألني عنه ؟

قلت بصوت راجف : ماذا حدث للكونتس ماركفيكز ؟

وكان مسيو رالف قد جمع أدواته وهمّ بمغادرة المكان فقال : انها في السجن تنتظر حكم المجلس العسكري عليها .

ثم ابتسم واستطرد يقول : هـذا كل ما تريد أن تسأل عنه أليس كذلك . حقاً انني لا أجد أحداً لم تستفسر عنه . الى الملتقى يا سيدي الاستاذ !

فنهضت من ضجعتي مستوياً في سريري وصحت به صيحة ألم : ألا قف يا رالف . قف بحق السماء !

فعاد اليّ وهو يبتسم ابتسامة ألم .

قلت : ألا كف عن هذه الرواية الهزلية . ألا ترى ضعفي !

قال : أشهد ذلك يا سيدي الاستاذ .

قلت : اذن حسبك . حسبك . نبئني ، نبئني ..

في تلك اللحظة سمعت حفيف ثوب ولم ألبث أن رأيت الممرضة قد جاءت مقبلة نحونا ، فأسقط رالف الاسفنجة من يده ، وبينا هو يلتقطها من الارض سمعت صوته الراجف يتمتم قائلًا :

– وأما « هي » ففي السجن ترتقب حكم القضاة . انها معتصمة بالصبر فلنفعل نحن مثلها !

وأمسك عن الكلام ، اذ كانت الممرضة قد وقفت بيني وبينه . قالت بحدة : ماذا تفعل هنا ؟ ألا تدري أن قوانين المستشفى

تحظر على الخدم التحدث مع المرضى ؟

فأبدى مسيو رالف دلائل الرعب وأجاب : كنت أجهل ذلك يامس جرتي ولكن سيدي هذا هو الذي ناداني .

قالت وهي تلتفت نحوي : آه . هل هذا صحيح يا سيدي ؟ ماذا كنت ترغب اليه ؟

فعاجلها مسيو رالف بالجواب قائلًا : لقد سألني عما إذا كان يتيسر له الحصول على نسخة من الكتاب المقدس ، فأكدت له يا مس جرتي أنك ستجدين السرور كله في الحصول له على واحدة منه .

فبدت عليها إذ ذاك امارات الدهشة والاقتناع معاً .

وقالت بعظمة : أقلت سأجد السرور . لقد كان أولى بك أن تقول انني أرى ذلك فرضاً واجباً ...

*

وكذلك ظل مسيو رالف يتلو عليّ من الكتاب المقدس أياماً ثلاثة . وكانت الممرضة لحسن الحظ قليلة السمع ، وقد سرها أن تمهد لي راحة النفس والبدن معاً . وأذنت لمسيو رالف بتأدية ذلك الواجب في ساعات فراغه .

قلت وقد تلا شيئاً كثيراً من الكتاب : أمن جديد يا رالف؟

فاسترسل يقرأ بضعة أسطر ثم قال في خلال قراءته : نعم . لديّ أنباء جديدة .

قلت : وما تلك ؟

فاستمر على القراءة ثم قال وهو ينظر في الكتاب كأنما يتلو

عليّ منه : انك ستغادر المستشفى صبيحة الغد الحادي عشر من ايار.

ثم مضى يقرأ وهو لا يلوي على شيء .

قلت : وماذا عرفت عنها هي ؟

فأجاب في وسط الألفاظ المقدسة : لم يصدر المجلس حكمه بعد وينتظر ذلك غداً أو يوم السبت .

قلت : أريد ألا أبرح دبلن حتى أعرف ذلك ..

فأجاب : هيهات ، فقد تقرر سفرك غداً من دبلن . وستسافر إلى بلفاست في القطار مساء .

قلت : أواه . إذن ألا أستطيع شيئاً من أجلها ؟

فتلا بضعة أسطر من الكتاب المقدس ثم أفلت منه يقول : هل لك أن تؤدي إليّ صنيعاً يا سيدي الاستاذ ؟

قلت : لك أنت ؟

فأجاب : أجل ، لأجلي . ستصل بلفاست في منتصف الليل . ولا تقوم الباخرة إلى ليفربول إلا يوم الأحد الرابع عشر من الشهر ، إذن ستكون لديك فسحة يوم كامل قبل مغادرة ارلندة . ولا أكتمك يا سيدي الاستاذ أن بلفاست ليست بالمدينة التي تسر أو تبهج الخاطر . فلو أنك ركبت القطار ساعتين من بلفاست لبلغت قصر دانمور ولعلك تعلم أن الكونتس دانتريم كانت تقيم في ذلك القصر قبل أن تسكن كندال .

قلت : أعلم ذلك .

فتابع حديثه يقول : فإذا وصلت إلى القصر فدُق جرسه تأتِ اليك امرأة عجوز . تلك أمي يا سيدي الاستاذ ..

قلت : سأذهب يا رالف .

فأجاب : شكراً يا سيدي الاستاذ . ان امي لم تبرح دنمور في حياتها وهي اليوم الحارسة الوحيدة لذلك القصر ، واني لأخشى أن تكون اخريات أيامها هدفاً لمطاردة الشرطة . فانهم يقاتلون حتى النساء، على انني لا أحسبهم قد ازعجوها. فانها اليوم في الثانية والستين يا سيدي الاستاذ .

قلت : ماذا تريد أن أحمل اليها من الانباء ؟

قال : ما وقع بحذافيره . قل لها يا سيدي انني حي أرزق . وانني سأذهب لأعانقها اذا تيسر لي ذلـك . وارسل يا سيدي السلوى الى فؤادها ، وابعث الصبر ليهدىء جزعها . وستدعوك امي الى الغداء . ولعلك ستسألها أن تسمح لك بمشاهدة القصر ومقبرة الكونت دانتريم وأجداده العظماء . وانني لك شاكر هذا الصنيـع يا سيدي الاستاذ .

وفي هذه اللحظة دنت منا تلك الممرضة وانحنت فوق كتف رالف وطفقت هي الأخرى تقرأ معه وهي تقول : ألا تزال في هذه الصفحة لم تنته منها بعد ؟

فأجاب رالف : نعم ، يا مس جرتي . وذلـك لأن سيدي جيرار جعل يقطع عليّ القراءة بين كل لحظة وأخرى ، ليأخذ في شرح بليـغ وتعليق للكتاب المقدس .

*

وقفت والقلب واجف أدق الجرس القديم الذي حدثني عنه رالف ، ولبثت دقيقتين أنتظر ، ثم فتح الباب .

قلت : مدام ماكريغور ، أليس كذلك ؟

ووقفت أمامي عجوز قصيرة القامة ، ورنت بعينين متسائلتين رعباً وحزناً ، وكانت عيناها زرقاوين في صفرة المرضى .

قلت : لقد جئت من قِبل ابنك رالف . انه حي يرزق ، وحر طليق سراح .

فضمت يديها ووضعتها فوق قلبها وقالت : أمن قبل رالف جئت . أواه يا سيدي ، تفضل . تفضل

وأغلقت الباب وراءنا وقالت : هلم بنا . أقبلْ . يا سيدي أقبل .

واخترقنا باحة ذات جدران عالية قاتمة ، وعن كثب من سلم هناك مرتفعة قد أدركها البلى ، ونبتت الاعشاب بين أحجارها المهدمة المفككة ، رأيت ركنا مظلما وكلباً مغلول العنق يغط في نومه ويلوح لي ان الشيخوخة أدركته هو أيضاً فلم يشعر بمواقع قدمي اذ مررت به .

وفي الحق ينبغي أن ننصف قصر كندال فانه اذا ذكر بجانب قصر دنور فهو القصر السنيّ الجميل الرائع .

وفي حجرة مستديرة السقف ، قد ذهب الطلاء الأثري القديم عن جدرانها ، جلست أمام نار مشبوبة .

قلت إذ رأيتها واقفة : تفضلي يا سيدتي بالجلوس .

ولكنها أصرت على الوقوف ، نعم وقفت تلك العجوز في أثواب سوداء .

وإذ ذاك تولتني دهشة إذ جعلت أتساءل ونفسي كيف خرج

ذلك الرجل الطوال المشذب من هذه القطعة الانسانية الضئيلة من اللحم والدم ، أيكون ذلك المارد نتاج هذه الكومة الصغيرة من اللحم الانساني ؟

وجعلت تصغي إلى حديثي وهي تحاول امساك عجبها لكلماتي ونزوة فرحها،ومضيت أقص عليها النبأ، حريصاً على أن لا تفوتني منه صغيرة ولا كبيرة، إذ شعرت بأن تلك العجوز الهلوع الخائفة لن تجرؤ على سؤالي عن شيء قد أكون نسيته .

فلما سمعت بنبأ موت الكونت دانتريم والقبض على الكونتس دي كندال ، انكمشت في جلدها وانزوت مرعبة ، ولم تدمع لها عين بل أزاحت يدها عن صدرها وأشارت إشارة الصليب .

قلت لكي أقطع هذا السكون الذي تلا قصتي : وأنت هنا . ما أنباؤك ؟

فأجابت في ذهول : جاء رجال من بلفاست ومعهم جنود ورجال من الشرطة ولبثوا نهاراً كاملًا يفتشون حجرات القصر وغادروا المكان وقد ملأوا غرارة من الأوراق ولم يعدموا شيئاً .

قلت : أعشت هذا الدهر كله وحيدة في هذا القصر يا سيدتي؟

فأجابت : نعم يا سيدي .

فعدت أقول بعد سكوت هنيهة : لقد قال لي رالف انك ستتفضلين عليّ بتركي أشهد القصر وأمشي في حجراته ومنافسه ، وقد عرفت الكونتس أنتيوب وهي فتاة صغيرة ولطالما حدثتني عن دانمور ، ولهذا يسرني حقاً أن ...

فقاطعتني قائلة : لك ما تشاء يا سيدي ، لك ما تشاء !

وتحسست مِنطَقَتَها وكانت معلقة فيه حزمة من المفاتيح وقالت وهي ضاحكة : وقد قال لي رالف أيضاً انه لن يكون طيشاً مني أن أقاسمك الغداء .

وشبكت يديها ثم قالت : أسألك الصفح يا سيدي فلست الا عجوزاً فقيرة كما ترى قد سلبتها عواصف الدهر وفواجع الايام بقية ذهنها وخواطرها وأوهت ذاكرتها ، فينبغي ألا تكتمني شيئاً .

ورأيت في عينيها ذلك البريق الذي شهدته منذ دخولي .

قالت : ولكن رالف لا يفوته شيء ، فهو يعمل حساب كل آداب الضيافة والكرم .

ومدت اليّ ربطة المفاتيح ، ولما رأتني متردداً في تناولها ، قالت بسذاجة مؤثرة : لقد أخذها مني رجال الشرطة الذين جاؤوا من بلفاست لتفتيش القصر أفليس لصديق ابني هذا الحق ! ..

ولبثت ساعة أجول في انحاء القصر ، وترددت مواقع اقدامي فوق مدارج السلم ، وفي ردهات المكان القفر الموحش ، كرجع الصدى . وبلغت الطابق الثاني ، ففتحت نافذة واستندت اليها وأطللت أنظر ..

لقد كان البحر ممتداً على مدى البصر ، بحر ربيع مستهل متفح الزنبق ، والامواج تجري سوداء قاتمة .

واقفلت النافذة وفي الفؤاد مني فيض العاطفة ، ومشيت أفتح أبواباً وأغلق أبواباً .

رأيت حجرات متشابهات رهيبة كقاعات المعابد . وفي الجدران منها صور وعلى الحيطان نقوش ، صور أولئك النبلاء

البواسل الذين ظـــلوا تلك الاجيال الفاجعة المحزونة يقاتلون الانـكليز .

وقد هجر القصر أهله منذ عامين فقط ، ولكن خيل اليّ انه عَدَت عليه قرون وهو وحيد لا تخطر فيه امرأة ، ولا يمشي في باحاته رجل .

ولم ألبث أن ارتجفت اذ فتحت بابا فتبين لي ان الحجرة كانت لانتيوب مخدعا ، فسرت رأساً الى دولاب ورديّ اللون ولمست يـدي في بعض رفوفه صوراً شمسية ، وكانت الصورة لانتيوب وهي غريرة ، وقـد صورت في احداها وهي في ثوبها القصير الى الركبتين ومبذَلتها الحلوة ، وباقـة بجارة ، فانتزعتها من مكانها ورأيت على ظهرها اسم المصور وعنوانه « شارع غراند . حمامات اكس سنة ١٨٩٤ » .

فدفعت الصورة في جيبي ، وبرفـــق انسللت من الحجرة على أطراف الأصابع .

وطرق سمعي على السلم مواقع أقدام خفيفة ، وتبين لي انهـا العجوز القصيرة ، اذ من يـكون لعمري غيرها .

ولكن يالله ، أي استياء أحسست اذ ذاك ، ولكن لم يلبث هذا الاستياء ان زال، اذ بدت تدنو نحوي وهي تغمز في مشيتها.

قالت : غداؤك مهيأ لك يا سيدي .

وكانت قـد أعدت المائدة في قاعة الطعام الرحيبة وملأت أقداحاً من أقداح القصر الفضية نبيذاً أصفر ، فجلست وحدي في تلك الحجرة الرحيبة لا أكاد أبين فيها، فأكلت طعامي بسرعة.

قالت العجوز : والآن هل لسيدي أن يتبعني ؟

فأطعت . وانحدرنا معاً الى قاعة الاستقبال ، وفتحت باب الدخول اليها وتراجعت لتخلي لي السبيل الى الدخول ، ولمحت في يدها باقة من الازاهر .

قالت : لا يؤلم سيدي أن امشي به الى هذا المكان .

وكنا نخترق الطريق الصخرية التي تنساب عند قدمي القصر . وعلى الجانب الآخر من هذه الطريق ارتفع حائط اقداما ستة وفي وسط ذلك الحائط ، باب حديدي رسم عليه الصليب .

فدفعت والدة رالف ذلك الباب وقد أحدث صريفا مؤلماً ، وللحال ارتفع نعيق البوم من كل ناحية ، ووجدتني في حديقة صغيرة مسوّرة وهناك نحو عشرين قبراً من المرمر .

قالت : تلك قبور أولئك النبلاء !

وفوق كل قبر منها نقوش وكلمات منحوتة في الرخام ، فأما القبور الأولى فقد زالت عنها تلك النقوش وامحت آثارها .

وتقدمت العجوز نحو آخر قبر في صفوف تلك القبور ، وكانت باقات من الزهر فوقه ذابلة مصفرة ذاوية ، فرفعت تلك الباقات ووضعت الباقة التي جاءت بها ، وجثت لحظات تصلي .. ودنت البوم حولنا ساكنة واجمة ..

وقرأتُ فوق ذلك القبر هذه الكلمات :

« هنري باكستر كونت دي كندال ولد في الثاني والعشرين من كانون الاول عام ١٨٧٨ وتوفي في السادس من شهر حزيران عام ١٩١٤ » .

ونهضت العجوز قائلة : لا يزال لدى سيدي ساعتان قبـــل الرحيل، فبدلا من أن نعود أدراجنا الى القصر حيث لا نجد شيئاً لم تشهده ، أرى أنــه أولى بسيدي أن ينحدر في الطريق المؤدية الى البحر ، فمنذ عرفت الكونتس انتيوب وهي وليدة صغيرة المشي على قدميها ، لم تدع النزهة كل يوم في هذا المكان ، وانني لواثقة من أنه لو كان رالف ابني حاضراً هنا اليوم لما فاته أن يشير عليك بتمضية الوقت الباقي قبـــل الرحيل في مشاهدة « طريق الجبابرة » .

ثم تمهلت لحظة وعادت تقول : ومعذرة يا سيدي اذا أنا لم أصحبك ، فانه لا ينبغي أن أبتعد عن القصر ، ولكن سيدي لن يضل الطريق ، فان هذا الدرب الضيق يفضي الى طريق الجبابرة رأساً ، وهو منك على مسيرة عشر دقائق .

*

« وسيشهد طريق الجبابرة بانتصار فين ماك كول فرار الفاتح الغاصب » .

كان فين ماك كول ، الرجل الجبار المارد ، الكونت الأول في مملكة انتريم ، بلد الكهوف والمغاور. وكان له منافس عنيد . وقرن ألد ، وهو الانكليزي « بالندونر » جبار مثله ، مارد على غراره ، وكان فين ماك كول لا يخشاه ولا يُراع منه ، بل أبت عليه بسالته الا أن يدعوه اليه ، فشقّ له طريقاً في الصخر ، يصل ما بين ايقوسيا وأرلندة حتى يتيسر له القدوم الى أنتريم دون أن تبتل له قدم ، وجاء بالندونر فصرعه في النضال فين ماك كول ،

وكان يرتقب أن يتقبل المهزوم هزيمته راضياً صاغراً . ولكن لم يكن شيء من ذلك . فقد نشبت الحروب منذ ذلك العصر بين سلالة ذينك الخصمين وأية حروب موحشة كانت ، يا لله وأية معارك . لقد مضت قرون ، وانصرمت أعصر ، وكادت سلالة فين ماك كول توشك على الانقراض ، من تلك الحروب التي جعل أعداؤهم يهجمون فيها بغضبة المجنون ووحشية المفترس .

لكم الله أيها الارلنديون ، ها كم معركة فتحت ساحتها أمامكم ، معركة جديدة لا تكفي فيها الشجاعة ولا الدم المسفوح لإحراز النصر فيها واكتساب الملحمة .

أيها الارلنديون ، يا سلالة فين ماك كول العظيم ، الشجاع ، الجريء ، الذي لم يخش مزاحماً ، ولم يرعه جبار ، أنتم الذين رأيناكم بواسل ضاحكي الثغور أمام أفواه المدافع ، رحب الصدور للقاء القنابل والقذائف ، لا تكفيكم شجاعتكم ، ولا ترد عليكم استبسالكم ، بل احذروا ، قبل كل بسالة أو تضحية ، من ذلك الانكليزي المتأدب المتلطف ، الماكر المبتسم ، الذي يمدّ اليكم اليوم يده مصافحاً ، مهادناً ، وكان بالأمس يمدّها لخنقكم !

أيها الارلنديون ، ان القوة لم تضربكم ولم تهزمكم . وإنما أدركت أنها لا تستطيع معكم كفاحاً ، ولا تستطيع لكم إبادة ، فعادت عن مقاومتكم ، تحشد صنائع المكر ، وتسوق اليكم اللين والمصانعة ، وترميكم بألوان من الحيلة والتلطف ، والتهادن والرفق . فلا تنسوا أيها الارلنديون ان صلحاً ملايناً مداهناً لا تملي فيه الشروط غير القوة ولا تكتب عهوده غير الرشوة ، ولا يمهر فيه

التواقيع غير الجبن والنذالة !

أجل وسيشهد طريق الجبابرة هزيمة القويّ الظالم الغاصب ، ولكن لا بالوقوف جموعاً أمام المدافع تحصدكم حصداً ، ولا بالبسالة الروحانية وحدها تحشد لقتالهم حشداً . ولا بصلح كاذب تخدعون فيه وتكرهون عليه ، وتغلبون في الرضى به ، فسيأتيكم بعد القائد الثمل بخمرة الحرب والقتل ، الوسيط المتلطف المعسول الحديث ، الرقيق الكلم ، العذب المحضر ، فحاذروه أيها الارلنديون واجتنبوه ، وأعرفوه من شعوره الجليلة البيضاء ، وطلعته المتوردة ، ومحيا الولد الرقيق ، والأب الحنون ، ومظلته السوداء ، وثوب الردنغوت اللامع البهيّ الجميل !

أيها الارلنديون . لا يغركم ما جاء به ، وما يحمل لكم في يده السمينة الغليظة . انه لا يحمل شيئاً ، ولا يسوق ما يرد عليكم بلادكم . يا رحمة السموات .. لقد مضت سبعة قرون ، عذاباً وويلًا وثبوراً .

والهف نفسي على تلك الدماء الغالية التي سفحت : دم بيرس ، دم صاك بيربد ، دم ماكدوناخ ، دم كلارك ...

سيقبل عليكم ذلك الرجل مستهلًا مفتر الثغر ، يناديكم «يا خرافي الحسان الصغار» وعلى مائدة الشاي أو في لعبة من الغولف سيقول لكم : « امضوا ووقعوا العهد ، وارضوا بالصلح ، ما بالكم تخافون ؟ هل زالت الثقة من العالم ، وماتت من الدنيا ؟ يالله . لقد وقع الامر ، وتمت الرواية » !

فاذا ما حدث يوماً ذلك الحدث فلينهض القروي ، لينهض

الفلاح الساذج صارخاً :

« البيت بيتي وما عليكم الا الخروج منه » !

*

وانحدرت في ذلك الدرب الضيق ، وانعكست أشعة الشفق الاحمر فوق الصخور .

هناك امتد البحر أسود الصفحة وهو الذي حمل فوق صدره جنود يوليوس قيصر اذ أراد أن يشهد حدود العالم ، ويصل الى نهاية الدنيا .

ورأيت طراداً يغدو ويروح في ذلك البحر كالحارس امام الثكنة .

وانحدر الظلام فعدت أدراجي ضئيل النفس امام عظمة ذلك المشهد .

وجلست في حان أرتقب قيام القطار الى بلفاست ، وقرأت صحف المساء فعلمت ان جيمس كونولي وسان ماك دار ميدي شنقا في صبيحة ذلك اليوم في دبلن ، وقرأت في تلك الصحيفة قائمة طويلة تحتوي أسماء الثوار الذين حكمت عليهم المحكمة العسكرية بالاشغال الشاقة طوال أعمارهم . ورأيت من بـــين تلك الاسماء دي فاليرا والكونتس ماركفيكز وانتيوب ! ..

انتيوب

مسيو جيرار هنا . ياالله ، لقد كنا نرتقب وصولك غداً !

ذلك كان صوت الفتى لابولين اذ التقينا على عتبة دار الصحافة في باريس . وكان في دهشته على حق ، فقد جئت الى عملي قبل انتهاء اجازتي بيوم واحد .

قلت : وماذا جدّ في الدار بعدي ؟

فأجاب الفتى ضاحكاً : لم يجدّ شيء بل الحال كما عهدتها . نسخة واحدة لا تتغير . وقد وصلت أمتعتك منذ ثلاثة أيام فتولتني الدهشة لانك لم تخبرني بذلك قبل وصولها ، ولكني طبعاً لم أرفض استلامها . أنت تعرف ذلك ولا ريب ، وقد حملتها الى مصنع السيارات وديعة لحين حضورك . وتستطيع أن تأخذها في أي وقت تحب .

قلت : شكراً لك .

وانصرف كل منا في سبيله . وفي الساعة الثانية بعد الظهر وجدتني أمام ساحة لاغارد قبالة دار العلامة جيرار ، فصعدت السلم ودققت الجرس .

وقالت الخادمة التي جاءت تحمل بطاقتي : سأذهب لأرى هل سيدي في حجرته أم لا .

وا حيرتاه لو أنه كان غائباً عن البيت . لقد كنت أريد أن أنهي الأمر في الحال دون التمهل فيه .

وعادت الخادمة تقول : تفضل يا سيدي بالدخول .

وكانت الحجرة التي دخلت فيها غرفة مكتب الاستاذ وكانت مظلمة . فخيّل إليّ أنني لن أجترىء على الكلام إذا كانت الحجرة مضيئة .

وكنت ولا ريب قد أعددت ما سأقول إذا حانت ساعة اللقاء ، ووجدت منفساً للقول ، ولكني إذ دخلت تلك الحجرة أحسست بحنجرتي تكاد تختنق ، فقصصت على الاستاذ قصتي وختمت حديثي قائلًا :

— ولولا أنني جئت يا سيدي بنفسي لما عرفتَ هذه القصة . لقد كان في سلوكي جرأة يا سيدي، ولا أجد معاذير أتشفع بها . ولكني رأيت وسمعت ما يجب ألا يذهب سدى ، وقد وضعت عن كل ذلك ملاحظات ودونت مذكرات . وإنني واضعها تحت تصرف سيدي ..

وبينما كنت في حديثي لم يقاطعني مطلقاً بل جعل يقلب نظاراته في يده اليمنى ، وتبين لي من ذلك أنه كان في أعماق نفسه يحكم في سلوكي ، ورأيت الدهشة في عينيه قد غلبت على القسوة .

فتمهلت هنيهة لأدع له السبيل إلى كلمة يقولها ولكنه ظل على

سكوته ، فبدأت أنزعج وأفقد رباطة جأشي ثم قلت : أما عن البواعث التي دعتني إلى اقتحام هذه المخاطرة فهي ..

فرفع يده وقال : لا فائدة من ذكرها فإنني عليم بها .

قال ذلك وأخرج من درج مكتبه بضعة أوراق وانتزع منها خطابين وقال :

– اليك خطابين وصلا باسمك !

قلت : خطابان باسمي أنا ؟

فأجاب بنظرة تهكم في عينيه : نعم . ويجب أن تتوقع أن يصل إلى جامعة فرنسا بعض رسائل اك . فاعذرني إذا أنا فضضت هاتين الرسالتين . ولكني لم أكن ولا ريب أدري ..

وإذ ذاك غادر مقعده وقال : أعتذر فإنني أريد الخروج .

فنهضت من مجلسي أيضاً وسار معي إلى الباب وحياني قائلًا :

– إلى الملتقى يا سيدي . وستجدني في المنزل كل يوم في مثل هذه الساعة . فلا تدعني أنتظر طويلًا زيارة أخرى فإنني أريد أن أستخدم هذه المعلومات التي تكرمت بالوصول إلى جمعها بالنيابة عني ..

وكانت الساعة الرابعة والطلاب قد انصرفوا من مدارسهم فمشيت بطيء الخطى في شارع كلود برنار ، ثم انعطفت في شارع غي لوساك ، ولا تزال الرسالتان في يدي ومضيت أبحث عن مكان أقرأهما فيه .

وكان المساء قد أقبل . مساء جميـــل من شهر ايار المزهر . فجلست في حان البانثيون في شارع سان ميشيل وفضضت غلاف

الرسالة الأولى ، وكانت في غلاف جميل، على ورق مصقول،وقد رسم في رأس الرسالة تاج صغير مذهب .

وكان هذا نص الرسالة :

« شلسي في الرابع عشر من ايار سنة ١٩١٦ »

« لقد علمت بمزيد السرور أيها الصديق العزيز أنك قد خرجت سالماً ناجياً من تلك المهمة التي سقت بنفسك اليها. ولعلك لم تسلك معي سلوكاً يرضيني ، ولكني قد صفحت عنك وسأنعم بلقائك مرة أخرى فسأصل إلى باريس بعد خمسة عشر يوماً لأرى أزياء الصيف المقبل . وأتمنى أن تذهب إلى « ريتز » لتوافيني هناك ولننعم بالغداء معاً كأحب ما يكون حبيبان عزيزان .

صديقتك

فلورا اربيكل »

« حاشية .. كلفني ريجنالد ، ولا أظنه قد غاب عن ذاكرتك أن أخبرك بأنه يسره أن يظفر ببطاقة من بطاقاتك تبيح له الدخول إلى سماع محاضراتك في جامعة فرنسا » .

فوضعت تلك الرسالة في جيبي وفضضت غلاف الاخرى واجف القلب مرتعداً إذ رأيت خط أنتيوب .

لقد كانت الرسالة في ورق خشن وفي ركن منها رقم مكتوب بخط عريض هو رقم السجن :

« سجن بورتلاند في الخامس
عشر من شهر ايار سنة ١٩١٦»

«علمت الآن أنك قد سلمت من كل خطر. وقد تولت صديقة

لي عني إيصال هذا الكتاب اليك ، وأمنيتي الكبرى أن يقع في يدك .

ولعلك علمت أن المحكمة العسكرية قد حكمت عليّ بالأشغال الشاقة المؤبدة . لست أشكو ولا أريد توجعاً . بل لا تزال في نفسي بقية من صبر ، ومدّخر من بأس وشجاعة . وينبغي أن أتخلص من هذا الدين الذي حملته كرهاً ، وصبرت على سره كرهاً .

ألا تذكر ذلك اليوم الذي عدنا فيه من تلك النزهة التي مشينا اليها عند ساحل البحر . ألا تذكر كلمتي لك إذ قلت متوسلة ضارعة ألا تغضب مني ولو علمت عني يوماً ما كنت به جاهلًا . الا ان تلك الاسرار التي جهلتها وكنت أكتمها عنك ، ستبسط لك في كتابي هذا ، وسأشرح لك الآن ذات صدري .

لقد خُدِعتَ ومُكر بك . نعم . لقد خدعت وكتم السر عنك . لست تلك الفتاة الغريرة التي شهدتها في المصطاف تلعب وتمرح معك . لست الكونتس دي كندال ، فان انتيوب ماتت في السادس من شهر حزيران عام ١٩١٤ على أثر ذلك الحادث الذي أودى بحياة زوجها . نعم ، في ذلك الحادث الذي كاد يذهب بحياتي كذلك . ويلتا . ان الكونتس انتيوب تسكن الآن ضاجعة رفاتا بالية في مقبرة دغور ، وقد علمت منذ أيام أنك وقفت مستعبراً على قبرها وأنت لا تدري !

لست الاّ فتاة فقيرة ، كان واجباً عليها أن تتقبل بعد ذلك الحادث مكان مولاتها . ومن اجل هذا ارتحلنا عن دغور حيث الناس جميعاً يعرفوننا وجئنا الى قصر كندال .

كانت هناك نبوءة دونيغال وكان بجانب تلك النبوءة فريضة الحرص عليها لايمان ملايين الايرلنديين بها ، فأطعت وامتثلت ، ومثلت دور الكونتس من غير عناء ولا مشقة الى يوم وصولك الى كندال .

ولكني منذ ذلك العهد ظللت في جزع . لقد خيل اليّ أنني سأروح مجنونة مذهوبة اللب .

انني ان كتبت اليك كتابي هذا فما ذلك الا لكي أصدع بالحق كله . أريد أن أنفض اليك ما في صدري .

لقد كدت أعتقد أنني سأحبك . وخيل اليّ أنني مندفعة بعاطفتي اليك . ولكني كنت أحس نفسي تعود متراجعة عن حبك كلما شعرت بأنك لا تحب غير الكونتس دي كندال .

لقد كنت تحب فيّ شيئاً واحداً ، هو الذكرى التي وثبت الى فؤادك لتلك الفتاة التي رأيتها في صباك .

واليوم قد وقعت الواقعة ، ولن أخرج من محبسي هذا . فان خرجت منه يوماً، فلكي أصبح زوجة رالف ماكريجور ، فقد خطبت اليه في عام ١٩١٤ قبل أن تقع كارثة دانمور .

انك تعلم أنه شجاع باسل ، وأنه طيب كريم الفؤاد .

انه يحبني وانني أشعر بأنني سأحبه مرة أخرى .

وداعاً .

أديث ستوارت »

طويت الكتاب ببطء ، وزاغ مني البصر ، فلاحت لي أشباح

المارة ، بين طلبة وعمال ، وجنود ، يمشون أمامي ، كأنما في عاصفة لا تبين في غيومها الوجوه .

في تلك اللحظة سمعت صوتاً ينادي :

– فرانسوا جيرار . فرانسوا جيرار !

وأدرت عيني الى مصدر الصوت ، فرأيت كلوتيلد ، وهي فتاة عرفتها عـــام ١٩١٣ وكنت أطوف معها تحت جنح الليل بالحانات نشرب كؤوساً مترعة . وسمعتها تقول لغلام الخان :

– أنقل طعامي الى مائدة هذا السيد .

وجلست بجانبي غير متكلفة ولا محتشمة ، وكانت تلبس ثياباً رخيصة الثمن .

واهول الحرب ووا فجعتها ، لقد امتد ألمها وعذابها حتى إلى البغي المسكينة !

قالت : ما أبهج صدري الآن برؤيتك ، لقد خيّل إليّ وهذه الحرب قائمة أننا لن نرى بعضنا البعض آخر الحياة !

فلم أجب ، واسترسلت هي تقول :

– ليس للانسان أن يشكو ما دام الجنود جميعاً في الخنادق . لقد تساوى الناس كلهم في العذاب والألم .

وخفضت من صوتها وقالت: لقد مات أصدقاء لك كثيرون، وقد قضى سيرفيل فهل تعرف ذلك ؟

قلت : كلا !

ولم أستطع أن أجيب على أسئلتها ..

ولم تسكت هي ..

مضت تحدثني عن رفاقي . صحابتي الذين التهمتهم المعارك منذ عام ١٩١٤ وأودت بنفوسهم سُوح الحرب . بينما الأشجار تحتضن أشعة الشمس المحتضرة الذاهبة بين أغصانها الزرقاء ! ..

دار الكاتب العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧

هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

صدر في منشوراتها :

	ق. ل
شهيرات النساء في العالم الاسلامي ، لقدرية حسين	٥٠٠
أشهر ملكات التاريخ ، لليديا فارمر	٣٠٠
الأبطال ، للفيلسوف توماس كارليل	٤٥٠
مشاهير رجال العلم ، لبولتون ، ترجمة الدكتور حجاب	٥٠٠
تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، لقدري قلعجي	٢٠٠
ثورة الحرية ، رواية تاريخية لهملتون باسو	٣٠٠
قميص من نار ، رواية تاريخية وطنية ، لخالدة أديب	٣٠٠
المعتمد بن عباد (حياته وشعره) لنديم مرعشلي	٢٠٠
حفنةمن تراب الوطن (قصةحياةشوبان) لقدري قلعجي	٢٠٠
العراق الثائر ، لمحمد باقر شري	٣٠٠
الشيوعي المليونير ، لنجاتي صدقي	٢٥٠
الثائر ، رواية تاريخية وطنية ، لساباتيني	٣٠٠
ابن الشعب ، رواية تاريخية وطنية ، لساباتيني	٣٠٠
شاعر في المعركة ، رواية تاريخية وطنية ، لساباتيني	٣٠٠
لومومبا ، لقدري قلعجي	٢٢٥
لينين (حياته وآراؤه) لقدري قلعجي	٢٠٠
أدباء السجون ، لعبد العزيز الحلفي	٣٠٠
بغداد والثوار ، شعر ، لفوزي عطوي	٢٠٠

ليس بدعاً أن تكون الحرية وارلندة صنوين متلازمين ، فلا تذكر تلك الأرض المجاهدة إلا مقرونة بنعتها : ارلندة الحرة ..

لقد خاض هذا البلد الصابر فيما خاضه، ثورة غريبة في الثورات ، وانتفاضة معجزة في الانتفاضات ، إذ فيما كان العالم يصطلي بنار الحرب العالمية الأولى، واوربا بأسرها محشورة في الخنادق من صف النار ، دعا قادة ارلندة الأبطال نخبة من قادة الفكر وأحراره في العالم ليشهدوا ثورتهم المعجزة الموقوتة على الانكليز ، وفيهم ممثل فرنسا بطل هذه الرواية الذي تربطه بالبطلة الغامضة حب قديم مضمخ بذكريات الطفولة !..

وفي غمرة الأفراح وأضواء الاحتفالات، اطلقت الشرارة التي لم تكن إلا الشهاب سطع قليلاً ليترك ليل البغي من بعده دامساً ، يخبط في فجاجه الأحرار ومـا مشاعلهم الا كل روح تفيء إلى بارئها هادية مهدية تنير جنبات هذا الليل الطويل الكثير المفاجآت ، العديد العثرات ، الفائر بالدم ، الناهض بالعزم .. في شعب كله جيش اختلط قادته بجنوده ، ودُفع فيه بجنود مغمورين ليمثلوا دور البطولة فأجادوه أيما اجادة .

« شهداء الوطنية » انجيل التضحية في سبيل رفيع المثل ،قدمه للعالم أديب الحرية توماس مان الذي شد ما اضطهدته النازية ، ونجنت عليه الفاشية ، ولكنه ظل في ساح المعركة مثلاً بذاته ، ومثلاً بنتاجه ، حتى كان للحرية مهرجاناتها وخافق راياتها ..

الثمن : ٣٥٠ ق. ل.